بحــــور العطــــش

بحــــور العطـــــش

روايـــــة

رياض العربي

بحـــور العطـــش

روايـــــة

اسم الكاتب: رياض العربي

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشروالتوزيع

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ١٣٤٨٥ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

شكرو تقديرو احترام

الكاتب الدكتور تامر عطية

الاعلامى الاستاذ محمد الشريف

الكاتب الأستاذ جمال عبد الرحيم

الكاتب الأستاذ مصطفى عواض

المقدمة

كن فى الدنيا عابر سبيل

اغرس الأمل فى حياتك نبتة خضراء

أرويها بالمستقبل

لا تجعل الماضى يقف حائلا أمام تحقيق أحلامك

#رياض_العربي

"يا ليلة العيد آنستينا" صوت أم كلثوم يصدح بها وتنبعث من راديو التاكسي القديم الذي أعمل سائقًا له وأستقله مع أصدقائي "هشام" و"خالد"، فنحن معًا منذ تقاسمنا الشقة سويًا.

جئنا من مدن مختلفة بحثًا عن الرزق وهروبًا من ماضٍ يحاصرنا وتقابلنا في القاهرة، وعمل كل واحد منا في مكان.

صديقي الأول "خالد" الذي يعمل موظفًا في مكتبة عامة، هو شاب مهذب، قمحي اللون، ومتوسط الطول، ونحيف الجسم، وملتزم نوعًا ما.. يسهر معنا لمجرد الصحبة، ولا يهوي التدخين مثلنا، فهو يعشق قراءة القصص والرو ايات، وتشغل الكتابة حيزًا من وقته، ولطيبة قلبه وإخلاصه كنت أحكي له كل ما يجول بخاطري، وسمحت له بتدوين حكايتي مع حبيبتي السابقة بقلمه الرومانسي الهادئ.

أما صديقي الآخر "هشام" الذي يزامل "خالد" في العمل، فهو شاب أهوج، وأكبر مني بعامين، وطويل، وأبيض، ويترك شعره الطويل يغازل الهواء، وجريء ويعشق السهرَ والشرب وملاحقة الفتيات ولا يهتم إلا بنفسِه ونزو اته وشهو اته.

أما أنا "عادل" ففي السابعة والعشرين من العمر، وخريج تجارة، وهجرت قريتي الصغيرة وجئت إلى القاهرة وأعمل سائقًا على تاكسي، و أتمتع بجسمٍ رياضي ممشوق، وطول فارع، وشكلي وسيمٌ كما يقول أصدقائي، ولبقُ الحديث، وناعم الصوت، وطيب الكلام، مما جعلني هدفًا لعيون الفتيات أينما أكون.

نطوف بسعادة الشوارع العامرة بالناس في ليلةٍ مباركة؛ لاستقبال العيد بعد شهر رمضان المبارك.. عكس ما علق بذهني من ذكرياتٍ عن ليلة العيد في قريتي الصغيرة.

- بلاش نسهر كثير الليلة علشان نلحق صلاة العيد.

(قالها "خالد" وهو يجلس في المقعد الخلفي للسيارة).

ضحك "هشام" على كلامه بينما لم ألتفت لهما، فقد سرحت بعيدًا في الأحلام التي بدأت تزورني كل ليلة فتؤرق نومي.

- ما تروح تنام يا ابني!

قالها "هشام " ثم أردف وهو ينظر إليّ:

- إيه النكد ده بزمتك يا "عادل" حد ينام في ليلة أنس زي دي؟!

لم أرد عليه فقد كنت كمن سقط في غياهب المجهول، والأسئلةُ تتوارد على خاطري بدون إجابات شافية...

مَنْ تلك الفتاة التي أراها دومًا في أحلامي؟

وتذكرت "هبة" محبوبتي التي ارتبطت معها بقصة حب كبيرة، والنهاية كانت الفراق وزواجها من غيري فأصبحتُ وحيدًا كأن لم أغنَ بالأمس!

ولم يتبقَ لي منها إلا الذكريات التي دُوّنت ونقشت في ذاكرتي، أسترجعها من حين لآخر حتى أروي ظمئي لأيام كنت أحيا فيها بقلب.

انتبهت على نداء "هشام" لي:

- مالك يا عم أنت، سرحان في إيه؟

كالذي استيقظ لتوه من حلم طويل قلتُ و أنا أنظر إليه:

- يا أخي حلمت إمبارح حلم غريب أوي.

قال "خالد" منزعجًا:

- لسه برضو موضوع الأحلام مأثّر عليك؟

حاولت تغيير الموضوع:

- خير.. كنتم بتقولوا إيه؟

قال "هشام" وهو يضحك:

- الأخ "خالد" عاوز يسيب كل الهيصة والزحمة دي ويروح ينام.

ثم قال وهو ينظر لـ"خالد":

- يا أخي نامت عليك حيطة.

ضحكنا على سخرية "هشام" والتاكسي يمرُّ بنا وسط زحام القاهرة.

اقتربت الساعة من الثانية والنصف صباحًا.

فقلت موجهًا كلامي لهما:

- المفروض أرجع التاكسي لصاحبه، هيسألني اتأخرت ليه؟ ميعرفش أني بصيع مع شوية صايعين زيكم.

صرخ "هشام" بسخرية وقال موجهًا كلامه لـ "خالد":

- مبسوط يا عم النكدي، أهو هنروح ننام بس متنساش بقى تشرب اللبن، وتحضن هدوم العيد وتنام علشان تصحى تلم العيدية.

ضحك الجميع، ثم اتجهنا عائدين لشقتنا، التي تقبعُ في إحدي العمارات الأثرية المتهالكة الكائنة في حي "السيدة زينب" هذا الحي العريق الذي يتنفس سكانه عبق التاريخ وعبقرية المكان والزمان، فهو حي شعبي يمتاز بالعادات الأصيلة التي ما زالت صامدة أمام إغراءات العصر ومتغيرات الزمان، حيث تقارب السكان نوعًا معًا، ومشاركتهم الحياة سويًّا، وكل هذا يذكرنا بحياة الريف التي هجرناها إلى القاهرة بحثًا عن الرزق، وهروبًا من حياة روتينية بسيطة.

الشقة كانت متواضعة، تشي بأسرار الذكور التي تسكنها، مكونة من غرفتين للنوم، تنبثق من طرقة صغيرة وصالة مهملة، وحمام مطموس بارد، ومطبخ ضامر، وجوّ ذكوري كئيبٍ لم تطمسه أية أنثى منذ زمن بعيد.

الصالةُ الصغيرة تتوسط الشقة، وفي منتصفها منضدة صغيرة وكنبة بنية مائلة تتسع لثلاثة، وبجوارها كرسيان فوقَ سجادة متهالكة.

وغرفتا النوم إحداهما كبيرة، بها سريران، لـ "خالد" و"هشام"، أما أنا فكنت أنام في الغرفة الصغيرة.

الشقةُ متآكلة الجدران، تحوي ذاكرتها كل من سكنها قبلنا، وترك بصمته عليها سواء من كتابة عبارات تذكير أو إصلاحٍ لبعض الشروخ، وقطع الجبس والأسمنت تشهد بذلك.

هجرت قريتي وتركت أمي وإخوتي وجئت للقاهرة بحثًا عن سلوى تنسيني حبيبتي، إلى أن تعرفتُ على أصدقائي، و أنا أبحث عن مكان يأويني، وبعدها انغمستُ في عملي وسهراتي، ولا أعود لسكني إلا للنوم والراحة، وبعض الأحيان أقرأ ما يسطره "خالد " من خواطر وقصص، حتى بدأت الأحلام المفزعة تزورني مؤخرًا، وتقلقُ نومي كأن الذكريات تأبى إلا أن تحاصرني في صحوي ونومي.

فضلت أن أعيش على ذكرياتي، رافضًا التعلق بغيرها، فدومًا كنت أحلم بأمنيةٍ مستحيلة، وهي عودتي لمحبوبتي من جديد.

لكن هيهات...

تجرعت هذه الأمنية مع كوب من الشراب، الذي لم يعجبني طعمه مقدمًا، ولكن مع ذلك تناولته دون أن أعرف مدى مرارته إلا عند آخر رشفة. كنت دومًا أظن أن الأماني عبارة عن أقراص شديدة المرارة وأن الشراب البارد

سيغيّر من طعمها فلا أشعر به، ولكن جف ريقي من جديد كمن يلهث في يوم شديد القيظ، ولم أعد أشعر إلا بطعم المرار الذي زين أيامي وأحلامي.

لذلك قنعتُ بالعيش مع أصدقائي "خالد" و"هشام" وارتضينا جميعًا بحياة العزوبية الخالية من الزوجة والولد، والحياة المليئة بالسهر على المقاهي بعد الانتهاءِ من العمل، وقسمنا عمل البيت علينا فهذا مسؤول عن الطبخ وآخر مسؤول عن توفير متطلبات المعيشة. وظللنا معًا على هذا الحال مدة طويلة، أصدقاء وإن اختلفت طبائعنا بعض الشيء، ما يحبه أحدنا قد يكرهه الآخر، كل منا فهم طبيعة الآخر فلا يحاول فعل شيء يثير غضب صديقه.

توليفة غريبة من ثلاثة شباب لكل منهم هدف وغاية، لكنهم اجتمعوا على شيءٍ واحد وهو العيش سويًّا خيرًا من أن يكون كل منهم وحيدًا منعزلًا عن الناس.

نخرج في الصباح الباكر إلى أعمالنا، ونعودُ بعد الظهر ثم نبدأ رحلة من نوع آخر، هي حياة الجلوس على المقهى من بعد الغروب حتى منتصف الليل، تلك السهرة التي يغلفها تدخين الشيشة ولعب الطاولة وأحيانًا متابعة مباريات الكرة.

****

بعدما مرت تلك الأيام الصعبة التي اتهمتُ فيها بالمشاركة في موقعةِ الجَمَلِ إبان ثورة يناير لكوني أحد الأضلاع القوية والرئيسية في النظام السابق، فقد كنت أحد القيادات الهامة وأحد الكوادر في الحزب المنحلّ الذي كان السبب في ثورة شباب يناير عليه؛ لاقتلاعه من جذوره.

وجدت الفرصة سانحة أمامي للوثوب على أكتاف هذا النظام الإخواني والعودة للبريق الذي كنت أتمتع به، فحاولت التقرب منهم، وإظهار الولاء لهم، لكني علمت أن هناك الكثير من الشعب يرفض هذا النظام القمعي المستتر وراء قناع الدين؛ لذلك قررت المساعدة في تقليب الرأي العام عليهم من خلال قنواتي الفضائية، ومن خلال تجنيد البعض لإثارة الناس ضدهم، حتى أضمن لنفسي مكانًا في التغيير المحتمل، وعندما ربط البعض اسمي بمحاولة إفشالِ النظام الإخواني كنت سعيدًا، فهذا بلا شك يضمن لي وطنيةً مزيفةً أصعد من خلالها على أكتاف هؤلاء الفقراء الأغبياء الذين تصوروا أن ثورتهم تستطيع القضاء علينا. فصرت أنا الرجل الوطني الذي يساعد بأمواله وعماله وقنواته في الثورة ضد الإخوان.

أنا "شكري أبو المحاسن" لم يتبقَ لي إلا عامين وأدخل نادي الستين أو المعاش كما يسمى، أتمتع بكامل الصحة والنشاط، جسمي رياضي ضخم، تظهر علي هيبة القوة، يشتعل رأسي شيبًا، فكنت اسمًا على مسمى، فعلا (أبو المحاسن).

صاحب نفوذ قوي تسلقتُ كل الأنظمة، واستفدتُ من انضمامي للحزب الوطني وكنتُ أحد مصاف الناس به حتى أصبحتُ أمتلك المصانع والمزارع والقري السياحية والقنوات الفضائية الخاصة التي تخدم وتقوي

شوكتي، وتسهل زحفي نحو الأمان من غدر الحساب أو إعصار ثورة تشتعل - كما سبق- فأمنت نفسي بتلك الإمبراطورية.

تزوجتُ من فتاه تصغرني بأكثر من ثلاثين عامًا لأكمل بها وجاهتي الاجتماعية، وأعيش معها مراهقتي المتأخرة. وأحيانًا كنت أصحبها معي في الحفلات التي يقيمها رجال الأعمال.

****

صراخ وعويل وزحام وارتباك وركض ونداءات مكبرات الصوت بالمستشفى، لا تكف عن ترديد عبارات لاستدعاء كل الأطباء والممرضات وتوجههم؛ لاستقبال الحالات الواردة جراء حادث إرهابي غاشم وقع بالقرب من محطة للمترو، ونتج عنه بعض الوفيات والإصابات الخطيرة.

الكل في حالة هلع وذعر مما حدث.. فالإرهاب الأسود لا دين له فهو لا يفرق بين جنس أو لون أو دين.

سعار الإرهابيين جعلهم أكثر عطشًا لدماء الأبرياء بحجة تكفيرهم أو خروجهم من الدين، وهم في الحقيقة يبحثون عن مصالح شخصية؛ لإجبار الشعب المصري على الخنوع والاستسلام.

ولم يخطر ببالهم أن المصريين يمتلكون سر البقاء والخلود، أصحاب إرادة قوية هزمت الكثير من الملوك والجبابرة على مر أزمان التاريخ القديم والحديث.

كنتُ أنا " سماح " أو " موحة " كما يحلو لزميلاتي في طاقم ممرضات المستشفى العام الذي يستقبل ضحايا الحادث الأليم.

أظهر متأنقة ومتألقة في الزي الأبيض الملائكي، في الثالثة والعشرين من العمر، يصفني زملائي بأنني أملك وجهًا طفوليًّا بريئًا، رشيقة القوام وعيوني صافية مثل بحيرة هادئة.

جئتُ مسرعة لكي أساعد فيما دارت به النوائب على بلد أقل ما يقال عنه: إنه حمل على كاهله مقاومة المتجبرين والفاسدين. أحث زميلاتي على الإسراع، فالكل في حالة استنفار وقد تجمع الأهالي لمعرفة مصير من كان في الحادث.

أعمل في المستشفى منذ تخرجي في كلية التمريض، وأسكن مع عائلتي في حي الحسين، هذا الحي صاحب الطابع الشعبي والمحافظ على قيمته التاريخية من حب وترابط وألفة بين سكانه. والدي هو "إبراهيم البرماوي" الموظف في مصلحة الشهر العقاري، رجل متدين بسيط يرفض أن يدخل بيته قرشٌ من الحرام، تجرع المعاناة في تربيتنا أنا وأخوتي " محمود " الطالب في نهائي طب و" أحمد " في الشهادة الإعدادية، وأمي الست "زينب" أم محمود كما يناديها جيرانها في الحي، ست مصرية بسيطة تحملت عناء المعيشة مع زوجها وكثيرًا ما تستمع لما أقصه عليها مما يحدث في المستشفى، فتتألم لأحوال المرضى والمصابين.

عدتُ إلى البيت بعد يوم من العمل الشاق في تضميد جراح المصابين ومواساة أهالي شهداء الحادث الغاشم الذي أودى بحياة الأبرياء ليس لشيء إلا أنهم في زمان اختلط فيه الحابل بالنابل، فالكل يحاول أن يتحكم في الإسلام كأنه الوحيد الذي يملك تلابيبه وحدوده وأوامره ونواهيه.

دخلتُ البيت و أنا في قمة التعب والإرهاق، واستقبلتني أمي عند الباب بحضنها الأموي، وإشفاقها علي من تعب اليوم القاسي، فقد عرفت ما حدث من متابعتها المستمرة للقنوات التليفزيونية.

فقالت بكل حنان وهي تربّت على كتفي:

- حمد الله على السلامة يا بنتي.

بعيون يملؤها الإرهاق قلتُ:

- الله يسلمك يا ماما، كان يومًا فظيعًا، المستشفى كلها كانت و اقفة على رجل، وصوت الصراخ والنواح وريحة الدم في كل حتة، ده غير الناس اللي و افقين بره المستشفي.

أمسكت أمي بيدي و أنا أدخل خلفها لشقتنا البسيطة المكونة من ثلاث غرف للنوم وغرفة لاستقبال الضيوف، وفي الصالة كنبة قديمة بعض الشيء، ونيش به بعض المتعلقات المعيشية البسيطة.

أسلمت نفسي للكنبة و أنا أتلوى من الإرهاق، حتى قالت أمي وهي تتوشح بلمحة من القهر والحزن:

- منهم لله البعدة، ربنا ينتقم منهم، والله طول عمرنا عايشين سوا، والمسلم والمسيحي جيران وأخوات، عمر ما كان بينا فرق، طب زمان كان عندنا جارتنا الست أم "ماجد" ربنا يرحمها كانت تصوم معنا في رمضان، ونسهر كلنا سوا نتفرج على الفوازير.

قلتُ و أنا أنظر لأمي بحسرة وألم:

- آه يا ماما لو تشوفي المناظر النهارده في المستشفي.. يا لهوي، تصعب على الكافر والله دي أعمال ناس معندوهمش قلب.

قالت أمي وهي ترفع يديها للسماء:

- ربنا يكون في عونهم يا بنتي ويصبر أهاليهم، ويرحم الشهدا، بس المفروض اللي يتمسك بعملة زي دي يشنقوه.

ويدخل علينا أبي وهو يمسك في يده فوطة ينشف بها يده فقد كان يستعد لأداء الصلاة، وكان أبي رجلًا بسيطًا مكافحًا، في السادسة والخمسين من عمره، وطويلًا، ممتلئ بعض الشيء، الشيب يكسو شعره، وعلامة الصلاة تزين جبهته العريضة.

يبادرنا أبي بقوله:

- الإرهاب نتيجة طبيعية لكلام فاسد، زرع فيهم أفكار فاسدة كلها عنف وقتل وإرهاب للناس، هو ده الإسلام عندهم؟!، وكمان عاملين نفسهم قضاه يحكموا على الناس، ده مسلم وده كافر.

الرسول - صلي الله عليه وسلم- عاش في المدينة في سلام مع اليهود والنصاري وكان بينهم عهود، وعمره ما فكر يخونهم أو يعتدي عليهم، إلا لو هم بدؤوا خيانة العهد وكمان وصى المسلمين أنهم يعاملوا أقباط مصر معاملة طيبة.

- هم يعني يا بابا ميعرفوش الكلام ده.
- طبعا عارفين، لكنهم عبيد الجاه والسلطة، ومع أن ربنا سبحانه وتعالي حرّم قتل النفس إلا بالحق.

ثم قال أبي ونحن ننصت له:

- الإسلام حاجة كبيرة قوي وكله تسامح وإخوة، لكن دول شجرة خبيثة، زي ما القرآن قال، مفيش منها أي منفعة لا ثمر ولا حتى ضِل، ربنا يحميك يا بنتي أنت واللي زيك.

ووقف متجهًا لغرفته لأداء الصلاة، لكنه استدار وقال وهو يشير لي:

- إوعي تقصري في واجبك، لأن ممكن يكون أي حد مننا مكان الشهداء أو المصابين، وربنا يحفظ مصر من كل سوء.

عقبتُ على كلامه مستنكرة:

- لا طبعا يا بابا، إزاي بقى، ده حتى مدير المستشفي النهارده ما قعدش ولا لحظة على مكتبه وكان رايح جاي زي النحلة يصرخ ويزعق فينا.

دخل أبي غرفته وما يزال يتمتم وصوته يأتي من الداخل يقول:

- ربنا يبارك فيه وفيكم، ويصبر أهالي المصابين والشهداء، وحسبنا الله ونعم الوكيل في الإرهابيين.

قالت أمي وهي تنظر لي وتضع يدها على كتفي:

- يلا يا بنتي قومي غيري هدومك علشان أجهز لك لقمة تأكليها.

قلتُ و أنا أقف بتثاقل وخمول:

- لا، لا يا ماما مش قاردة، أنا هغير هدومي وآخد دش و أنام شوية. هلكانة قوي، هموت من التعب.

نظرت لي أمي بإشفاق على حالتي، وتركتها ودخلت غرفتي الصغيرة، وبها سرير صغير ودولاب بسيط لملابسي، وفي الجانب المعاكس للسرير توجد تسريحة وعليها بعض الأدوات التي استخدمها في مكياجي الخفيف، وخلفها مرآة متوسطة، أما على الجدران القديمة بعض البراويز لبعض آيات من القرآن الكريم، وبعض صور من الطبيعة بينما كنتُ أبدل ملابسي، سمعتُ أمي تقول:

- أنا خايفة على البنت قوي، ربنا يسترها.

قال أبي وهو يتعجب من كلامها:

- خايفة من إيه يا وليه؟ ده شغلها ولازم تعمله والناس اللي اتصابت دي، كان ممكن أكون أنا أو أنت أو أي حد تاني، هو الإرهاب بيفرق؟ ده واحد جبان بيرمي قنبلة أو يفجر نفسه في مكان ميعرفش هيكون فيه مين، يا ترى طفل ولّا رجل ولا ست مسلم أو مسيحي، فاكر إنه بكده يدخل الجنة.

سمعتُ صوت التليفزيون صادرًا منه أخبار عن الحادث الغاشم، وصوت أمي تترحم على الشهداء، وتدعو لي الله بأن يرزقني بابن الحلال، فبتسمتُ لطيبتها، وخرجتُ متوجهه لآخذ حمامًا قبل أن أخلد للراحة.

كما يولد المحاق في ليلة صافية فلا يشعر به أحد، فمن ثنايا الحلم تولد الحقيقة عاجزة، لا تعبر إلا عن و اقع مظلم وأليم تحفه المخاطر من كل جانب.

ها أنا أعود حاملًا سوأتي مثقلًا بها، كالذي يحمل جبلًا على ظهره، ارتميتُ على أريكة في إحدى الحدائق العامة، وعيني تتوثب لرؤيتها، حتى لمحتها من بعيد تأتي مسرعة نحوي ببراءة الأطفال، فوقفتُ باسم الثغر، ومددتُ يدي لاستقبالها بين أحضاني التي تشتاق إليها، وسرتُ نحوها خطوات، كالذي يُساق لقدر قُدر له، قدر لم أجهز جيشي لملاقاته، حتى أخرجني من نشوتي، صوت ينادي عليها، فتوقفت وهي تنظر لي، ثم استدارت مسرعة ناحية الصوت، وعدتُ ألملم أشلاء الانكسار والحسرة، وأرتمي بجسدي على الأريكة مرة أخري.

أنا" حسن " أبلغ من عمري ثلاثة وثلاثين عامًا، أعمل مدرسًا للفلسفة، ويحلو لزملائي مناداتي بلقب " الفيلسوف المجنون " بسبب عشقي للفلسفة، ممتلئ الجسم نوعًا ما، شعري مجعّد و أتركه كثيرًا دون عناية، وذقني نابتة دومًا دون راحة، وأحب المرح والفكاهة، وكثيرًا ما كنت أقوم بعمل المقالب في زملائي بالمدرسة، حتى زوجتي الحبيبة لم تسلم من مقالبي الساخرة وحركاتي المضحكة، وكنا نعيش في شقة صغيرة مكونة من أوضتين وصالة، أعود من عملي لأنعَم بالقرب من زوجتي، نعيش في سعادة وحب، ورزقنا الله بطلفة جميلة أطلقت عليها اسم "فرح" وكانت سببًا لفرحنا الدائم، كنت أفرح و أنا أراها تنمو وتكبر أمام عيني، ألاعبها وأداعبها و أقضي معها معظم وقتي، حتى بدأت زوجتي تشعر بغيرة محببة بسبب تعلقي بـ" فرح "، وأعددت لها غرفة خاصة، بها كل لعب الأطفال نقضي بها وقتًا طويلًا نلعب ونلهو ونضحك، مع متابعة عن كثب من زوجتي المشغولة بأعمال البيت.

حان موعد الإجازة الصيفية، حجزت أسبوعًا في مصيف "رأس البر" هدية لزوجتي لعلمي بمدى احتياجها لتغيير الروتين الذي نعيش فيه، فرحت زوجتي جدًّا بمجرد أن أخبرتها بموعد ذهابنا للمصيف.

وفي اليوم المحدد وصلنا شقة قريبة من البحر، واستمتعنا بأسبوع من السعادة والحب وشقاوة " فرح " وبكائها عندما تلمس المياة المالحة عينيها الصافية، وزوجتي تضحك من قلبها و أنا أرش عليها الماء، فتجري و أنا وراءها حاملًا " فرح ".

انتهى الأسبوع، جهزنا الشنط وركبنا سيارة أجرة لتقلنا حيث شقتنا، وكنتُ أجلس بجوار السائق بجسمي الممتلئ، وتجلس زوجتي في المقعد الخلفي بينما " فرح " تتنقل بشقاوة بين المقعدين، فكنا نضحك على حركاتها، ونتمايل على صوت أغاني تصدر من سماعات السيارة، مد لي السائق يده بسيجارة فتناولتها منه، و أنا أطلب من زوجتي أخذ " فرح" معها في المقعد الخلفي حتى ننتهي من التدخين، ومع صوت ابنتي الجميلة وهي تناغي وتقول: باابا باابا، و أنا أضحك أشير لها بما يعني سآخذها عندما أنتهي من سيجارتي... وفجأة!

****

صباح ملبّد بالغيوم، وأحداث عجيبة، وقرارات تعكر صفو المياة العذبة، كل هذا وقع على رأسي كالصاعقة، وجعلني في قمة الانفعال والعصبية، فلم أجد إلا صهري " محجوب " لأصب عليه جم غضبي و انفعالي الشديد، فقمتُ بطلبه، فجاء من فوره مسرعًا.

" محجوب " زوج ابنتي وذراعي اليمين في كل أعمالي، شاب طموح تعلم مني كل فنون التعامل، وكل أساليب الخداع والمراوغة، يظهر الوطنية وهو لا يعرف لها معنى، يظهر الطيبة وهي لا تعرف مكانًا في قلبه، يظهر الخنوع لي وهو لا يبحث إلا عن مصلحته، مستعد لفعل أي شيء للوصول لهدفه، وهذا ما كان يعجبني فيه، فقد كان يحقق لي أنا أيضًا كل أهدافي المشروعة وغير المشروعة، لذلك لم أمانع في أن أزوجه ابنتي.

يأتي هذا المتسلق الزالف -كما كنت أطلق عليه بيني و بين نفسي- مسرعًا ودخل مكتبي في اللحظة التي كنت أصرخ فيها في وجه سكرتيرتي التي خرجت مسرعة شاحبة الوجه، تتصبب عرقًا.

وقف " محجوب " أمامي يعدل من هندامه، وكان شابًا طويلا، ونحيفا، قمحي اللون، تخرج من عينيه الحادة نظرة شر دفين، النفاق يظهر في حركاته وسكناته، وأظنه من نفس المعدن الذي صنعت منه شخصيتي.

قال " محجوب " بانزعاج من عصبيتي:

- صباح الخيريا باشا.

أشرتُ له بيدي ملوحًا أن يجلس صامتًا فقد كنتُ أجري مكالمة هاتفية.

- ألو.. ألو.
- إيه يا باشا اللي بيحصل ده؟ أنا برضو الرجل بتاعكم، وو اقف جمبكم في كل صغيرة وكبيرة وبضحي بمالي وصحتي علشان البلد، يكون ده جزائي؟!

صوت الرجل الآخر متحدثًا معي:

- اسمع يا "شكري" الأمر مش بأيدينا، دي تعليمات من فوق، ما نقدرش نعمل حاجة، ولا أنت ما بتسمعش أخبار.
- سمعت طبعًا يا باشا بس الكلام ده يمشي على أي حد غيري، فأنا رجل الدولة، ولّا خلاص عشان شوية عيال عملوا ثورة يبقي الرؤوس اتساوت.

صوت الرجل الأخر متعجبًا من كلامي:

- الريس قال الكلام يطبق على الجميع، واللي يعترض يتعامل بالقانون.

قلتُ و أنا أحاول امتصاص غضبه:

- أيوه فاهم إن سيادته قال كده، بس فكرت إن أنا بره الكلام ده.

فقال لي الرجل ناصحًا:

- حاول يا "شكري" تتصرف وتقنن أوضاعك؛ لأن كده ممكن نغرق كلنا لو سكتنا عنك أو عملنا لك أي استثناء واحنا برضو معاك وبندور على حل للمشكلة دي.

انتهت المكالمة مع الرجل المسؤول دون وعد صريح باستثنائي من أوامر الرئيس، أو حتى بوعد بمساعدتي في هذا الموقف الصعب الذي أتعرض له.

داخل مكتبي الفخم، الذي يوجد في نهاية حجرة واسعة، يزينها انتريه فخم على الجانبين، وفي الجانب الآخر مائدة للاجتماعات، وخلف المكتب صورة كبيرة للرئيس، ونافذة كبيرة تطل على النيل مباشرة.

جلستُ وأنا في قمة الحيرة والعصبية، مما قاله لي هذا الرجل في المكالمة، فماذا يعني كلامه بأن أصرف أموري، أليس أنا من وقف مع الدولة وساعدها ضد النظام الإخواني، فبدلا من مساعدتي والوقوف معي في تلك

الأزمة، يطلبون مني التصرف، هل نسوا مساعداتي وتضحياتي، أم لم يشفع لي ما دفعته من رشاوي وهدايا؟ أزمة كبيرة قد تعرض مستقبلي كله للانهيار، لا بد من البحث عن حل قانوني لهذه المشكلة.

أخرجني من ذهولي " محجوب " حين قال، وكنتُ نسيت وجوده في مكتبي:

- خيريا باشا حصل إيه؟

أخذتُ نفسًا عميقًا وقلتُ و أنا أشيرله:

- اسمع يا " محجوب "، تروح تجيب محامي المجموعة في ظرف ساعة يكون هنا قدامي.
- أوامرك يا باشا، بس افهم حصل إيه مخلي سعادتك عصبي؟!
- " محجوووب " أنت تنفذ وبس من غيرولا كلمة، وهتفهم كل حاجة في الوقت المناسب.
- طبعا، طبعا يا باشا، أوامرسعادتك تنفذ من غيرولا كلمة.

خرج "محجوب" وتركني شارد الذهن في هذة المشكلة التي أرقتني وذهبت بعقلي، فعلى قدرسلطتي وقوتي، كنت أخاف الفقروأعتبره أكبرعدو لي، وأشعردومًا أنه يجري ور ائي.

تقتحم أفكاري وهواجسي رنة هاتفي المحمول، فإذا هي زوجتي، لم أكن في حالة تسمح لي بالرد عليها، فألحت في الاتصال، فأمسكتُ بالهاتف وصرخت فيها:

- أيوه حصل إيه؟ أنا مشغول مش فاضي.

وقبل أن تفيق من حسرتها وترد أنهيت المكالمة وألقيت بالهاتف أمامي على مكتبي و أنا في قمة انفعالي.

قلتُ لنفسي:

- ومن إمتى و أنت فاضي لي يا " شكري "، كل همك الشركة والفلوس، لكن أنا حتة أثاث مرمية في قصرك الكبير.

كنت في الر ابعة والعشرين من عمري، جميلة، متوسط الطول، شعري ينسدل على كتفي، لا يدل منظري على كوني مجرد فتاة جاءت من الريف، بمواصفات ملكة الجمال التي توارت سنوات بداخل دار الفقر والعوز، ويأتي هذا الرجل الغني وقد أشرق وجهه كأن فيه كل معاني ذهبه وفضته، وإن كان هذا الوجه الجلدي كأنه بعض ما خلق من أحذيته الرزيلة. يريد أن يشتري الحسناء الجميلة، اشتراها من فقرها بماله، ومن تعاستها بقبحه، اشتراها و انقلب بها وكان لها خز انة من حديد حبست فيها لؤلؤة!

هل يكفر عن جريمة قتل الفقراء بأن تكون دية قتلهم كفنًا من خيوط الذهب؟!

هل صار الجمال ذنبًا ليتم إرسال الجميلة لتقلم بألحاظها أظفار الوحش؟

أيوثق قلب الحسناء بالسلسلة الذهبية التي صيغت من كلمات الزواج، ثم يشد طرفها في يد الرجل الذي تكرهه، وتُحرم ممن تحب؟

ألم يسمع أحد صوت هذه السلسلة في دموعها أو في تنهدها أو في أنينها؟! لقد أنفذوا في قلبي مسمارًا من الذهب، فأصبح قلبي يتغذى من البغض، ذلك الغذاء المسموم فيلقي على شبابي خيال الموت ويجعل حياتي نزعًا واحتضارًا.

قد جعل العشب الأخضر يابسًا، فلم يكن أمامي إلا أن أنزوي بأغصاني و أنثر أوراقي ذابلة يملأ منها حبالته غير مبال إلا كما تبالي البهيمة. ها أنا اليوم

أصبحت مثل الباب المهدوم بين الماضي الذي كان قصرًا، وبين المستقبل الذي هو من أنقاض هذا القصر.

تزوجني " أبو المحاسن " رغم رفضي القاطع إلا أنه أغرى أهلي بأمواله وسطوته، استجبتُ لطلب والدي الفقير المريض وأمي المستبدة برأيها لانتشالهم من الفقر المميت حتى أكون سندًا لإخوتي أمام شراسة حياة تفرم كل محتاج، رغم محاولاتي الرفض في البداية، لكني لم أرَ مفرًا من المو افقة، فكان كالصنم الذي تقرب له الذبيحة وعيناه جامدتان، تبعثان الرعب والخوف وليس فيهما من قدرة الغنى إلا جمودًا ينظر بهزء وتهكم تلك النظرات الميتة.

فهل يأتي اليوم الذي ينتزع من قلبي، هذا الثقب العميق الذي أحدثه فيه وملأ غوره بالألم ومرارة الحياة؟!

يا لها من عداوة ثابتة بعقد وشهود، وبين القبول والرضى والبركات... في ثياب العرس!

عشتُ في قصره مجرد دمية جميلة مجردة الإحساس والمشاعر، ليس لي رأي ولا وزن في حياته سوى المظاهر الاجتماعية فقط.

أتمتع بالمال والمعيشة الرغدة، لكنني مثل الطائر الأخضر الكسير، أعيش في قفص من الذهب الخالص فلا أشعر بطعم الحياة، شكوتُ له مرارًا لكنه تحجج بمكانته الاجتماعية وأعماله الكثيرة.

وها أنا الآن داخل القفص فاقدة الحرية، فاقدة الإنسانية، فاقدة أبسط حقوقي كأنثى جميلة، مرغمة ألا يكون لي ولد، وحرمت من إحساس الأمومة، وهذا ما اشترطه علي زوجي بحجة كبر سنه، ولا يريد أن يصبح مجالًا للسخرية من أحد، كما أن له أولادا وأحفادا من زوجته التي توفت بسبب مرضها منذ أكثر من أربع سنوات، بعدما أنجبت له ولدَين يدرسان بالخارج

والبنت الوحيدة التي تزوجت من "محجوب" ساعِده الأيمن وتربيته، وخازن أسراره، فهو الوحيد الذي يعرف ويعلم كل كبيرة وصغيرة في عمل "أبو المحاسن".

لم يشفع لي ثراء زوجي ليسرق لي حظًا من الأمل والسعادة أحيا به، فقد أخفى عني زوجي كل أسراره كأني مجرد غريب اقتحم حياته برضاه، لكن لا يأمن له.

إذن لمَ تزوجني؟! لماذا لم يتركني أنعم بالزواج من حبيبي؟!

أتذكر حبي الأول فيلتاع قلبي حسرة وندمًا، وتزرف عيني الدموع على تفريطي في حبي وعدم تمسكي به.

خرجت مني تنهيدة حسرة وأنا أتذكر حبي الوحيد في حياتي، وكيف وقف القدر حائلا بيننا وفرقنا عن بعضنا.

هل تزوج من غيري؟

هل نسي أيامه معي؟

ألم يعد يتذكر لقاءنا الدائم عند شجرة التوت، تدور الساقية حولنا كأنها تعد دقات قلوبنا، هل تناسى ضحكاتنا التي كانت تملأ أرجاء القرى المجاروة؟!

كم كنتُ سعيدة عندما أجده يتنظر عودتي من المدرسة بالزي الكحلي والطرحة البيضاء، أحتضن كتبي وأضمها لصدري كالطفل الصغير، كان يتنظرني بابتسامته الساحرة وتفاؤله المعهود بأن أكون زوجته وننجب من الأولاد والبنات ما يملئون علينا البيت حبًا وسعادة.

****

تحولت حياتي لجحيم عندما أرسل لنا " شكري " طالبًا الزواج مني.

فلماذا اختارني وهو لم يرني إلا مرة واحدة؟

قررت التخلي عن براءتي وأن أبحث عن مصلحتي بعدما سمعت زوجي في إحدى المرات يقول لأحد أصدقائه في التليفون:

- يا عزيزي، كلنا شجرة واحدة قبل ما تنشف أو تموت، لازم نقطع منها فرع ونزرعه في الأرض عشان يكبر ويكون نفس الشجرة القديمة بكل صفاتها... ما ينفعش نطعم شجرتنا بفرع غريب؛ لأن كل الفروع هتتفق عليه وتطرده بره الأرض.

ربما كانت حياتي مثل السماء في ليلة عاصفة، مهما شقتها ضربات البرق ودوت في ثناياها زمجرة الرعد، فإني قررت استعادة توازني ولملمة أشلائي من جديد، وصممتُ أني لم ولن أتنازل أكثر من ذلك، صرت تلميذة نجيبة لزوجي وتعلمت منه الكثير رغم قصر المدة التي عشتها، فحبستُ مشاعري في أدراج أحزاني، حبستُ تلك الفطرة البرئية أدراج الحسرة والندم، تعلمتُ منه نفسي نفسي ومن بعدي الطوفان، انتهزتُ كل الفرص لأطلب منه المال، فأشتري لنفسي أفخم أنواع الملابس ذات الماركات العالمية، و أقتني الذهب والألماظ بالإضافة لمهري وشبكتي فيلا في الساحل الشمالي، ورصيد كبير في البنك.

****

ها أنا الآن وبعد مرور أكثر من خمسة شهور أصبتُ فيهم باكتئاب وانعزلتُ عن الناس، أهملتُ عملي حتى صدر بحقي قرار فصل فلم أتقدم للحصول على إجازة فاعتبرتُ متغيبًا، وزهدتُ الحياة التي أصبحت من غير زوجتي وابنتي لا معنى ولا طعم لها.

وأكتفي بالمشي طوال النهار حتى أعود متعبًا، فأنام حاضنًا ذكرياتي دامع العين على ما أصابني.

أتذكر لحظات انتظاري في طرقات المستشفى أمام غرفة العمليات، لأطمئن على زوجتي، رغم دموع قلبي المحبوسة لفراق ابنتي الوحيدة في الحادث، لكن ما زلتُ أتمسك بأمل الاحتفاظ بزوجتي. لنستأنف رحلة الحياة التي جمعتنا في قصة حب جميلة توجت بالزواج وأثمرت طفلة جميلة رقيقة لم يتعدَ عمرها عامين، لكن ها هو القدر يحرمني منها وأوشكت زوجتي على اللحاق بها ليتركاني وحيدًا.

فقد أتت سيارة نقل كبيرة مسرعة فتصدم السيارة التي كنا نستقلها، لتكون الصدمة من النصف الخلفي حيث تجلس زوجتي الغالية وابنتي الجميلة، فقد السائق السيطرة على السيارة فزحفت أمام السيارة النقل وانقلبت، ونحاصر بداخل السيارة وأنا لا أسمع إلا صوت زوجتي تناديني بألم:

- " حسن " الحقنا... هنموت يا حسسسسسن.

وفجأة سكت صوتها، فدفعتُ الباب بجنون بمساعدة السائق وحاولنا جذبهم من السيارة حتى نجحنا في إخراج الطفلة، لكن " فرح " لفظت أنفاسها الأخيرة وصعدت روحها البريئة لترافق أطفال الجنة حضتنها وأنا مذهول، وتأبى الدموع مفارقة عيني، فقط حسرة ولوعة وعصرة قلب، تجمّع

حولنا الكثير من السيارات، وساعدنا الناس في إخراج زوجتي التي كانت ما تزال على قيد الحياة، ونقلنا الإسعاف إلى المستشفى، وأصيبت زوجتي إصابة بالغة في الرأس، أما أنا فكانت إصابتي كسرًا بالذراع وبعض الكدمات.

وأمام غرفة العمليات ودّعتُ زوجتي، كما ودعتُ " فرح " قبلها بساعات، وأبى القدر إلا أن يخطف مني أعز الناس في حياتي. لم أتمالك نفسي بمجرد سماع الخبر من الطبيب ورحتُ في غيبوبة، وأعقبها اكتئاب وانعزال عن الناس وفصل نهائي من العمل.

بدأتُ رويدا رويدا أنسى أو أتناسى؛ لأن الإنسان ينسى كل شيء يكرهه أو يضايقه، فالنسيان هو " الكماشة " التي تخلع المسامير من أحذية حياتنا ونحن لا ندري، فتناسيت الأشياء التي كانت تضايقني وتقلبني في فراشي كاللحم في النار.

خرجتُ من عزلتي وصمتي وحالتي النفسية، ذهبت إلى كل مكان كنا فيه سويًّا، وكنتُ أشاهد صورة ابنتي في وجه كل طفلة جميلة وأشعر كأنها تبتسم لي، مما سبب لي مشاكل كثيرة عندما كنت أقترب من أي طفلة لكي أحملها أو أحضنها.

في إحدى الحدائق العامة، لمحت طفلة تجري نحوي وتتبسم فوقفت مبتسمًا وتخيلتها " فرح "، بسطتُ ذراعي لأحضنها، لكن نادت عليها أمها، فعادت الطفلة لأمها، وعادت لي الحسرة.

بعد هذا الموقف خطرت في بالي فكرة مجنونة مارستها وأنا ما زلت طالبًا على مسرح الجامعة، ولكوني أيضا شخصية مجنونة كما أطلق علي زملائي في العمل لقب " الفيلسوف المجنون ".

فلمَ لا أشبع رغبتي وحنيني لابنتي في إسعاد الأطفال وتسليتهم، لكن كيف أنفذ تلك الفكرة المجنونة؟

كيف أَصِلُ إلى كل طفل وأضفي على حياته السعادة؟

كيف سيستقبل من يعرفني تلك الفكرة؟

مهما كانت النتائج، فقد عقدتُ العزم على تنفيذ فكرتي، فقد بكيت وتعبت وأخفيت دموعي في عرقي، لكن رأيت أجمل ما في الدنيا وعرفت أن أقسى ما في الدنيا هي الوحدة، وأعظم ما في الحياة هو أن أسعد الآخرين.

وبدأت بالفعل أول خطوات تنفيذ هذه الفكرة...

****

لماذا لا أستغل قدرتي على الإضحاك والتسلية في أن أعمل مهرجًا في حفلات الأطفال؟!

كانت هذه هي فكرتي التي أيقنت أن تنفيذها قادر على إشباع حنيني لابنتي، أن أرى السعادة على وجه كل طفل كفيل بتحقيق السعادة لي.

فكرة مجنونة!

نعم فكرة مجنونة.

لكن من في هذا الزمان يمتلك العقل؟

لقد وهبني الله الفطرة والعلم والموهبة لكي أنفذ هذه الفكرة وسأنفذها مهما قابلت من صعاب.

كان هذا قراري النهائي بعد تفكير، لكن أريد أن أكون مختلفًا عن أي مهرج أو بلياتشو، وبالفعل بدأتُ بجمع كل المعلومات والمقومات التي تساعدني، فأنا أعلم أن معظم المهرجين غير متعلمين، يضحك الأطفال على تصرفاتهم الغبية.

بحثتُ على النت الكثير عن عملي الجديد، فقرأت عن طريقة اللبس التي تضحك الأطفال، والمكياج والتصرفات، طريقة إلقاء القفشات، طريقة المشي والكلام. بالإضافة لكتب متخصصة مثل:

كيف تصبح بلياتشو؟

كيف تصبح مهرجا؟

كيف تحصل على الاكسسوارات الخاصة بعمله؟

كيف يلبس المهرج؟

قرأتُ عن كل شيء، حتى حذاء البلياتشو الكونفيرس الكبير بطريقة مفرطة، وتعلمتُ كيف أحشوه بمناديل ورقية في البداية حتى أتعود عليه،

وأيضا تعلمتُ كيف ألون وجهي بطلاء الوجه الأبيض والمهرج أوجست (المهرج ذو الوجه السعيد)، ووجه المهرج الصعلوك أو المتشرد، و أخيرًا طلاء الوجه لأداء شخصية معينة أو مشهورة، تعلمتُ الرسم على وجوه الأطفال و أتقنتُ بعض الألعاب البسيطة مثل.

(تقاذف الكرات وروا ية القصص، التكلم من البطن بمساعدة دمية)

كذلك تعلمتُ و أتقنتُ بعض الألعاب السحرية البسيطة وإلقاء النكات المسلِّية، كل شيء درسته جيدًا، فأنا أؤمن بمقولة:

" من لا يخطط فقد خطط للفشل"!

في البداية قررتُ التطوع والذهاب لأماكن الأطفال من غير دعوة، حتى أنتشر ويعرفني الجميع، وأعرف رد الفعل تجاه ما أقدمه، فقررتُ تقديم فقراتي في الحدائق العامة، ثم مستشفيات الأطفال وطبعت كروت شخصية تحمل اسمي " حسن علاء الدين " بالإضافة لرقم هاتفي، كنتُ أظهر بملابسي الغريبة ذات الألوان الزاهية، ووجهي المطلي بالرسومات المضحكة والأنف الكبير، والحذاء الكبير.

لم يكن هدفي الربح، بل كنتُ أقبل بأقل القليل لأسد به رمقي ومتطلبات الحياة البسيطة حتى اشتهرتُ بين الأطفال، فكانوا يبحثون عني في الحدائق وأماكن التجمعات العامة، وأصبحتُ مطلب الجميع في أعياد ميلاد الصغاروالكبار، وحتى حفلات الزفاف كنتُ أعمل بها.

كنتُ أحاول جاهدًا إسعاد الجميع، رغم المرارة التي ما زالت بداخلي لفقدي أعز الناس و أقربهم إلى قلبي، لكن مجرد رؤية ابتسامة على وجه طفل كانت كفيلة بمداواة قلبي الجريح وعقلي الشريد.

زادني وزني الممتليء حب وشغف الأطفال، فكنتُ استغله في عمل بعض الحركات المضحكة، وأصبحتُ أيضا أقوم بتأليف الأغاني المضحكة أو أعيد

كتابة الأغاني المشهورة بكلمات على نفس وزنها تناسب المناسبة التي أقدم فقراتي بها.

أصبح عملي الجديد هو السلوى الوحيدة لي في حياتي، فكنتُ أقضي فيه معظم وقتي، لا أعود لشقتي إلا للنوم، هروبًا من التفكير في الماضي بأوجاعه وآلامه وذكرياته المرة.

رفضتُ رفضًا قاطعًا أن أبيع شقتي أو أن أغيرها، ففيها تكمن ذكرياتي مع زوجتي و ابنتي، فلم أغير أو أبدل مكان أي شيء يتعلق بهما كأنهما ما يزالان على قيد الحياة وأشعر بوجودهما في كل ركن داخل الشقة.

فهذه غرفة طفلتي بما تحويه من لعب وملابس، فهنا توكة صغيرة لشعرها الذي بدأ يخطو أولى خطوات النمو، وهنا عروستها وأرنوب، وهنا الحذاء الذي يصدر صوتًا، واللكلوك الصغير والدبدوب الكبير التي كانت تحضنه قبل نومها، حتى القصرية التي كانت تجلس عليها.

وهنا غرفة زوجتي وملابسها بالدولاب كما هي وشنطها، زعلب المكياج، والروب معلق خلف الباب، كل شيء كما هو وفي نفس مكانه.

****

كعادة القاهرة ليلًا، الشوارع تتلألأ من الجانبين، الأنوار كالسوائل الملتهبة، الأنوار عروق نابضة بالنور والحرارة في جسم القاهرة.

وكأن القمر نزل من السماء وتكسر قطعًا قطعًا فوقها، كل شيء منير وملون ومتحرك، الحواري الصغيرة أجمل من الشوارع الكبيرة وأكثر عفاريت وملائكة من الميادين، المطاعم الكبيرة نظيفة جدًّا والمطاعم الصغيرة فيها حياة والناس يضحكون بلا حساب ويأكلون بلا حساب، كل تلك الأشياء تنسج سنفونية رائعة كأنها لوحة زيتية أبدعها مايكل أنجلو. فبنت المعز" القاهرة" كوكب آخر يمتلئ بالناس على كل شكل ولون وغاية، ولكل منهم هدف يسعى لتحقيقه.

أسير بالتاكسي في الشوارع بحثًا عن الرزق هائمًا في أفكاري وأحلامي التي أهرب منها فتعادوني عند نومي، فانتبهتُ على صوت ينادي:

- تاكسي.. تاكسي!

توقفتُ ونظرتُ في المرآة، فلمحتُ شخصًا يحمل شيئًا في يده يعوقه عن الجري نحوي، وعندما وصل عندي شعرت به ينهج مع أن المسافة كانت قصيرة جدًا، تأملتُ منظره كان شخصًا ممتلئَ الجسم نوعا يحمل في يده شنطة متوسطة، التفتُ لأدقق النظر فيه، فوجدته يرتدي ملابس غريبة بألوان متداخلة زاهية كأنه أكمل بملابسه اللوحة التي رسمتها شوارع القاهرة أو كأنها حديقة زهور متنقلة.

أدخل الرجل العجيب رأسه من شباك التاكسي، قائلًا وهو يتنفس بصعوبة كأنه انتهى لتوه من مسابقة للعدو:

- الهرم يا أسطى؟

ولم ينتظر الإجابة وفتح الباب الخلفي ووضع شنطتة، ثم ركب.

ابتسمتُ من تصرفه، فمنظره يوحي بالشفقة، كان يبدو بملابسه كمهرج السيرك صاحب الأنف الكبيرة الملونة.

كنتُ أتابعه من خلال مرآة التاكسي، وفجأة فتح شنطته، أخرج منها مرآة صغيرة وعلبة صغيرة وبدأ يلون وجهه المستدير ويرسم على خدوده، ويعدل من مكياجه كالذي يستعد لفقرة في السيرك.

و أنا أتعجب مما يفعله، فلاحظ نظراتي فابتسم وقال:

- أنا بشتغل مهرّج في الحفلات و اتأخرت، فرصة بقى أجهز نفسي.

قلتُ و أنا أنظر لوجهه في المرآة:

- ربنا يوفقك، أكل العيش مرّ، ما حدّش عارف الرزق فين.

ظل يتحدث معي ويشرح لي عمله، وكيف اختار هذه المهنة الصعبة، ولماذا هي بالذات، كان يحكي كأنه يعرفني من زمن بعيد، وقع أثر شخصيته في نفسي سريعًا، فمن الناس من ترتاح له من مجرد لحظات تحادثه فيها، فيقع حبه في قلبك، ومنهم من لا ترتاح له مهما فعل، وكما يقال: الانطباع الأول يدوم، فشعرتُ بطيبة قلبه، ويبدو أنه أيضًا بادلني نفس الشعور، فالطيور على أشكالها تقع، لكني لمحتُ في ثنايا عينيه مسحة حزن يحاول أن يداريها بخفة ظله وكلامه المسلي.

عندما وصل إلى مكان عمله قال لي:

- أيوه... هنا، على جنب يا أسطى.

أوقفتُ التاكسي ونظرتُ له وقلتُ: اسمي " عادل "، فأومأ برأسه مبتسمًا، وقبل أن ينزل مد يده بالأجرة، فالتفت لأخذها منه، فنظر لي وقال بجدية وهو يمد يده بكرت شخصي:

- "حسن علاء الدين"، بلياتشو ومهرج وساحر وكل حاجة.

ضحكتُ من طريقة تقديم نفسه وقلت باسمًا:

- ربنا يوفقك.

بادرني قائلا:

- إيه رأيك يا أسطى "عادل" تشتغل معايا؟
- أشتغل معاك إزاي؟! وأشتغل إيه؟!

ضحك ووجهه مثل الكرة الملونة وقال:

- لا لا مش زي ما أنت فهمت، قصدي آخد رقمك، ولما يكون عندي شغل، أرن عليك توصلني، لأن ساعات بيكون عندي حفلات في أماكن بعيده عن بعضها، و أنت باين عليك ابن حلال.

ابتسمتُ وأومأت برأسي شاكرًا للمدح وقلتُ له:

- ربنا يحفظك، ده من أصلك، بسيطة يا أستاذ " حسن " أي وقت أنا تحت أمرك، إن شاء الله تكون معرفة خير.

تبادلنا أرقام الهواتف ونزل المهرج من التاكسي مودعًا، على أمل لقاء قريب يجمعنا ثانية عندما يحتاج توصيلة لمكان عمله، بابتسامة حاول أن يشاور لي بيده، فوقعت منه الشنطة على الأرض، فضحك، وضحكتُ أنا أيضًا على المنظر، وتحركتُ بالتاكسي حتى غاب عني، لكن ما يحيرني فيه مسحة الحزن التي تلمع في عينيه.

أخرجني من حيرتي، رنة هاتفي المحمول، التقطت الهاتف القابع على طابلون التاكسي، ونظرتُ فيه فإذا هو "خالد" فهمتُ أنه يستعجل لقاءنا اليومي على المقهى الشعبي، لكنه عاود الاتصال مرة أخرى، ففتحت الخط وقلت بعصبية:

- أيوة يا "خالد" حصل إيه يا ابني؟، أنا في الطريق أهو.

رد "خالد" بصوت أفزعني عندما قال:

- "هشام" يا " عادل ".

فقلت بانزعاج:

- ما له "هشام"، حصل له حاجة؟ طمني.

فرد "خالد" بغموض زادني توترًا وعصبية:

- تعالى القهوة و أنت تعرف كل حاجة.

أنهى "خالد" المكالمة دون أن أعرف شيئًا، لكنه ترك لي القلق يعصف بي.

****

طوال الطريق لم يبعد شبح القلق عني، مما قاله "خالد" في مكالمته الهاتفية القصيرة الغامضة، ومما يزيد من قلقي معرفتي بمدى استهتار "هشام" فهو دائمًا ما يخلق المشاكل له ولنا، بسبب تصرفاته الطائشة التي اكتسبها من يوم عرف طريق الخمر والسهر في النوادي الليلية. وصلت مكان تجمعنا المعتاد، قهوة شعبية في حي " الحسين "، كنا نفضل السهر فيها رغم بعدها بعض الشيء عن شقتنا، وكانت مثل كل المقاهي ذات الطابع الشعبي، واسعة تعادل مساحة محلين، يتوسطها عمودان، وفي الصدر يجلس صاحبها خلف مكتب صغير وعلى شماله النصبة يقف عليها الصبي، والكراسي من الخشب يظهر عليها أثر الزمن، ومعلق على الحائط شاشة كبيرة، فرشت بالخارج بعض الكراسي على رصيف الشارع، ركنتُ التاكسي في الجهة المقابلة، وترجلتُ و أنا أبحث بعيني عن أصدقائي، حتى لمحت "خالد" يجلس بجوار الباب المؤدي لمدخل القهوة، كنا نفضل الجلوس دومًا في الخارج على الرصيف حتى نرى المارة، لكني انزعجت عندما رأيته يجلس بمفرده فزاد قلقي على "هشام" فصرختُ في "خالد" قائلا:

- "هشام" فين يا "خالد" وحصل إيه، وإزاي تقفل الخط و أنا بكلمك؟!

قال "خالد" وهو يضحك بصوت مرتفع:

- اطمن... "هشام" زي القرد، راح بس الحمام وجاي.

تنفستُ الصعداء، وقلتُ بعصبية:

- أمال إيه معني كلامك ليه في التليفون؟! وقّعت قلبي.

لم يتمالك "خالد" نفسه من الضحك وبالكاد قال:

- "هشام" يا سيدي، خدني معاه الكباريه اللي بيسهر فيه، و اتخانق مع واحد هناك، وكنا هنروح القسم لما اتصلت عليك، لكن الحمد لله الموضوع عدّى على خير.

قلتُ بعصبية شديدة و أنا أضرب كفًا بكف:

- ليه ما قولتش كده لما كنت بتكلمني، بدل القلق ده.
- والله يا " عادل " كنت هقولك، بس "هشام" خد مني الموبايل وقفل الخط و أنا بكلمك، ما كنش عايزك تعرف.

أثناء كلامي مع "خالد" ظهر "هشام" خارجًا من ناحية حمام القهوة الصغير الذي يقبع أسفل العمارة التي توجد القهوة بأسفلها، ولما لمحني أنظر له بعتاب وغضب و انفعال، سحب كرسيًا، وقبل أن يجلس قال معاتبًا "خالد":

- برضو قلتُ له يا وش الفقر، مش اتفقنا ننسى اللي حصل.

فقلتُ و أنا أجذبه من ملابسه بغضب شديد:

- تصدق بالله، أنت وهو ما عندكو دم، يعني إيه ما كنش يعرفني؟

قال "هشام" وهو يضحك ويخلص ملابسه من يدي:

- صلِّ على النبي يا " دوله " بس، وروق يا صاحبي، الموضوع بسيط، واحد رخّم علينا وخد نصيبه من الضرب، وخلاص.
- والله أنا زهقت من أفعالك، ما تهدى بقى وتسيبك من الهباب اللي بتروح تشربه في الأماكن دي، وكمان سحبت "خالد" معاك، و أنت عارف أنه ملوش في الحاجات دي.
- فكك بقى يا عم " عادل " موضوع وراح لحاله وبعدين " خالد" مش صغير لسه.

نظرتُ له بسخرية من كلامه ولم أعقب، فقاما وجلسا على طربيزة بجواري يلعبان الطاولة، ورغم الضجيج والضوضاء الصادر من رواد القهوة، فلكل منهم حكاية، وقصة وصحبة يختلي بهم، ومع تداخل الأصوات والقصص، أخذتُ أحتسي فنجانًا من القهوة يمتزج دخانه المتصاعد ودخان سيجارة أشعلتها من اشتياقي وذكرياتي ليرسموا سويًا لوحة ضبابية، فرق فيها القدر بيني وبين حبيبتي وكلانا يظن أن الآخر تخلى عنه.

حكم القدر علينا بالفراق، لم أنسَ يوم الوداع، وآخر لقاء جمعنا تحت شجرة التوت الكبيرة، هذا المكان الذي شهد أجمل لحظات حبنا الصادق.

عندما كان النصيب يستعد لاحتلال مكانه وفرض كلمته لو بالقوة صوت كالنحيب ودموع كقطرة دماء تتساقط من قلب صريع مسجى عليه يرتدي ثوبه الأحمر انتظارًا لتنفيذ حكم الفراق.

أصبح الفراق أملًا رغم أننا نتمنى ألا نفترق.

عدتُ من سفينة أحلامي على صوت " هشام" يقول بسخرية كأنه لاحظ عدم انتباهي وغوصي في غياهب الأحلام:

- يا عم "عادل"!... أنت يا عم العاطفي، مش هنروّح ولا إيه؟!

توجهنا إلى التاكسي الو اقف في الجهة المقابلة للقهوة، فإذا بفتاة تسير مسرعة وهي تتطلع إلى ساعة يدها فالوقت انتقل إلى بداية اليوم الجديد، فتبعها "هشام" بنظر اته وسخريته المعتادة قائلا وهو يشير نحوها ويضحك.

- المُوزة قدامك، والدنيا فانية والأيام جيالك.

فقال "خالد" وهو ينهره:

- يا عم ارحم نفسك شوية، دي شكلها راجعة من شغلها، أكيد بتجري على عيلة، خلي عندك دم.

وهو يضحك بسخريته المعتادة:

- نقطنا بسكاتك أنت يا عم "نجيب محفوظ" خليك في كتبك ومذكراتك، آخرتك السرايا الصفرا إن شاء الله، وخلينا احنا في الجمال والحلاوة دي.

نظرتُ له بامتعاض، فمالَ عليّ يحتضنني وقال وهو يضحك:

- خلاص بقى يا " دولة "، روّق يا صاحبي ده كله هزار.

جذبتُ "خالد" من ذراعه منطلقين نحو التاكسي، فركب "خالد" بجواري، تاركين المقعد الخلفي لـ"هشام" الذي ألقى جسده المرهق عليه، من أثر ما يتناوله من خمور، رغم تحذيرنا المستمر له، خرجنا من " حي الحسين " متوجهين ناحية شقتنا بالسيدة زينب.

وفجأة...

سمعتُ " خالد" يصرخ ويقول:

- استنى يا " عادل "، أقف يا " عادل ".

أفزعتني صرخته وأيقظت "هشام" من غيبوبته، أوقفتُ التاكسي وسألتُ "خالد":

- مالك يا "خالد" حصل إيه؟!
- ما خدتش بالك من العربية اللي واقفة هناك! ارجع بس ورا.

رجعت بالتاكسي بعض الأمتار، فوجدنا سيارة فارهة، تقف على جانب الطريق وبجوارها من الناحية الأخرى شاب في شدة الإعياء والتعب يتقيأ بصورة مقلقة، ويتنفس بصعوبة وقد احمر وجهه وجحظت عيناه، كأنه سيختنق، فأسرعنا نحوه وحاولنا مساعدته على الوقوف، فأمسك "هشام" بذراعه حتى وقف على رجليه، وبدأ يتمالك أعصابه التي انهارت من كثرة تقيؤه.

واستعاد وعيه، وجاء " خالد" ببعض المياه، فغسل رأسه ووجهه عرضنا عليه أخذه لأقرب مستشفى لكنه رفض، وطلب منا توصلية لمنزله، ساعدناه حتى ركب في عربيته، وتولى "هشام" قيادتها.

كان شابًّا ثلاثينيًّا، طويلًا نوعا ما، أشقر، تظهر عليه أثر النعمة والثراء في ملابسه وشكله الذي لم يأخذ من الكادحين إلا جنسيته فقط، يرتدي ملابس مهندمة غالية عبارة عن تيشرت بنك وجينز وحذاء كحلي وفي أحد أصابعه خاتم ويتدلى من رقبته سلسلة.

قاد "هشام" سيارة هذا الشاب ونحن خلفه بالتاكسي، حتى وصلنا إلى فيلا فخمة، فلوح لنا "هشام" بأن ننتظر، ودخل بالسيارة من البوابة الكبيرة للفيلا، وبعد فترة رجع "هشام" ويظهر عليه السعادة، ركب معنا التاكسي وانطلقنا في طريقنا فبدأ "هشام" يتكلم عن هذا الشاب فقال:

- اسمه " عصام "، " عصام أبو الوفا " ساكن هو ومامته، وأبوه متوفى من فترة، كان سهران في كباريه في شارع الهرم، وشكله كده متقل في الشرب شوية، أنا خدت رقمه، واتفقنا نبقى أصحاب، وعزمته على سهرة معانا في القهوة، ففرح أوي، وبيشكرنا على اللي عملناه، وكان فاكر إننا رايحين عشان نسرقه أو ناخد العربية.

قلت وأنا أضحك على كلام "هشام":

- صاحب كاس زي حضرتك، يا محاسن الصدف، الطيور على أشكالها تقع، وطبعا أنت منشكح أوي.

وصلنا شقتنا بعد يوم طويل، تعرفت فيه على " حسن" وتعرف " هشام" على " عصام ".

****

داخل مصلحة الشهر العقاري العريقة، وسط الزحام وتداخل الأصوات، وداخل غرفة قديمة متكالهة، التي كانت يومًا إحدى غرف قصر أحد البشوات، يقبع مكتبي في ركن منها وبجوراه دولاب لحفظ الأوراق والمستندات، ويطل النور من شباك طويل، يشهد الحديد الذي يزينه بذكريات العصور المتعاقبة، كنتُ أتفحص في الأوراق الكثيرة المتراكمة أمامي على المكتب، بسبب تلهف الكثيرين على تقنين أوضاع أملاكهم الناتجة عن وضع اليد التي تبحث الدولة عودة تلك الأملاك إلى حظيرتها مرة أخرى، وأعطت مهلة للجميع لتقنين أوضاعهم إما بوجود ما يثبت ملكيتهم لها، أو شراء الأراضي بثمن تحدده الدولة.

فوجئت برجل طويل، نحيف الجسم، في العقد الرابع من العمر، يرتدي نظارة شمسية، يبتسم ابتسامة صفراء خبيثة، رحبتُ به، فجلس على كرسي مواجه لمكتبي، فاستغربتُ من تصرفه، وجلست مكاني وأنا أنظر لهذا الغريب الذي اقتحم مكتبي.

ثم قال وهو ينظر لي:

- أستاذ "إبراهيم"، أنا عندي لك عرض هيحقق كل أحلامك.

تعجبتُ من كلامه، حتى أنه لم يُعرفني بنفسه، بل أكمل ما جاء من أجله وكنت أسمعه وأنا في قمة ذهولي، وعندما انتهى من حديثه أمهلني أسبوعًا لكي أنهي ما طلبه مني، ثم خرج وأغلق الباب خلفه، وتركني أفكر فيما قال، وجلستُ خلف مكتبي في قمة التعب جراء المناقشة مع هذا الرجل المتسلط، لا أدري كيف أخرج من هذا المأزق.

عدتُ إلى بيتي ولا يشغل بالي إلا كلام هذا اللعين، والعرض الذي قدمه لي، مليون جنيه مقابل أن أبيع ضميري و أتنازل عن تاريخ ناصع البياض أتباهى به بين الكل، وتلك العلامة الدامغة في جبهتي من أثر السجود.

جلستُ على الكنبة شارد الذهن، لم أنتبه إلا عندما ارتفع صوت زوجتي بالنداء، لتعلن عن الانتهاء من إعداد الطعام، قمتُ بجسد أنهكه التفكير وأودى به إلى طريق مسدود، جلست بين أولادي، أنظر إليهم و أنظر لزوجتي، و أنا أتناول وجبتي في صمت، أحرك الفُتات بالملعقة، و أنا شارد الذهن، حتى لاحظ الجميع حالتي.

انتهينا من تناول الطعام، فقمت وجلست على الكنبة، و انتبهتُ لصوت ابنتي "سماح" وجلست بجواري وربّتت على كتفي بحنان يناسب شخصيتها الطيبة الحنونة، وقالت:

- أخبارك إيه يا بابا، حاسة أنك مهموم، وفيه حاجة قلقاك.

فقلتُ و أنا أتنهد تنهيدة عميقة كمن حُرِمَ من الهواء لمدة:

- تفتكري يا "سماح" يا بنتي لما الواحد يكون و اقع في مشكلة، ومفيش قدامه إلا حلين أصعب من بعض يختار إيه؟

قالتُ وهي تتعجب من سؤالي:

- طبعا يختار اللي ما يخسروش كتير.

قلتُ و أنا أنظر لها بعمق:

- شوفي يا بنتي أنا ربيتكم أحسن تربية، وعمري ما أكلتكم لقمة حرام، ودايما براعي ربنا فيكم، رغم أن وظيفتي يتمناها أي حد ما عندوش ضمير، لأنه ممكن يبقى مليونير، لكن أنا بخاف أوي من ربنا.

- إيه يا بابا سبب الكلام ده كله، إيه اللي حصل؟

جلستُ و أنا أضرب كفًّا بكف وقلتُ لها:

- علي آخر الزمن يا "سماح" أبوك معروض عليه رشوة، طول عمري معروف بين زمايلي بالنزاهة، والمشكلة إنها رشوة من أكبر فاسد في البلد، والكل عارف كده.
- من هو يا بابا؟
- "شكري أبو المحاسن".
- "شكري أبو المحاسن"! رجل الأعمال، صاحب المصانع والشركات اللي كان قريب أوي من نظام مبارك؟
- وده عايز منك إيه بقى؟
- عايزني أزوّر لهم ورق علشان يستولوا على أراضي الدولة، شوفتي يا بنتي الفساد والجبروت.
- إوعى توافق يا بابا، أمال عملنا ثورة على الناس دي ليه! خسارة الشباب اللي راحوا.

قلتُ بجدية والدم يغلي في عروقي كالماء على النار:

- أوافق إزاي بس يا بنتي.. إحنا يا دوب عايشين بالحلال وربنا ساترها معانا، يا بنتي، إحنا عايشين على قربنا من ربنا، طبعا هرفض واللي يحصل يحصل.

خرجت ابنتي "سماح" مشفقة على مما أعانيه، لكن أنا عقدتُ العزم وتوكلت على الله، سأرفض مهما حصل، حتى لو كلفني الأمر حياتي، لن أبيع تاريخي بمربح مال، أو مغنم فانٍ، لست أقل ممن ضحوا بأرواحهم في الثورة.

كيف أبيع بلدي و أنا العاشق لترابها، ولا أدعُ مناسبة إلا وأعلن فيها كرهي لكل فاسدٍ أو حاقدٍ على البلد، ورغم ضيق ذات اليد والأزمات التي تمر بها مصر، حتمًا سيأتي اليوم التي تعود مصر إلى مكانتها الطبيعية، فكم من

الغزاة حاولوا الانقضاض على مصر، لكنهم اندحروا أمام حفظ الله لمصر، حب المصريين لبلدهم ودفاعهم عنها وسر البقاء والخلود الذي يسري في دمائهم.

****

مع مرور الوقت قويت الصداقة بيني وبين "حسن" المهرّج، كذلك ازداد القرب بين "عصام" و"هشام" الذي دعاه لقضاء سهرة معنا في المقهى الشعبي حيث نجلس دائما، وقمتُ أنا بدوري بتوجيه الدعوة لـ " حسن " لما لمست فيه من طيبة القلب، وازداد إعجابي به بعدما عرفت ما حدث معه، وتأثرت جدا وقلتُ في نفسي كلنا نحارب القدر ولا يكون لنا في النهاية إلا ما قدره الله سبحانه وتعالى.

و إنه حقًا شخصية مميزة، فرغم تلك التجربة القاسية التي مر بها لكنه ما يزال قادرًا على أن يكون سببًا في إسعاد غيره، قد استطاع " حسن " قهر آلامه وأحزانه ورسم البسمة على شفاه كل من يتعامل معه، إنه فعلا شخصية جديرة بالاحترام، وكان لي شرف التعرف عليه لصدقه وإخلاصه، سردتُ له حكايتي وعن الأحلام التي تزورني، فأخبرني أن الأحلام ما هي إلا ما نفكر به كثيرًا، فتظل معلقة بعقولنا حتى وقت النوم، لذلك نصحني بنسيان الماضي حتى لا يسرق مني المستقبل، وعرض على البحث عن عمل آخر غير التاكسي، و اقترح العمل سائقًا في شركة أو سائقا خاصا لما لمسه من المضايقات التي أتعرضُ لها من الركاب والخناق المستمر على الأجرة، يا له من شخصية رائعة أضافت لها دراسته للفلسفة بُعدًا محببًا لدى الجميع.

في الليلة التي وجهنا فيها الدعوة لهما، جلستُ أنا و"هشام" و"خالد" على المقهى في انتظار الأصدقاء الجدد لنتعرف على بعض، رغم أني كنت أخبرتهم ببعض الأشياء عن "حسن" بالإضافة لما قاله "هشام" عن صديقه " عصام "، لكن هذه أول مرة سنتقابل فيها جميعا.

بعد مدة ظهر "عصام" بسيارته الفارهة، فاستقبله "هشام" وأجسله معنا نتحدث ونضحك، حتى وصل "حسن" بوجه مشرق لا تفارقه الابتسامه، رغم مرارة الألم وقسوة القدر.

بدأ صبي القهوة بجلب الطلبات لنا، فقال "هشام" وهو يشير لـ"خالد"

- أقدم لكم "الجبرتي" قصدي "نجيب نحفوظ".

رغم أننا ضحكنا على كلام "هشام" إلا أني أردتُ ترضية خاطر "خالد" عندما لاحظت أن الخجل أصاب وجهه، فقد كان صاحب شخصية خجولة، حبه لقراءة وكتابة القصص والخواطر جعل منه مستمعًا جيدًا لكنه لا يجيد الحديث.. فكان بالنسبة لنا كالمؤرخ الذي يدون بأسلوبه الشيق ما يسمعه وما يراه من تصرفات كل من يتعامل معه.

فقلتُ لإسكات "هشام":

- خليك أنت في البنات الساقطة اللي بتجري وراهم، ومنقوع البراطيش اللي بتشربه.

قد فهم " حسن " ما أقصده، وكنت أخبرته من قبل ببعض صفات "خالد" و"هشام" فقال بأسلوبه الجميل لتشجيع "خالد" وهو ينظر إليه:

- استمر في بذر الأفكار الرائعة في حديقة عقلك الباطن وسوف تحصد محصولًا رائعًا، وقد يكون عقلك الباطن شبيهًا بالتربة التي ستنمو فيها البذور، سليمة أو فاسدة.

هل يحصد الرجال العنب من نباتات شائكة؟

صفقتُ لـ " حسن " على كلامه الرائع، وعندما لاحظ الاستحسان على وجوه الجميع عقب قائلًا:

وبناءً عليه أصدقائي الأعزاء:

- فلكل فكرة سبب، ولكل حالة أثر... ومن أجل هذا السبب، فإنه من الضروري أن تتولى أفكارك، لكي يثمر ذلك أوضاعًا مرغوبة فيها فقط.

وقف "خالد" مهللًا عندما شعر بأن الكلام طيَّبَ خاطره من سخرية "هشام" فقال:

- الله عليك يا عم "الفيلسوف"، أحسنت يا ابني والله.

وأضاف تعقيبًا على كلام "حسن" مستشهدًا ببيتٍ من الشعر:

- أرنو إليك بكل سمعي منصتًا *** وإلي حديثك كم أحن وأطرب

ضحك الجميع على المباراة الثقافية بين "حسن" و"خالد"، فنظرتُ لـ "هشام" موجهًا كلامي له بسخرية:

- ما تعلق يا عم "مدحت شلبي"، ولا ملكش في الكلام ده؟

تنحنح "هشام" كأنه سيشترك في هذا النزال القوي فقال وهو يبتسم:

- دارت كؤوسُ الحب للعشاق *** فالقلبُ نارٌوالعيونُ سواقي

تعالت الضحكات وصاحبها التصفيق على السجال الرائع بين الثلاثي بينما " عصام " مبهور بهذا الجو الذي يراه لأول مرة، وهو ابن الذوات حيث العادات المختلفة، فقال والسعادة تحلق به في عنان السماء وألمحها في بريق عينيه و ابتسامته:

- والله إنتو زي العسل، أنا فرحان أوي إني اتعرفت على شباب دمهم خفيف زيكم، عمري ما قعدت قعدة حلوة زي دي.

قام "هشام" و"خالد" يمارسان هوايتهما المفضلة في لعب الطاولة و انضم لهما " عصام "، بينما كنت أتابعهم أنا و" حسن " ونتحدث في أمور أخرى تخصنا، فالحوار معه ممتع لما يملكه من فصاحة الكلمة وحسن الرأي.

كان المقهى الشعبي بالنسبة لنا مثل الكهف الذي نلوذ به ونلجأ إليه كأننا خفافيش لا تتجمع إلا في الظلام، كنا سويًّا لكن قلوبنا شتى، لكل منا سره الدفين الذي يحتفظ به في قلبه، يفكر فيه ويحاول الهروب منه فلا يستطيع، توليفة مختلفة من البشر، أعاني أنا من حب ضائع و"حسن" يعاني من ماضٍ أليم، وفقد أعز الناس لديه، و"هشام" بطيشه ونزو اته، و"خالد" ورومانسيته ومدينه أفلاطون الفاضلة، وأخيرا " عصام " المفتون بالعادات الشعبية وهروبه طبقة الذوات.

****

وصلتُ القصر كما طلبت مني " سارة " زوجتي ابنة " أبو المحاسن " و أنا أعرف مسبقًا أن ما استدعيتُ له مجرد مشكلة بسيطة كعادة زوجتي، دائما ما تختلق المشاكل مع زوجة أبيها لمجرد الغيرة منها، فقد أخذت مكان أمها الراحلة، فباتت لا تطيق لها قولا أو فعلا، لكني فضلت الذهاب مسرعًا حتى لا يتعكر صفوة الجدول الواصل بين الأسرة ونحن مقبلون على حفلة عيد الميلاد التي أرجو من خلفها صفقة لا يدري بها " أبو المحاسن "، ولما دخلت من البوابة وجدت ابنتي الصغيرة " عزة " تلهو في الحديقة ومن بعيد تجلس " سارة " تحت المظلة بالقرب من حمام السباحة، تمسك بهاتفها تمارس هوايتها في تصفح مواقع التواصل الاجتماعي المهووسة بها.

زوجتي "سارة" في الرابعة والعشرين من العمر، جميلة، بيضاء البشرة، متوسطة الطول، ورثت عن أبيها لون العينين، شعرها قصير يميل إلى اللون البني، حرصها على تمارين الجيم جعل جسمها رشيقًا، لكنها لا تثق في كونها جميلة، لذلك دومًا تشعر بالغيرة من زوجة أبيها التي تفوقها جمالا ورشاقة، وهذا سبب آخر للمشاكل الدائمة بينهما، بالإضافة لتسلط " سارة " الدائم وتدخلها فيما لا يخصها، حتى أنها دوما تترك بيتها وتتواجد في القصر لمجرد مضايقة زوجة أبيها.

قلتُ و أنا أقترب منها وقد رسمتُ على وجهي ابتسامة مصطنعة:

- خيرا حبيبتي، حصل إية؟ صوتك في التليفون قلقني.

انتبهتْ لي فرفعت نظرها المثبت على شاشة الهاتف وقالت:

- الهانم مرات بابا يا سيدي.

ضحكتُ في نفسي لصدق توقعي وحدسي، سحبت كرسيًا وجلست بجوارها، وقلتُ مبديا كرهي لزوجة والدها:

- ما لها دي كمان، إحنا مش هنرتاح من مشاكلها، من يوم ما شرفت مشفناش منها إلا المشاكل.

ألقت بالهاتف على المنضدة التي أمامها بعصبية وقالت:

- فاكر لما قلتُ لبابا أنا عايزة عربية جديدة، ورد عليا رد مش كويس وقال: مش وقته وسابني وخرج.
- أيوه طبعا فاكر، حتى يومها قلت لك: اعذريه؛ لأن فيه مشاكل في الشغل.

قالت وهي تضحك ببرود:

- مشاكل إيه يا " محجوب "، الهانم هي السبب، هي اللي لعبت في دماغه علشان يرفض.

ضحكتُ بصوت مرتفع، وأخرجت من جيبي علبة السجائر وأشعلت سيجارة ثم قلتُ لها:

- يا حبيبتي أنت دايما ظلماها كده، فعلا فيه مشكلة، وعقل الباشا مشغول بسببها، حتى مش طايق لحد فينا كلمة.

قالت وهي تقف كالأسد الذي يتأهب للانقضاض على فريسته:

- أنت عايز تفرسني، بقول لك هي السبب، البت " مديحة " سمعتها بتكلم بابا في موضوع العربية.

وقفتُ و اقتربتُ منها وأمسكتُ بيدها وقبلتها و أنا أقول:

- يا روح قلبي، أرجوكي هدي اللعب شوية لبعد الحفلة، و أنا يا ستي هشتري لك أجمل عربية و...

أفلتت يدها من يدي واستدارت لي بظهرها وهي تقول بعصبية:

- كل ما أكلمك تقول الحفلة، وعربية إيه اللي هتجيبها!

اتجهتْ للمنضدة حيث تركت هاتفها، أخذته وقالت وهي تنظر إلي:

- أنا مش عايزة عربية يا " محجوب "، أنا طلبتها من بابا علشان أشوف رد فعل الست هانم الفلاحة اللي عاملة نفسها سيدة القصر.

تركتني متجهة لداخل القصر، ثم استدارت عائدة وقالت لي كأنها تشك في أمر ما:

- إيه حكاية الحفلة دي يا " محجوب "، ما لك مهتم بها أوي، ومش عايز مشاكل قبلها، في إيه يا " محجوب "؟!

حاولتُ التهرب منها، هرشت في رأسي و اقتربتُ منها، وتصنعت الجدية حتى أخفي كذبي وقلت:

- هيكون في إيه بس يا حبيبتي، عادي يعني، بس هيكون فيها ناس تقيلة، أكبر رجال أعمال في البلد و مش عايزين مشاكل.

نظرت لي نظرة تعني أنها غير مصدقة، ثم مطت شفتيها وأدلفت للداخل، وتركتني و أنا أتنفس الصعداء أنها لم تعرف شيئًا مما أنويه في الحفل.

****

كالقمر بين النجوم أعيش وحيدة بين ذكريات الماضي وآلام الحاضر، بين حب ضائع وحياة بائسة، جارية بيعت عنوة في سوق النخاسة لمن دفع الثمن، عندي كل ما لا كنت أحلم به يوما، عندي ما لم يخطر ببالي فقط أطلب فأنال أكثر مما تمنيتُ، سوى الحب لم أذق له طعمًا منذ فارقت حبيبي.

طائر أخضر كسير الجناح، حبيس قفص من ذهب، طائر أمن كل احتياجاته، إلا أنه يتوق للحرية، يشتاق للحب، يحن للبسمة الصافية، يتمنى وليفَه الآخر حتى وإن حرم من الشبع، حتى لو زهد الحياة، أحتاج لنديم نبني عشًا صغيرًا نشعر فيه بطعم الحياة صار الملل والوحدة والفراغ أصدقائي، وسئمت من نفس الوجوه المتزينة بالزيف والنفاق.

محبوسة داخل جدران القصر الواسع لا أستطيع الفرار منه فالسجان هو "شكري أبو المحاسن" وهو ما هو من بطش وسطوة ونفوذ، لم يكن أمامي إلا الإذعان لأوامره، فكنتُ مجرد دمية يحركها كيفما يشاء، مللت الحياة... ولولا نقطة الماضي المضيئة لفكرتُ في ترك الحياة بإرادتي.

لا أستطيع زيارة أهلي إلا بالإلحاح المتكرر على "أبو المحاسن" فشغلتُ نفسي باقتناء أفخم الملابس والمكياجات وإن كنتُ لا أستخدمها إلا داخل القصر فنادرًا ما أخرج من القفص.

فكرت في أن أستأذن من زوجي في زيارة أهلي، ورغم علمي المسبق برده، لكني اتصلت به حتى أعرض عليه الأمر، فرد كعادته بجفاء:

- أيوه يا مدام خير...
- عايزة أشوف أهلي، مروحتش لهم من زمان.
- أنا مش فاضي للكلام ده لما أرجع يبقى نتكلم.

- كل ما أطلب منك حاجة تقول لي مش فاضي.
- سيبك من الكلام ده دلوقتي، وجهزي نفسك للحفلة.
- طب والموضوع اللي بكلمك فيه.
- حاضر، لما نخلص من الحفلة، نشوف الموضوع ده.

أنهى المكالمة من غير كلمة سلام، ولم أحظَ منه برد شافٍ، كنت قليلا ما أذهب لزيارة عائلتي، لأنه كان حريصًا أن لا يعرف أحد من قريتنا أني زوجته، طلب مني مرة نسيان أهلي على أن يقوم هو بإرسال مبلغ من المال كل مدة لهم، لكني رفضت الفكرة ووعدته بأني لن أتحدث مع أحد هناك عن شخصيته أو حتى ذكر اسمه، فوافق لكنه اشترط أن تكون الزيارة ليلا، ولا أجلس معهم أكثر من ساعة.

هو دائما ما يغلف كل تفاصيل حياته بالغموض والسرية، فلا يسمح حتى لقنواته الخاصة التحدث إلا عن مصانعه دون الخوض في أسرار حفلاته أو اجتماعاته بالآخرين من رجال الأعمال ومحاولاتهم المستمرة للتسلق على أكتاف أي نظام سياسي يقود البلاد.

****

أسوار المجتمع العالية تحيط بسجن التقاليد البالية، هذا المجتمع القاسي الذي لا يقيم للحب وزنًا، ولا يفهم للوفاء معنى.

كنتُ سجينًا هناك... بعيدًا في الصحراء الجرداء المليئة بالأشواك، والأشجار العقيمة، مقيدًا بالأغلال والسلاسل في إحدي الشجيرات، لا أرى إلا ظلمة اليأس، وموت الأمل، وضيعة الحياة.

بعدما نالت مني الصحراء وحرارتها وأذاقتني أشد العذاب...

جاء صوتها العذب، صوتًا كالسحر كأعذب الألحان وأرق الأصوات،

كصوت البلابل، في أرض لا تنبت إلا الشوك والحنضل...

أيهذا المحب المعذب...

إني هنا، التفتُ لمصدر الصوت الذي أثار النشوة داخلي وتسرب إلى أعمق أعماق نفسي، أفقتُ من ذهولي، وتلفتُ مندهشًا، كيف لصوت رقيق كهذا أن يتواجد في قلب القسوة، أيثمر النعيم في قلب الجحيم؟

على بعد مسافة رأيتها تقف كآلهة الإغريق، وجهها يشع نورًا وعيناها تتلألأ، جدال شعرها تنساب على كتفها وخصرها.

في ظل دهشتي وذهولي قالت وهي ترمقني بنظره فاتنة:

- اقترب... لترى أكثر.

في مثل خفقة قلب أو غمضة عين، مات اليأس، وولد الأمل، انتهت حياة... لتبدأ حياة أخرى.

مثل الطوفان الهادر اندفعتُ إلى الأغلال وحطمتها وإلى السلاسل ففتحتها، ثم انطلقتُ أعدو بسرعة، رغم شعوري أني ما زلتُ في مكاني، وعيناي مشدودتان إلى عيون تلك الفاتنة، فقطعت من الطريق ما استطعتُ

أن أقطع، و أنا في غاية التعب وقبل أن تخور قواي وتخونني قدماي، والفاتنة ما زالت تقف في مكانها لا تتحرك.

بدأتُ أترا قص يمينًا ويسارًا من شدة التعب، فحمل النسيم صوتها العذب الجميل، وكان هذه المرة أكثروضُوحًا ورقة:

- ما زلت بعيدًا أيها الشاب، اقترب أكثر مني.

أعادت كلماتها الرقراقة النشاط إلي، فانطلقتُ أعدو نحوها من جديد، في طريق ليس به إلا الرمال والأشواك.. كنتُ أسمع صوت ضحكات ساخرة لم أستطع تحديد مصدرها ولا ممن تصدر.

صرتُ على بعد خطوات منها، رفعتُ رأسي لأتفحصها فوجدتها أكثر جمالًا وأكثر فتنة، يترقرق في وجهها العطر، بيضاء، أسيلة الخد، دقيقة الأنف، ممشوقة الجسم، نافرة النهد، ينمو الكريز على شفتيها، فتقطر شهدًا وتنطق شهوة، يفرز جسدها عبقًا حانيًا وتتحدث عيونها بغير لسان.

ما أروعها وما أجملها!

اقتلعتُ قدماي من الرمال، ونظرت ثانيةً، وكنتُ أنا والشمس فكشفت لي كل شيء بوضوح، فرأيتُ بجوارها طفلا، ما أبهى منظره!، وما أحسن صورته! قريب الشبه منها، بل هو من نفس معدنها، معدن الفتنة والجمال، يحمل بين يديه آنية صغيرة وقوسًا، ويحمل على ظهره كنانة بها بعض السهام، فبدا كأنه كيوبيد إله الحب.

توقفتُ مكاني، وقدماي تغوص في الرمال، اضطربتُ لأن الضحكات الساخرة تزداد، استدرتُ ونظرتُ خلفي فلم أرَ سوى أنهر العرق التي نزفها جسدي على الرمال، وأسراب الدماء التي تخضبت بها الرمال وتركتها قدماي من أثر سيري فوق الأشواك.

وعند النهاية رأيتُ الأغلال والسلاسل التي كنتُ مقيدًا بها ارتسمت على شفتاي ابتسامة مريرة، ورُسم على وجهي الرضا... نظرتُ مرة أخرى للفتاة فرأيتُ ثغرها العنقودي يبتسم ابتسامة جميلة، ابتسامة تحمل معني الحب والشوق واللهفة، وسمعتُ صوتها العذب وهو يهمس لي همسا رقيقا حانيا، وقد بسطت يدها لاستقبالي:

- تعالى... تعالى أيها الشاب المحبّ، أيها الحبيب السجين.

تجدد الأمل وتبددت الظلمة.. .نسيتُ آلامي وعرقي ودمائي ومددتُ إليها يدي، فأخذتْ الآنية من كيوبيد، وأعطتها لي وقالت:

- هيا يا حبيبي أروي ظمأك، هيا اشرب من كأس الحب وارتوِ.

أمسكتُ بالآنية كالذي وجد ضالته وفتحتها وقبل أن أضعها على فمي، انبعث منها رائحة جميلة، كأنما قد ترقرقت في ماء الجمال، فهممتُ لأنهل منها وأروي ظمئي...

وإذا فجأة...

سمعت صوت صرخة تشق عنان السماء، رفعتُ رأسي لأستطلع الأمر، فنظرتُ إلى حيث تقف الفتاة، وفي طرفة وجدتها قد طُرِحَتْ أرضًا، وجسدها مُخضب بالدماء، وتئن من شدة الألم، ألقيتُ بالآنية من يدي، وأسرعت لإنقاذها فاقتربتُ منها وأخذت أدقق النظر، شهقتُ من شدة المفاجأة فقد كانت الفتاة هي حبيبتي " هبة "، أسرعت لإنقاذها، لكن صوت الضحات تزايد، فنظرت لأعلى، وفجأة...

رأيتُ خلفها مجموعة من الرجال يضحكون بسخرية، ويتقدمهم رجل سمين، يرتدي نظارة وفي يده القوس الذي كان مع كويبد، الذي بحثتُ عنه فوجدته جثة هامدة بجوار حبيبتي.

استيقظتُ من نومي مفزوعًا من هذا الحلم المخيف ونظرت حيث الفراغ من حولي فوقع نظري على صورتها تبتسم لي نفس ابتسامتها التي تعودتُها منها... نظرتُ لها في اشتياق، أعلم أنها الآن ليست لي، أشعر بها في آياد أخرى غيريدي، وبدأتُ أحدث صورتها المبتسمة:

- بحبك، عارفه يعني إيه بحبك؟، من بعدك مفيش ضحكة صافية، ولا إحساس صادق، كل حاجة بعدك مُرة، بحس بيكي في كل حاجة بعملها، بحس بيكي في كل وجه بقابله، بحبك ومش عارف أبعد خيالك عن تفكيري من غيرك بحس إني ضايع في غياهب الموت.

****

بعد رفضي القيام بتزوير عقد لصالح شركة "أبو المحاسن" اعتقدتُ أن الأمر انتهى، وأنهم يئسوا وبحثوا عن حل آخر للحصول منه على ما يريدون، خصوصًا بعدما مروقت لم يأتِ أحد منهم.

ذهبتُ إلى مكتبي كالعادة كل يوم، فدخل عامل البوفية وقال:

- صباح الخيريا أستاذ "إبراهيم" تؤمربحاجة؟

قلتُ له و أنا أتصفح بعض الأوراق التي أمامي:

- صباح الخيريا "عفيفي".. اعمل لي فنجان قهوة.

- حاضر.

خرج العامل لإحضار ما طلبتُ منه، ثم عاد وهو يحمل فنجان قهوة صغيرعلى صنية، وأحضر معه أيضا استدعاء لي من مدير المكتب.

- القهوة يا أستاذ "إبراهيم"... السيد المديربيسأل عليك.

- حاضرهشرب قهوتي وأروح له.

انتهيت من قهوتي وحملت بعض الأوراق التي تحتاج لتوقيع المدير واسأذنت في الدخول، ثم دخلت مكتبه، الذي لا يختلف عن كل المكاتب إلا مساحته الواسعة بعض الشيء، كذلك بعض الأثاث الجديد لكنه بمثل قدم كل المكاتب الأثرية التي نؤدي فيها عملنا، كان المدير رجلا طيبًا، ممتلئ الجسم، اشتعل رأسه شيبًا، لم يتبقَ له على المعاش إلا بضعة أشهر، فكان يعامل الجميع بوُدٍ حتى تكون ذكرى طيبة بعد انتهاء خدمته.

ابتسم عندما رآني، فبادرته قائلا:

- صباح الخير.. خيريا فندم حضرتك سألت علي؟

- صباح الخير يا "إبراهيم".. اتفضل، وأشار للكرسي المواجه لمكتبه، جلستُ صامتًا حتى انتهى من بعض الأوراق التي أمامه، ثم وجه كلامه لي قائلًا:
- مش عارف أقول لك إيه يا "إبراهيم"!
- خير يا فندم حصل إيه؟
- فيه قرار صدر، قلتُ أبلغك به بنفسي.
- قرار إيه؟
- للأسف في شكوى متقدمة ضدك، و أنت متحول للتحقيق.

وقفتُ منزعجًا مما قاله وعقبتُ:

- شكوى وتحقيق كمان، ليه كل ده، إيه السبب؟
- والله ما أعرف، بُلغت بالقرار بالتليفون من شوية، هيجي محقق من المصلحة العامة علشان يسمع أقوالك.

كنت أنظر له بذهول، فأكمل قائلا:

- وبعدين يا سيدي أنت قلقان ليه، أكيد شكوى كيدية.

يا خبر النهار ده بفلوس...

- أنا معملتش حاجة تخليني أقلق، أنا بس بستغرب.
- خلاص تمام، قوم كمل شغلك وبكره الحقيقة تظهر.

استأذنتُ من المدير وخرجتُ من مكتبه قبل أن يلاحظ قلقي، فقد خمنت أن يكون التحقيق بسبب رفضي الانصياع لطلب " أبو المحاسن ".

جلستُ على مكتبي، أمامي بعض الأوراق أتطلع فيها لكن ذهني مشغول بما قاله المدير، ما الذي فعلته يستدعي التحقيق معي، كل هذا بسبب موضوع أراضي "شكري أبو المحاسن" وقلتُ في نفسي:

- أكيد ده السبب.. مفيش سبب تاني للتحقيق غيره، هم مقدروش يأخدوا مني حل ولا ربط، فقالوا لازم نسبب له مشكلة في شغله حتى لو بالكذب، قرروا معاقبتي بشكل قانوني علشان محدش يلاحظ.

كانت الأفكار تعصف بي، أهذا جزاء من لا يخون ضميره المهني؟، أيكون هذا مصير من يحاول الحفاظ على سمعته؟، أيكون هذا رد الجميل لحفاظي على أرض بلدي من شوية مغتصبين لها؟

انتهى وقت العمل، فخرجتُ قاصدًا بيتي، خرجتُ هائمًا على وجهي لا أدري بحالي كأني مغيب أو سقطت من قمة جبل إلى مكان سحيق، وصلتُ البيت وقد عزمت على عدم إبلاغ أحد من عائلتي بما جرى، حتى لا أزيد من قلقهم، دخلت شقتي ثم أغلقت الباب.

****

قصر من قصور الخيال التي لا يُسمع بها إلا في حكايات ألف ليلة وليلة، كأنه زرع فنبت في قلب النيل، فضيق تنفسه وشوه منظره، لكن هل هناك من يستطيع الوقوف في وجه "شكري أبو المحاسن" عندما يريد شيئًا، لقد ردم النيل وقام ببناء هذا القصر الفخم، ولم يستطع أحد أن يرفض، فقد كان في حماية النظام السابق وأحد أركانه الهامة.

وقع الاختيار على هذا القصر الواسع بمكانه المميز وحديقته الشاسعة ومنظره الخلاب، ليكون مكانًا لإقامة حفل عيد ميلاد حفيدة "أبو المحاسن" و أقرب الناس لقلبه فحبها من حب زوجته الراحلة.

ضم الحفل كبار رجال الدولة وعلية الملأ الذين حضروا مجاملة لهذا الرجل القوي صاحب النفوذ طمعا في الحشر في زمرته وحاشيته.

الأنوار على جدران القصر مضاءة بكل شكل ولون، والألعاب الناريه تنطلق، وفي وسط الحديقة الواسعة أقيم مسرح كبير فكان كالجوهرة المشعة داخل القصر... كل هذا ابتهاجًا بعيد ميلاد الحفيدة الذي يسير والدها "محجوب" على نهج حماه فهما شجرة لبلاب متسلقة تمتص دماء الناس لتعيش، وتسعى بكل جهدها للحصول على المصلحة والمنفعة دون النظر للوسيلة أو الطريقة التي يصلوا بها إلى غايتهم.

كان الحفل مهرجانًا متنوعًا في كل شيء.. حضور أرقى طبقة في المجتمع بالملابس المتأنقة وملابس السيدات المتنوعة ما بين ساتر وفاضح وما بين ملون وسادة.. بين اختلاف ألوانهم من الشقراء والسمراء فالكثيرون من رجال الأعمال يفضلون الزواج من فتيات صغيرات ليكن واجهة مميزة في حفلاتهم سويا... بالإضافة للمشروبات المتنوعة و أيضا المأكولات الكثيرة..

ظهرت زوجة " أبو المحاسن " متألقة كالعادة رغم كونها من أبناء الطبقات الفقيرة حتى تزوجت من صاحب الجاه والسلطة، فلما أقبلت كانت كأنها حورية، سبحان من خلقها بهية وأحدق بها النساء فصرن كالنجوم وهي بينهن كالقمر إذا انجلى عنه الغيم.

ومن بعيد تقف " سارة " ابنة " أبو المحاسن " تكظم غيظها وحقدها على تلك الفتاة الصغيرة التي اعتلت مكانة أمها الراحلة، فباتت تلعنها وتنعتها بأبشع الألفاظ في غيابها، ودوما ما تحرجها بكلمات أمام ضيوفها وتصفها بالبنت الفلاحة الآتية من قاع المجتمع.

بدأ الحفل بإطلاق الألعاب النارية والبلونات الكبيرة الملونة وجميع أنواع الألعاب، ارتفع صوت الدي جي بالأغاني الخاصة بتلك المناسبة.

جلس "أبو المحاسن" على طاولة كبيرة بجواره زوجته الجميلة التي كانت ترتدي فستان سواريه مميزا خطف أنظار الموجودين، بينما كانت " سارة " وزوجها "محجوب"، في استقبال الضيوف، ولم تنسَ غيرتها من زوجة أبيها فكانت تلاحقها بالنظرات، وتبث لزوجها ببعض الكلمات وهي تشير إليها فيطلب منها الهدوء حتى يمر الحفل على خير.

شارك طاولة "أبو المحاسن" بعض رجال الأعمال المقربين منه فهذا يمتلك قنوات فضائية، وهذا مصانع للحديد وآخر مصانع للنسيج، ور ابع للعقارات، مجموعة المائدة المستديرة كما كان يطلق عليها إبان النظام السابق، فقد كانوا يخططون لكل شيء للتحكم في مصير البلد، فيفصِّلون القوانين التي تخدم مصالحهم حتى لم يسلم مجلس الشعب من التدخل في اختيار أعضائه... كانوا هم الخطر الحقيقي الذي قامت عليه ثورة يناير لكنها فشلت في الاستئصال الكامل لهذا السرطان فتفشي في كل جسد الدولة.

يصل " عبد العزيز بيه " و ابنته " نهى " فيرحب بهما " محجوب " ترحيبًا خاصًّا، " عبد العزيز السيوفي " أحد رجال الأعمال المخضرمين، الذي دوما ما يصبغ شعره ليخفي ما لحق به من شيب، رغم اقترابه من الستين، له بعض الأعمال المشبوهة بسبب قروض وتعاملات مع البنوك، أما ابنته " نهى " فهي فتاة صغيرة لا تعلم من دنياها إلا الخروج والنوادي، ساذجة لحد التفاهة، لكنها طيبة القلب، جميلة نوعا ما، رقيقة القسمات، حادة الملامح كأبيها، نحيلة الجسم، صوتها رفيع وحاد.

أدى الترحيب الخاص الذي منحه " محجوب " لهما غيرة " سارة " فشكها المتواصل في زوجها يصور لها أنه يخونها مع غيرها من النساء، فثقتها المفقودة لجمالها وكونها ابنة " أبو المحاسن " جعلها تتصف بحدة الطباع والعدو انية والشراسة والغيرة من صنف النساء عامة، وزوجة أبيها بشكل خاص.

انفرد " محجوب " بضيفه " عبد العزيز بيه " يتبادلان الحديث الهامس بعيدًا عن الأعين، وترك " نهى " بصحبة زوجته، مما جعل الشك يزداد عندها، حتى وصلت " تحية هانم " بصحبة وحيدها " عصام " التي أصرت على اصطحابه، فهي ترى أن الحفل فرصة سانحة ليتعرف ابنها على " نهى " التي تأمل أن تزوجها له، للهروب من الظروف الصعبة التي تعاني منها منذ وفاة زوجها.

أما " عصام " فقد و افق على حضور الحفل إرضاءً لأمه، سلّم على " نهى " و" سارة " التي جذبتها أمه من يدها بعيدًا لتفسح المجال له ليتحدث مع " نهى" فابتسم لها ابتسامة مصطنعة وبدأ في التحدث والتعارف.

كانت الفرصة سانحة للتعارف وعقد الصفقات قبل أن ينطلق الحفل بفقراته الصاخبة، هذا هو "أبو المحاسن " يتحدث مع بعض خاصته، و"

محجوب " ما زال مختفيًا في ركن بعيد يتحدث بجدية مع ضيفه " عبد العزيز السيوفي " و"سارة" تلاحق زوجة أبيها بالنظرات الناقمة، و"تحية هانم " جلست مع بعض السيدات وعيناها تتابع ابنها يتحدث مع " نهى" وقلبها يدعو ويأمل أن يعجب بها وتخرج من الحفل بصفقة العمر.

وفجأة ارتفع صوت الدي جي ليعلن عن بداية الفقرات، فالتفت الجميع نحو الصوت.

****

تواصلت فقرات الحفل، وسط سعادة غامرة من الحضور، إلى أن حان موعد فقرتي، فصعدتُ إلى المسرح بملابسي الغربية ذات الألوان الزاهية الكثيرة وحذائي الملون والأنف المضحك والرسومات على الوجه. فضحك الأطفال بمجرد أن لمحوني فوق المسرح، حتى قبل أن أتكلم أو أقوم بفعل شيء.

فبدأتُ فقرتي ببعض الأشياء التي أتقنها، مثل الألعاب السحرية البسيطة التي تعجب الأطفال، وقمتُ بعمل مسابقات مضحكة بينهم وبعض القفشات المسلية.

ثم قلتُ و أنا أمسك بالمايك:

- سيداتي، آنساتي، سادتي.

أقدم لكم أصغر مهرج في مصروالعالم.

ظل الجميع يلتفت يمينًا ويسارًا وفي كل الاتجاهات بحثًا عن المهرج الصغير دون جدوى

وفجأة...

أخرجتُ من شنطتي دمية على هيئة طفل صغير، وأسندت رجلي على الكرسي وحملتُ الدمية فوقها. ثم قلتُ بصوت مرتفع:

- ها هو " شيكوبيكو " أصغر مهرج في العالم، يحيكم ويتمنى لكم سهرة سعيدة.

انفجر الجميع في الضحك، على منظر الدمية، وملابسه الغريبة وطريقة كلامه المضحكة، وبدأتُ أتحدث و"شيكوبيكو " يرد بعبارات مضحكة، من خلال مهارة التحدث من البطن التي أتقنها فظن الجميع أن هذه الدمية هي التي تتحدث فعلا...

ثم أمسكتُ بالمايك، وقلتُ مخاطبًا الأطفال:

- اللي عاوز صورة سيلفي مع " شيكوبيكو"، يتفضل على المسرح.

كانت الحفيدة نجمة الحفل هي أول من التقط السيلفي مع" شيكوبيكو " تلاحقها الكاميرات الخاصة بالحفل، وتزاحم الأطفال كل منهم يريد التقاط الصور.

ثم بدأتُ في إلقاء النكات والقفشات، والأطفال بدورها تضحك ببراءة على ما أقوم به، كانت مفاجأة جميلة عندما لمحتُ " عصام " بين الحضور، فأشرتُ له بالتحية و أنا ابتسم، فرد "عصام" على تحيتي وهو يضحك فقد كان سعيدًا لرؤيتي، حتى أن البعض لاحظ واستغرب من معرفتنا.

قد أعلم مقام صاحب الحفل، لذا فكرت في أن أقدم فقرة مختلفة، فقمتُ بتأليف أغنية تناسب الحدث، وفي نفس الوقت تعجب الحاضرون بما فيهم أصحاب الدعوة.

وقع اختياري على أغنية يحبها كل المصريين، ورقصوا عليها كثيرًا، لأنها تذكرهم بالتخلص من السرطان الذي كان بدأ يتفشي فى الدولة لكنهم استطاعوا بمشرط الحرية، وحبهم لبلدهم استئصاله قبل أن يغزو الجسد كله.

ارتفع صوتي بالنداء على عروسة الحفل، التي كانت ترتدي فستانًا من اللون الأبيض فبدت فيه كالملاك وتضع تاجًا على شعرها القصير الذي يصل إلى منتصف رقبتها، التي زينتها بسلسة نُقش عليها أول حرف من اسمها.

صعدت المسرح فأمسكتُ بيدها، وبدأت الموسيقى تعزف اللحن المميز، فتعالت الصيحات لما فطنوا للأغنية التي حفظوها عن ظهر قلب.

لكن كانت المفاجأة في الكلمات التي غيرتها لتتماشى مع تلك المناسبة الخاصة، كما كنت أردد الكلمات بأسلوب مضحك وبطريقة كوميدية.

فبدأت أغني و أقول و أنا أدور بين الأطفال وأشير لهم:

تسلم الأيادي.... بهدية في عيد ميلادي.

افتحوا لنا كتاب تاريخنا.... واحكوا للناس هي مين

قول يا مازن قول يا يحيى.... جايين تباركوا أنتم لمين

يوم ميلادك أنت يا زيزي.... نعمة من رب العالمين

عمّ التصفيق وساد الرقص و انتشرت السعادة بين الأطفال، و أنا أردد و أقول مع الموسيقى:

تسلم الأيادي.... اللي تربي وتدادي

تسلم البطن اللي شالت.... قلب أرق من النسيم

هاتلي أم دموعها سالت..... قلبها دايما كريم

أم مين دي غير أمك أنت... عاشت بوجه وسيم

وكنتُ أشير بيدي ناحية والدة الطفلة، التي كانت تصفق وتتمايل مع الموسيقى ووجهها كله سعادة وفرح.

ألف ميت مليون تحيه... من الموظف للمدير

للهدايا المـــيه ميه..... اللـــي جبتوها الكتيـــــــر

مني ليكم أبسط هديه.... تحية للباشا الكبير

وأخذتُ أشير نحو الطاولة التي يجلس عليها " أبو المحاسن " ومن معه من رجال الأعمال.

زيزي يا ست الكل يا "عزة".... يا قلب أبيض من الفل يا وزة

أنا عيني بتبص عليكي... وتتطل بتنسا الآآه

ربنا يحميكي يا "عزة" أنت وأخو اتك آمين

بالأمر يا وزة تنادي جدو "شكري" لما شافها قلبه من الفرحة ارتاح

قال دي "عزة" حتة مني... هتنسيني الجراح

وفجأة خطفت " عزة " المايك من يدي وقالت بعفوية الأطفال:

- بالأمريا جدو تعالى.

صفق الجميع لطلبها وأخذوا في ترديد اسم "أبو المحاسن" فوقف واتجه ناحية المسرح تلبية لطلب حفديته، فقبلها ومد يده سلم علي، ثم أمسك بالمايك وقال والطفلة تتعلق بيده:

- كل سنة وأجمل بنوتة بخيروبصحة.

ثم شكر الجميع على تلبية الدعوة، متمنيًا لهم قضاء سهرة سعيدة، وغادرالمسرح، وعاد لمكانه مرة أخرى.

لاقت الأغنية صدى واسعًا بين كل الموجودين من كبار وصغار، واستحسنوا طريقة الأداء وربط الأسماء بالإشارة إليهم أو ترك المسرح والذهاب نحوهم مثل والد ووالدة "عزة" حتى "أبو المحاسن" عندما ذكر اسمه في الأغنية.

مما جعل الجميع يصرخ ويصفق بحرارة فالأغنية لاقت استحسان "أبو المحاسن" نفسه فترك الكلام مع رجال الأعمال و انتبه للاستماع لها...

وكان الجميع في غاية الفرح والسرور.

انتهى الحفل واستعد الجميع لمغادة قصر "أبو المحاسن" فقد تأخر الوقت لما بعد منتصف الليل..فوقف "أبو المحاسن" وصهره لتوديع المدعوين..

كنت أجمع أشيائي من فوق المسرح، فشعرت بيد تربّت على كتفي، فنظرتُ فوجدته " عصام " جاء ليسلم على ويهنئني على الفقرة المميزة التي قدمتها، فاستقبلته بحفاوة بالغة وتجاذبنا بعض الحديث حتى سمع " عصام " صوت أمه تناديه فاستأذن مني وذهب لها، وكانت تقف مع فتاة وبجوارها رجل أظنه أحد رجال الأعمال.

بعدما استبدلتُ ملابسي وأزلت المكياج الذي كنت ألون به وجهي، و أثناء خروجي من القصر، لمحتُ " محجوب " والد الطفلة، وقد عرفته من خلال الحفل، كان يقف بمفرده، فاتجهتُ نحوه حتى اقتربتُ منه وقلتُ و أنا أبتسم:

- مساء الخيريا باشا.

فالتفت، ونظرلي بدهشة، فأردفتُ قائلًا:

- أتمنى تكون النمرة اللي قدمتها في الحفلة عجبت حضرتك.

فقال وعلامات الدهشة تبدو على وجهه:

- مين حضرتك؟ هو أنت قدمت نمرة في الحفلة!
- أنا اللي قدمت النمرة بتاع المهرج بس شكلي اتغيرلما رجعت لأصلي

فقال "محجوب" وهو يضحك ويشيرلي بيده:

- أيوه..أيوه، كانت نمرة كويسة، "عزة" فرحت بها أوي.
- طب الحمد لله...، يا باشا إحنا دايما في الخدمة.

أومأ برأسه، وهم بالانصراف، لكني استوقفته وقلتُ:

- لو سمحت يا باشا، ممكن أطلب من سعادتك طلب.

استدار"محجوب" ناحيتي، ونظرلي بضجرومط شفتيه بملل وقال:

- طلب إيه؟!

****

- كل شوية أهلي أهلي، ناقصك إيه هنا!

- ناقصني حاجات كتير... أقلها أشوف أهلي وأطمن عليهم.
- ما أنت بتكلميهم كل يوم وبتبعتي لهم اللي يكفيهم.
- الفلوس مش كل حاجة يا باشا، في حاجات أهم.
- أنا مش عايز حد من هناك يعرف إنك مراتي، الناس تقول عليا أني إتجوزت بنت الكلاف اللي كان بيشتغل عندي.
- ولما أنت مستعر مني ومن أهلي اتجوزتني ليه؟!

عندما لمح أثر كلامه على وجهي، قال:

- يا حبيبتي أنا مش قصدي حاجة بس لازم تراعي ظروفي، في ناس كتير مستنية لي أي غلطة علشان يتكلموا عني، كانت ثورة زفت على دماغهم، الكل بقى عامل نفسه بيفهم في السياسة.

ثم اقترب مني ووضع يده على كتفي، وقال وهو يبتسم:

- خلاص يا ستي أنا هتصرف، يومين بس وهخليكي تروحي تشوفي أهلك، يلا بقى علشان ننام، سهرنا كتير الليلة.

أزحتُ يده من على كتفي، وتركتها ودخلت الحمام لأستبدل ملابسي و أنا أفكر فيما وصلتُ إليه، الجميع يحسدني أني زوجة هذا الرجل ولا يشعرون بما أقاسيه، حتى بتُ أحيا بلا قلب أو أي مشاعر، لكن لا أدري هل يصدُق معي و يتركني أذهب لزيارة أهلي أم لا؟

خرجتُ من الحمام، فوجدته يجلس على السرير وهو يشعل سيجارة، كأنه ينتظرني.

صعد إلى غِيّة الحمام بعد عناء شديد وأخذ نفسًا عميقًا كغواص يبحث عن لؤلؤ، وجدها مستسلمة ومسلمة كملاكم في الجولة الخامسة، رغم أنها لم تأنسه ولم تولف عليه في المرات القليلة التي فكر فيها أن يعتلي قمتها، ولكنها مرغمة، ففض أدراجها وقطع أستارها وبعثر أصدافها وعبث بجواهرها.

ودقات قلبه تدق كطبول صاخبة داخل الأدغال الإفريقية... كادت تطير لكن منعها الوزن الجاثم فوقها.

آه لو كان من تشتاق إليه، لتركت له الغية بما فيها وسلمت له مفاتيحها عن طيب خاطر...

أفزعها عرقه وهو يضغط عليها فأخرجها من خيالها، فعادت كما كانت تبحث عن الخلاص منه، حتى شعرت بيده تبحث بين شعابها عن الآبار حتى وصلها فأدلى بدلوه فظل ينهل منه مستبشرا الارتواء، ثم عاد إلى الوراء ليقذف هلبه متصنعًا قوة عفا عليه الزمن، مهد لكي ترسو سفينته بين شاطيء نهرها، بدأ الهلب يغوص في الأعماق التي تئن، فقد عكر صفاء نهرها العذب بخوضه فيه، تشبث بصاريها فشعرت بألم وأصدرت صوتًا كطائر أخضر مكلوم لا يقوى على الطيران بعدما كسر جناحيه، لم ينتبه فلم يكن يهتم بفريسته قدر اهتمامه بهدفه وإن كان لا يسعى إليه كثيرًا.

أفرغ مياهه الراكدة التي تشبه مياة البحيرات العانس التي لم يطمسها من قبل بحر ولا نهر.

أنهى ما بدأه وصار جثة هامدة تجثو فوقها، نفرت منه وأرادت الكر، فاستجمعت قوتها وفردت شعابها وأزاحته من فوقها بعد جهد، فهوى من القمة إلى القاع و انقلب على ظهره كخرقة بالية يلهث من شده التعب.

فترك لها مساحة للتنفس، أخذت تتطلع لنفس عميق ولملمت أشلاءها المتطايرة وشرعت في الطيران بعيدًا عنه.

حلقت وحلقت حتى وصلت جدولًا صغيرًا خلف الباب الزجاجي، فألقت بجسدها العاري بداخله، حتى غاصت فيه من أخمص قدميها حتى شعر رأسها.

سرحت وسبحت وتسبحت لتزيل أثار العدوان الغاشم على غيتها، عادت من مهربها فوجدته جاثيا على وجهه كقتيل حرب يصدر خوارًا كثور السامري، فهو لم يدرك أن الرغبة شيء، والقدرة شيء آخر.

فجلست على كرسي بعيدًا عنه، ودفنت رأسها بين ركبتيها كمن تداري سوأتها حياءً من الناس، لم يزرها طيف النوم وهجرها فأسلمت خاطرها للذكريات، وقلبت في دفاترها القديمة، تعاتب نفسها حينًا وتعابت القدر أحيانًا... تستسلم للنصيب وتتمنى أن يتغير ويتبدل، وظلت هكذا حتى عاد النوم من سفره وأجبرها على الخضوعِ مع بزوغ الشعاع الأول لإشراقة اليوم الجديد!

****

- ألو... مساء الخيريا باشا.
- مساء الخيريا " محجوب "، عملت إيه في اللي اتفقنا عليه؟
- كله تمام، متقلقش، بس نسبتي في العملية زي ما اتفقنا.
- ماشي يا " محجوب "، بس اوعى يكون حد لاحظ حاجة.
- حد مين يا باشا، هو حد كان فايق، متقلقش.
- لازم أقلق، لو " أبو المحاسن " شم خبر هنروح في داهية.
- حضرتك بعيد وخايف على نفسك! أمال أنا أعمل إيه، متقلقش كل حاجة هتمشي زي ما خططنا لها، بس جهز أنت رجالتك.
- كل حاجة جاهزة، المهم أنت مالي إيدك من الرجل ده؟
- طبعا يا باشا، أنا مفطّمه على كل حاجة، وكمان قابض كويس.
- و أنا كمان عند كلامي ونسبتك هتوصل حسابك في البنك.
- تمام كده يا باشا، وبلاش نتكلم كتير، برضو الحرص واجب.
- ماشي، بس كل قلقي يكون حد سمع كلامنا يوم الحفلة.
- لا، لا، لا، من الناحية دي اطمن، الكل كان مشغول بالحفلة.
- بس أنت طلعت نمرة، إزاي مش خايف من " أبو المحاسن "؟
- يا باشا، المهم المصلحة فين، ما أنا اللي بشتغل وبتعب والآخر كل الخير ده هيروح لولاده، فلازم أأمن مستقبلي.
- عندك حق يا " محجوب " بس أنت بتلعب بالنار، خلي بالك.
- قال إيه اللي رماك على المر.
- والله أنا معجب بيك، بعقلك وتخطيطك.
- خدامك يا باشا، أهو بفيد وأستفيد.
- أسيبك بقى لشغلك، وكمان عشان محدش ياخد باله.

بعدما اتفقت مع " عبد العزيز بيه " على صفقة العمر بالنسبة لي، أخذتُ أفكر في حالي، فها أنا أحمل همَّ الشركة على أكتافي، ولا أحصل إلا على الفتات، بينما يزادد " أبو المحاسن " قوة وغنى وسطوة، وقد بلغ من العمر عتيًّا وقد يموت فجأة ويأتي أولاده فيتحكمون في كل شيء وأخرج أنا من المولد بخفي حنين.

لا أنكر أن هذا الاتفاق قد تكون فيه نهايتي إذا علم الباشا بالصفقة التي أُبرمها من دون علمه، لكن ماذا أفعل هل أظل مجردَ تابعٍ أعيش على الفتات، وأحتمل الكثير من الأوامر والتحكمات من أجل إرضاء الباشا وأولاده وزوجته الصغيرة التي تعيش بقصر عمرها ما كانت تحلم به، أم أسعى لتأمين مستقبلي ضد أي جديد قد يطرأ لو توفي الباشا.

وأنا أسبح في هذا البحر الخضم من الأفكار المتلاحقة، ومحاولتي مناطحة الأمواج العاتية، استدعاني " أبو المحاسن " لمكتبه، فلم أعرف لماذا راودني خاطر أن يكون علم ما أنوي فعله، فأسرعت إليه لقطع الشك باليقين، ومعرفة الأمر المهمّ الذي يريدني فيه.

****

وصلتُ بيتي متعبًا فوجدتُ زوجتي و ابنتي في انتظاري ولما دخلتُ من الباب، أسرعتْ "سماح" نحوي قائلة:

- خيريا بابا... عملت إيه؟

قلتُ و أنا ألقي بجسدي المنهَك على الكنبة المتهالكة الكائنة وسط الصالة:

- خيريا بنتي، التحقيق عدى على خير، يوم ولا اتنين وهعرف النتيجة.

فقالت زوجتي وقد تهلّل وجهها من الفرحة:

- الحمد لله يا أخويا، أصل أنت كنت خايف، أهو ربنا سترها.

قلتُ و أنا أشيركثورٍ هائج:

- يا وليه، دول متهميني أني تبع الإخوان وبعطّل مصالح الناس.

ضربت صدرها بيدها وقالت وهي تشهق:

- يا لهوي.. إخوان إيه، الشر بره وبعيد، هو حد بيطيق سيرة العالم دي؟!
- طب وبعدين يا بابا هتعمل إيه؟
- العمل عمل ربنا يا بنتي، بكره الحقيقة تظهر.
- طب قوم يا أخويا إرتاح شوية لما نجهز الغدا.

اتجهت زوجتي للمطبخ وتركتني بصحة ابنتي "سماح" التي قالت وهي تقترب مني:

- هو اتهام الناس بالكدب سهل أوي كده!
- في ناس ميهماش إلا مصلحتها، حتى لو هيظلموا ناس تانية ملهاش أي ذنب، خصوصًا لو فقرا ملهومش ضهريحميهم.
- يا بابا، رجال الأعمال دول بقوا زي الفيرس اللي انتشر في البلد.

- ملكيش حق يا "سماح" يا بنتي تقولي كده، زي ما فيه رجال أعمال بيمصوا دم الغلابة، برضو فيهم اللي بيحبوا البلد، ولا مسمعتيش عن رجال الأعمال اللي اتبرعوا لصندوق تحيا مصر، وغيرهم اللي اتبرعوا للمستشفيات والمدراس.
- عندك حق يا بابا، فعلا فيه ناس كتير بتتبرع لعمل الخير.

قلتُ و أنا أتنهد بشدة كغريقٍ يطلب المزيد من الهواء:

- يا "سماح" يا بنتي، زي ما الشر موجود برضو الخير موجود و أكتر لكن ربنا بيختبرنا، وبلدنا كلها خير، والفاسدين يتعدّوا على الصوابع، يبقى بلاش نظلم الكل، وزي ما الرسول -صلي الله عليه وسلم- قال: " الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة ".

وقفتُ لأدخل غرفتي، ثم قلتُ و أنا أربّت على كتفها:

- البركة فيكوا بقى، إنتو المستقبل اللي هيبني البلد.
- إن شاء الله يا بابا، مصر هتبقى أحسن بلد في الدنيا كلها.

تركتها وتوجهت لغرفتي لأستبدل ملابسي، قبل أن تأتي زوجتي بالغداء، و أنا أقول لنفسي:

- ربنا أقوى من الكل.

****

كالخفافيش تجمعنا على المقهى مثل كل ليلة، "هشام وخالد"، يمارسان كالعادة لعب الطاولة، بينما أنا أجلس منتظرًا " حسن " لأعرف ما الخبر الذي يحمله لي.

وصل "عصام" بسيارته الفارهة التي كانت حديث الحارة، وهو ما زال في نشوة السعادة بالأجواء الشعبية الغريبة عليه، وكانت علاقته بنا قد توطدت في السابقة، فسلّم علينا وجلس بجوار "هشام" الذي اقترب منه حتى صار بينهما أسرار خفية عن باقي الشلة، وإن كنا نعرف أنه يعشق السهرات والشرب مثل "هشام" عشق الصحراء للسراب.

بعد دقائق الانتظار، هلّ علينا " حسن " بابتسامته الجلية التي دومًا ما يرسمها على محياه رغم ما يدفنه في قلبه من حزن وذكريات مؤلمة، يرتدي قميصًا رصاصيًّا وبنطلون جينس ويمسك بهاتفه المحمول في يده فألقى علينا التحية وسحب كرسيًّا ليجلس ثم قال وهو يشير إلينا ضاحكًا:

- يخرب عقولكم... إنتم مبتزهقوش من القعدة دي كل ليلة!
- زي ما أنت مبتزهقش من شغلة التلات ورقات.
- "هشام"... لِم نفسك.
- بص يا أخ "هشام" فيه حكمة بتقول:

" استمتع بأشيائك المفضلة مهما كانت تافهة للغير، فأنت غير مجبر بشرح ما تحب "!

ضحكنا جميعا على كلام " حسن " لكن "خالد" كان أكثر سعادة، فنظر له "هشام" معاتبًا.

حاولت تغيير الموضوع وتلطيف الجو فقلتُ لـ "حسن ":

- سيبك منه، وقولي إيه الخبر اللي كلمتني عنه؟

قال "حسن " وهو ينظر لي مبتسمًا:

- طب مش تطلب لي حاجة الأول؟!
- قهوة مظبوط هنا يا " فلفل ".
- بص بقى يا سيدي، أنا لقيت لك شغلانة أحسن مليون مرة من شغلة التاكسي.
- شغلانة إيه؟ تكنش هتشغلو صبي بلياتشو؟!

انفعلتُ وبرقت عيناي الملونة كأني "هوجان" بطل المصارعة الشهير:

- ما تهدى بقى يا "هشام"، في إيه مالك!

حين لمحت نظرة احتقار تلمع في عين "حسن" بسبب كلام "هشام" المستفز، قلتُ و أنا أشير نحوه:

- يا عم " حسن " سيبك من كلامه الهايف وخليك معايا، شغلانة إيه وفين؟

فقال "حسن" وهو يرتشف من فنجان القهوة:

- سواق خاص في شركة كبيرة.

اندهشت من كلامه حتى إنهم تركوا الطاولة فأكمل قائلا:

- عملت نمرة في عيد ميلاد بنتهم وعجبتهم أوي، فاستغليت الموقف بقى وكلمت أبوها، فإداني الكارت بتاعه، و أنت بقى تعدي عليهم، وإن شاء الله هتتعين في الشركة.

قال "خالد" وهو سعيد:

- والله فيك الخير يا "فيلسوف"، أنت صاحب صاحبك فعلا.
- الشركة دي فين بقى، وصاحبها مين؟
- الشركة دي بتاعت رجل أعمال مشهور أوي والكل يعرفه و أكيد إنتو كمان تعرفوه.

قلت له و أنا لا أتمالك نفسي من الضحك على طريقة كلامه:

- يا عم ما هم كتير، واكلين خير البلد ومحدش قادر عليهم، هو مين بقى فيهم؟
- "شكري أبو المحاسن".

ساد الصمت وجوهنا جميعا، ونظرنا له بدهشة، وقلنا له:

- "شكري" إيه.."شكري أبو المحاسن"!

وضعتُ يدي على رأس "حسن" و قلت و أنا أضحك:

- إنت مبلبع حاجة يا "حسن"، إيه وصلك له؟، يخرب عقلك ده قلعة حصينة يا ابني، محدش يقدر يقرب منه، الحكومة نفسها بتعمل له ألف حساب، ده الحوت رقم واحد في البلد يا عم.
- النصيب بقى زي ما قلت لك، وبعدين يوضع سره في أضعف خلقه، لو مش مصدقين، عندكم " عصام " أهو إسألوه.

ثم أضاف وهو يشير بيده ناحية "عصام":

- ما تتكلم يا عم " عصام " ولّا خايف أقول على الموزة اللي كانت و اقفة معاك في الحفلة.

ضحك " عصام " حتى كاد فنجان القهوة يسقط من يده وقال:

- كلام " حسن " حقيقي، أنا فعلا شوفته في الحفلة اللي كانت في قصر "أبو المحاسن"، بس معرفش حاجة عن موضوع الشغل اللي بيتكلم عنه.
- طبعا يا عم، حد يكون معاه موزة حلوة ويخد باله من اللي بيحصل، تلاقيك حتى ما شوفتش النمرة بتاعتي.
- لا والله شوفتها، وكانت جميلة، ده حتى ماما سألتني عليك واحنا راجعين من الحفلة.

- سيبك من الموزة يا "حسن" وقولي موضوع الشغل ده حقيقي ولا الرجل كان بيثبتك بالكلام وخلاص.
- يا عم أنت مش مصدق ليه، ما الكارت بتاع الرجل أهو!
- لا، مصدقك طبعًا... عموما يا عم أنت تشكر.

فقال " حسن " بجدية وهو ينظر لنا:

- ربنا رزق الناس، يا بوظيفة يكسبوا منها لقمة العيش، أو موهبة لإسعاد النفس والترفيه عنها، بس ساعات الوظيفة ممكن تقتل الموهبة أو تأثر عليها وتخليها مجرد حرفة لجمع المال.

أنا مثلا كنت بشتغل مدرس وبكسب منها لقمة عيش كويسة، بس حسيت إن الوظيفة خنقتني، علشان بعمل حاجة مش بحبها، فكرت استغل موهبتي فكان لازم أستقيل من الوظيفة، مع إن البعض يشوف اللي عملته جنون وقلة عقل، بس أنا مبسوط، لأني بعمل اللي بحبه، وفي نفس الوقت بسعد الناس.

كلام " حسن " نال استحسان الجميع، حتى عقب "خالد" بحماس:

- الله الله يا "فيلسوف"... وكما قال "حافظ إبراهيم ":

فالناس هذا حظه مـال ** وذا علم وذاك مكارم الأخـلاق

نظر له "هشام" بسخرية وغضب، فأكمل "حسن" كلامه لي:

- أنت محتاج شغل بمرتب ثابت علشان تقدر تتجوز وتعيش حياتك، وأظن إن شغلانة السواق الخاص هتوفر لك كل ده خصوصًا إنها عند ناس من طبقة تانية وعالم تاني.

يتدخل "هشام" في الحوار ويقول:

- أنت يا عم المجنون..أنت بتقول إيه؟ ناس تانية إيه وعالم تاني إيه!

المهم هيقبض كام، هو الواحد لو عطشان هتفرق معاه إنه يشرب من ترعة أو من بحر، المهم يشرب لما يشبع.

فقال "حسن" وهو ينظر له بابتسامة، كأنه استحسن كلامه:

- كلامك صح يا "هشام" أول مرة أسمعك تقول حاجة صح.

عندك الناس مثلا وقعوا بين عصابتين، أسوأ من بعض، الفاسدين والإرهاب، الاتنين بيدوروا على مصالحهم، دول ترعة ودول بحر، نهبوا كل حاجة في البلد مسبوش لنا إلا "بحور العطش" اللي عمرها ما هتروينا، ومهما نشرب برضو بنعطش، لكنهم عايشين حياتهم وبيستغلونا كأننا عبيد عندهم، بس الغلط علينا اللي سيبنا ناس زيهم يتحكموا فينا، مع إن مصر بلدنا إحنا، الناس الغلابة اللي أكلنا من طينها وتربينا في شوارعها، فلازم لما تيجي لنا فرصة زي اللي جت لـ"عادل" نمسك فيها يإيدنا وأسناننا، أهو على الأقل نحس إننا بناخد لو جزء بسيط من حقنا.

ضحك "خالد" وهلّل وقال:

- " بحور العطش "، الله يا فيلسوف.. هيكون ده اسم رو ايتي اللي هشارك بها في المسابقة.

فضحك "حسن" ثم أردف قائلا:

- على رأي المثل: " جرح في ظهر الحصان تحت السرج مِدّاري لا الحصان بيقول آآآه ولا الخيال داري "!

فقال "هشام" بطريقته المستفزة:

- واحنا بقى الحصان اللي المفروض يقول " آآه "، مش كده يا فيلسوف ال...

رغم فهمه لمقصده، لكنه لم يعِره أي اهتمام بل استدرك قائلًا:

- المفروض نساعد الدولة ونقف في وش الفساد، ونواجه الإرهاب اللي مبيفرقش بين ظالم ومظلوم أو بين جاني وبريء، الإرهاب والفساد زي السوس بينخر في عضم البلد، بس لما نكون متحدين هنقف، متفرقين هنسقط.
- مقلتليش بقى ليه مسمي نفسك "الفيلسوف المجنون"؟!

فقال "حسن" وهو لا يتمالك نفسه من الضحك:

- معقوله يا "عادل " متعرفش!، فيلسوف عشان درست الفلسفة، ومجنون عشان سبتها واشتغلت بلياتشو على رأي "هشام".

ثم قال وهو ينظر لـ " عصام " كأنما أفتكر وجوده للتو:

- من أول ما وصلت و أنتوا سين وجيم، طب والأخ " عصام " مقلش لنا كان بيعمل إيه في قصر" أبو المحاسن" ومين الموزة الجامدة اللي كان و اقف معاها.

فقال " عصام " وهو يضحك:

- أنت هتتدور عليا ولا إيه!، عموما أنا هريحك يا " فيلسوف"، بابا الله يرحمه كان يعرف "أبو المحاسن " واللي كنت و اقف معاها دي بنت " عبد العزيز بيه " وبرضو كان صديق لبابا.
- يعني أنت بقى من طبقة الناس دي، غريبة مع إنه ميبنش عليك.
- ما لهم بقى الطبقة دي؟، طب تعرف إن ماما عاوزة تجوزني البنت اللي كنت و اقف معاها، بس أنا لسه مش مقتنع أوي.
- تبقى غلطان، البنت باين عليها من عيلة كويسة.
- طب بطل كلام وقوم يلا أوصلك في طريقي.

انتهت السهرة وتفرقت الشلة، بعدما اتفقت مع " حسن " على الذهاب للشركة لتقديم أوراقي، لعلها ترحمني من عملي على التاكسي.

الموضوع خلص يا باشا وكله تمام.

قلتها و أنا أدخل مكتب الباشا مبتسمًا وسعيدًا بإنهاء هذا الموضوع.

- بجد يا " محجوب "، يعني خلاص أطمن!
- كلها يوم أو اتنين وتكون عقود الملكية على مكتب سعادتك، وكله بالقانون ومحدش يقدر يطالبنا بشبر واحد من الأرض، حتى القصر بقى في حماية الدولة محدش يجرؤ يمسه.
- خلص قانوني إزاي؟! مش قلت إن الموظف عمل فيها شريف ورفض يتعاون معانا.
- الله يرحمه يا باشا، ميجوزش عليه دلوقتي إلا الرحمة.

وقف "أبو المحاسن" مفزوعًا مما قلته وقال وهو يتجه نحوي:

- اوعي تكون خلصت عليه، احنا مش ناقصين مشاكل.
- لا، لا، يا باشا، احنا بس عملنا له قرصة ودن عشان يتربى ولبسناه أسهل اتهام وأصعب تهمة.

ثم قلتُ و أنا أضحك بصوت مرتفع:

- حتى أنا سمعت هياخد إجازة، ورتبنا كل حاجة مع اللي استلم الشغل مكانه وخلاص العقود بقت رسمي وكله تمام.

قال "أبو المحاسن " وهو يتنفس الصعداء كمتسابق وصل نهاية السباق:

- والله بر افو عليك يا " محجوب "، أخيرًا ارتحنا من الكابوس ده، نفوق بقى لشغلنا.

ثم قال " أبو المحاسن " وهو يستعد للجلوس خلف مكتبه الفخم:

- أنت طبعا سمعت إن الدولة ناوية تزود الأسعار والدولار شاحح في السوق، المشكلة إن عندنا صفقة كبيرة ومحتاجين دولارات.
- كله معمول حسابه يا باشا، متقلقش سعادتك.
- طب تمام، خلي بقى " وجيه " يجهز نفسه.

اضطربتُ مما قاله اضطراب الورقة اليابسة في شجرة نافرة، تتململ إن عفت عنها نسمة لا تعفو النسمات كلها، وقلت بصوت متقطع:

- " وجيه "، لا طبعا يا باشا، أنا بنفسي هروح أتابع الصفقة، الموضوع كبير و أنا مضمنش " وجيه " يخلصه، وبعدين لسه بدري على وصول الصفقة.
- ما أنت على طول بترفض تسافر وبتبعتُه، اشمعنى المرة دي؟

قلتُ و أنا ابتسم ابتسامة باهتة:

- على الأقل الواحد يغير جوّ واطمن بنفسي إن كل حاجة تمام، المهم متقلقش يا باشا، كل حاجة هتمشي زي ما سعادتك أمرت.
- خلاص يا " محجوب " اتصرف، المهم مش عايز مشاكل.

وبمجرد أن قال جملته الأخيرة خرجتُ من مكتبه، و أنا أشعر بالراحة؛ لأنه لم يلحظ اضطرابي عندما رفضتُ سفر " وجيه "، فهذة هي فرصتي التي أنتظرها من مدة.

قررت القيام ببعض الترتيبات، حتى لا يعلم الباشا بما ننوي فعله، وحتى يمر الأمر كله بسلام.

****

جهزتُ كل أوراقي استعدادًا لتقديمها في الشركة، عسى أن أحصل على العمل المزعوم، فاتصلتُ بـ " حسن " ليكون معي لأنه صاحب الاقتراح، فاتفقت معه على مكان ينتظرني فيه، بالفعل وجدته في المكان والزمان، ركب معي التاكسي، وفي الطريق لم أسلم من قفشاته التي يغلفها كعادته ببعض أقوال الفلاسفة أو الأمثال الشعبية ذات المعنى التي تناسب الموقف، وصلنا لعنوان الشركة المشهورة، فقال " حسن " وهو يشير نحوها:

- يلا يا عم انزل، و أنا هستنى في التاكسي لما ترجع.

فقلتُ بدهشة و أنا أنظر له مبتسمًا:

- نعم! يعني إيه بقى الكلام ده، هو أنا هروح لوحدي!

قال "حسن" وهو يضحك بعفوية على كلامي الطفولي:

- هو إحنا رايحين السينما يا ابني عشان أجي معاك، مش شايف شكل الشركة عاملة إزاي؟!
- و أنا ما لي يا عم بشكل الشركة، هو أنا رايح أتجوز!
- أنت واحد رايح تستلم شغلك، لكن أنا صفتي إيه بقى! البودي جارد بتاع حضرتك؟!
- خلاص يا عم خليك هنا، بس إوعى حد يسرق منك التاكسي.
- متخافش أنا بعرف أسوق كويس ويمكن أنا اللي أسرقه.

ضحكتُ على كلامه، ثم أخذت الأوراق ونزلت من التاكسي متجهًا نحو مدخل الشركة، و أنا أقول لـ " حسن " ردًا على كلامه:

- اسرقه هو يعني بتاعنا.

ضحك "حسن" وهو يشير لي بيده مودعًا ومتمنيًا لي التوفيق وتوجهتُ إلى الشركة الفخمة، وصعدتُ السلالم فأوقفني حارس الأمن الو اقف على الباب وبادرني بسؤال:

- أيوه، أنت مين يا حضرة؟ وعايز إيه؟
- أنا جاي أقدم على شغل هنا في الشركة.

وأظهرتُ له الكارت الشخصي لـ"محجوب بيه " وشرحتُ له الموضوع، فطلب مني الاستفسار من موظف الاستعلامات، الذي كان يجلس وأمامه كمبيوتر وعددٌ من التليفونات، وهناك أجرى اتصالا تليفونيا وطلب مني الصعود للدور الثالث عند الأستاذ "وجيه".

توجهتُ للدور الثالث وأستأذنتُ ودخلتُ المكتب فوجدتُ رجلًا يجلس خلف المكتب، فسألني عن سبب مجيئي، فقدمت له الكارت فأخذه مني، وقرأ جملة " مهرج حفلة عيد الميلاد " على ظهر الكارت، تعجب الرجل، فطلب مني الانتظار، ودخل المكتب المجاور، وجلستُ أنا أتأمل في المكتب الفخم وتلك الشركة العملاقة، وكيف سأكون يوما أحد المنتمين إلى مجموعة "أبو المحاسن" حتى ولو سائق؟، المهم أنها وظيفة ثابتة أفضل من المشاحنات المستمرة مع زبائن التاكسي، أخرجني من أفكاري مجيء الرجل، الذي جلس على مكتبه وأخذ يتفحص أوراقي و أنا أقف أمامه، ثم قال وهو ينظر لي:

- تكون هنا بكرة من بدري، وتحت في الاستعلامات هيعرفوك كل حاجة، وكمان تستلم اليونيفروم بتاعك.

فقلتُ و أنا أبتسم وقلبي يرقص بداخلي:

- يعني كده خلاص هستلم الشغل بكرة.

نظر لي بعدم اهتمام وهو يشير بيده لي أن أخرج وقال:

- أيوه... مع السلامة.

خرجتُ سعيدًا بعد الحصول على تلك الوظيفة، وأخذت أتأمل فخامة الشركة والأثاث والتصميمات وشكل الموظفين وملابسهم المهندمة، ولعب الو اقع بعيوني وتخيلت نفسي أرتدي الزي المخصص للشركة.

خرجت و أنا اتطلع لواجهة الشركة الزجاجية التي تسطع عليها الشمس لتداعبها، فنسجا سويا شعاعًا أزرق اللون فظهر مبنى الشركة كالجوهرة المشعة.

عدتُ إلى حيث تركت التاكسي وبه " حسن " الذي ابتسم عندما لمحني متجهًا نحوه كأنه فطن للفرحة التي تلمع في عيني وظل يشير بيده، كأنني عدتُ من سفر طويل، اقتربت منه وقلت:

- إيه ده معقولة أنت لسه هنا!، هو التاكسي رفض يهرب معاك.

فقال وهو يضحك على كلامي:

- أنا اللي خفت على سمعتي ورفضت أهرب معاه.

ضحكتُ على رده غير المتوقع، ثم أخبرته بأني وُفقتُ في الحصول على الوظيفة وسأستلم العمل غدًا، فابتسم وهنأني فبادلته الابتسام و أنا أشكر له صنيعه وكنت أنظر له فأتذكر معاناته وآلامه وها هو يبكي صابرًا أو يصبر باكيًا، كأن الله قد ائتمنه على أثمن الفضائل وأعزها من الصبر والقناعة وشرف الضمير، فكان كالشمعة تحترق لتضيء الطريق لغيرها.

حقا! أتعسُ الناس من لا يجد إلى جواره شخصًا يطمئن إليه وقت أن يحتاج إليه، تلك هي الصداقة الحقة، وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم.

****

عدتُ من عملي في قمة الإرهاق، لكن قلقي على أبي دفعني للسؤال عنه بمجرد دخولي من باب الشقة، فأخبرتني أمي أن أبي دخل يرتاح كالعادة بعد الغداء، فجلستُ أتحدث مع أمي، حتى لمحت أبي يخرج من غرفته وأشار لنا بيده وهو يتجه نحو الحمام، فلاحظت أن حالته لا تبدو بخير، وقد بدا على وجهه التعب، فسألت أمي عن السبب، فأخبرتني أنه منذ عودته من عمله وهو على تلك الحالة.

أردت أن أطمئن عليه فانتظرته حتى فرغ من صلاته، جاء وجلس بجواري و أنا أشاهد التليفزيون، بينما دخلت أمي إلى المطبخ، فنظر لي وهو يبتسم ابتسامة مجاملة، فقلت له:

- تقبل الله يا بابا.
- منا ومنكم يا بنتي، أخبارك إيه يا " سماح "؟
- أنا كويسة الحمد لله، أخبارك أنت إيه يا بابا، ما لك؟
- مفيش يا بنتي، شوية تعب من الشغل، حتى أنا قدمت على إجازة، أرتاح بقى شوية.

فقلتُ و أنا أربّت على كتفه:

- شغل إيه يا بابا اللي يعمل فيك كده، اتكلم يا بابا، فضفض.

فقال بعدما أخذ تنهيدة طويلة، كأنه يطرد جبلًا جاثمًا على صدره:

- مفيش يا بنتي، بعد ما حققوا معايا، كنت فاكر أني هرجع شغلي عادي، لكن لقيتهم بيمسكوني مسئولية دفتر الحضور والانصراف؛ حاجة كده أي موظف مستجد يقدر يعملها.

قلتُ و أنا أنظر له بحب:

- معلش يا بابا، لازم تكون فخور باللي عملته، حتى لو محدش بيقدّر، بس يكفي إنك رفضتُ تبيع ضميرك.
- يا بنتي أنا مش زعلان، بالعكس أنا بحمد ربنا إنها جت لحد كده، محدش عارف المستخبي إيه.
- صح كده يا بابا، وأهو في الإجازة ترتاح شوية وترجع شغلك وراسك مرفوعة لفوق.
- تعرفي يا " سماح "، أنا رفضت الرشوة علشان تفضل راسكم مرفوعة دايما، وتعرفوا إن عمري ما أكلتكم لقمة حرام.
- أنا و اثقة من كده يا بابا، ربنا يخليك لنا وميحرمناش منك.

قال وهو يبتسم ويضع يده على كتفي بحنية:

- و أنت بقى يا ستي، أخبار شغلك إيه؟
- الحمد لله يا بابا كله تمام.
- الناس بيقولوا عليكم ملايكة الرحمة، علشان إنتو بتخففوا الوجع عن أي حد تعبان.

قلتُ و أنا أضحك:

- ده اللي قالوا مدير المستشفى لما كان بيمر وشاف واحدة زميلتنا سايبة شغلها وبتكلم خطيبها في التليفون، يا لهوي يا بابا على اللي عمله فيها؛ شخط فيها جامد وقال لها: مينفعش نهمل في حق الناس علينا.
- عنده حق، ناس بلدنا غلابة مش حمل تمن كشوفات الدكاترة في المستشفيات العامة، بتفرج عليه شوية عن الناس.

- الله يا بابا، لو تشوف الناس اللي بتيجي تكشف كل يوم في المستشفى، أو الأطفال، والله يصعبوا عليك، كله كوم بقى وموضوع الحوداث كوم تاني.
- محدش بقى عنده صبر، ده غير الهباب اللي السو اقين بيشربوه بيخليهم مش شايفين قدامهم.

ثم قال بعد أن اطمأن على أخباري:

- خلي ماما تجيب لي القهوة في الأوضة، وقومي أنت عشان ترتاحي.
- حاضريا بابا، ور ايا شوية حاجات هخلصها وأرجع تاني عشان أقعد مع حضرتك شوية.

ربّت على كتفي و ابتسم، فتركته و اتجهت لغرفتي لاستبدل ملابسي.

****

استدعاني "أبو المحاسن" فأسرعتُ بتركيب الوجه الباسم ودخلتُ عليه مكتبه، وقلت و أنا أتصنع انحناء الامتنان:

- تحت أمرك يا باشا.
- بص يا " محجوب " فيه موضوع كنت بحاول أخلصه، بس الظاهر مفيش فايدة.
- خيريا باشا موضوع إيه؟!
- الهانم مراتي يا سيدي، بتزن أوي الأيام دي عشان تشوف أهلها، و أنا دماغي مش رايقة للكلام الفاضي ده.
- طب وما له يا باشا، سيبها تروح أهو ترتاح من وجع الدماغ، سعادتك عارف الحريم لما تزن على حاجة.
- عندك حق يا " محجوب "، أنا كمان مش عايز أخنقها، حاسة نفسها في سجن، بنت الكلّاف فِقَرِيَّة بتحن للطين اللي جايه منه.
- أوامر سعادتك يا باشا.
- أنا وعدتها تروح لهم شوية بعد المغرب وترجع من غير ما حد ياخد باله.
- عين العقل يا باشا.
- عايزك تشوف لي سواق من سواقين الشركة، بس يكون مرحش هناك قبل كده ومحدش يعرفه.
- موجود يا باشا، للحظ عندنا سوّاق لسه هيستلم شغله بكره أو بعده بالكتير، الملف اللي قدمه بيقول إنه كويس وكمان جامعي.
- أنت عينت حد جديد في الشركة يا " محجوب "؟!

- ده بعد إذنك طبعا يا باشا، هو لسه مستلمش الشغل، لو سعادتك رافض يبقى بلاش.
- تعرفه منين السواق ده، وعينته بسرعة كده؟
- ده يا باشا، إتوسط له الواد المهرج اللي كان في حفلة عيد ميلاد "عزة "، وبصراحة اتحرجت أرفض طلبه.
- حبيبة قلبي، هي فين العفريته من يوم الحفلة مشفتهاش، ولا حتى سألت على جدو.
- يا باشا، دي تقريبا يوميا في القصر، لكن سعادتك دايما مشغول.
- والله يا " محجوب " نفسي تعيشوا معانا في القصر ونكون كلنا سوا، بس أنت عارف بقى، مراتي ومراتك مش هيريحوا، وهيخلقوا المشاكل من أتفه حاجة.
- لا، لا، لا، كده أحسن يا باشا، وإحنا برضو معاكم على طول، وعلى رأي سعادتك مش عايزين مشاكل.
- طب يا " محجوب " روح جهز لموضوع زيارة الهانم، رتب كل حاجة وابقى عرفني عشان أبلغها.
- طب بالنسبة للسواق الجديد يا باشا.
- خلاص يا " محجوب " طالما بتقول إنه كويس، عرفه المطلوب منه، ومش عايز أي غلطة، وكمان ميكونش رغاي ويقعد يسأل ويتقصى، يعني يكون لا بيسمع ولا بيشوف ولا بيتكلم.
- تمام يا باشا، طبعا، هو ما له ومال الكلام ده، وأنا كمان هشدّد عليه ملوش دعوة بأي حاجة.

خرجتُ من مكتب "أبو المحاسن" وأنا أتعجب من تصرفه وخوفه من أن يعرف أحد، فأنا أحسده على تلك الجميلة، حتى لو كانت فلاحة كما

يقول، لكم أتمنى أن تكون زوجتي، فهي تملك كل ما يتمناه الرجل من الصفات الجميلة، إني لأحنق على زوجتي لأنها تكرهها، فلا عيب يعتريها سوى أنها زوجة هذا الرجل العجوز، الذي يمتلك المال والقوة والنفوذ وجمال زوجته، ليس بها ما يدفعني لكرهها سوى خوفي أن تأخذ من مال " أبو المحاسن " فلا تدع لنا منه شيئًا.

لكن يجب الحذر منها، فهي غير مأمونة الجانب، وقد تسوّل لزوجها أن يفعل بنا الكثير، والفرصة جاءت لكي أسلط عليها هذا السائق الجديد فيعرف أخبارها، ويكون طوع أمري فيما أطلبه منه، من يعلم قد تكون تخفي الكثير من الأشياء عند أهلها.

قررتُ أن ينضم السائق الجديد لمجموعة الجواسيس التي زرعتها حول "أبو المحاسن"، لكن ترى هل يقبل المهمة، أم يدعي الشرف كمن سبقه؟

****

جلستُ أنا و"هشام" في بار إحدى الملاهي الليلة نحتسي كأسين من الخمر، كعادتنا مؤخرًا، فكثيرًا ما كنا نتقابل لشرب الخمر قبل أن نلحق بباقي الشلة على المقهى البلدي.

كان البار يمتلئ بنوعيات مختلفة من الناس، فهو مكان واسع يعبئه سحاب كثيف من الدخان، تصاحبه الضحكات الماجنة التي تصدر من البنات شبه العارية التي تدور بالخمر على رواد البار، كنا نجلس وفي يد كلانا كأس الخمر والسيجارة لا تفارق الشفاة، حتى قال لي "هشام" وهو شبة مخمور، ساخرًا من " حسن ":

- وقال إيه مسمي نفسه " الفيلسوف المجنون "، فاكر نفسه حكيم زمانه.
- يا عم إحنا ما لنا وما له، كل واحد حرّ، سيبك منه.

أنزل "هشام" الكأس من يده وأخذ نفسا من سيجارته وقال:

- تعرف إن مراته وبنته ماتوا في حادثة عربية.

مندهشًا مما سمعته:

- بجد... يا حول الله، أنا أعرف أنه ساب التدريس وبيشتغل مهرج في الحفلات، لكن أول مرة تقولي على الحادثة دي.

عقب وقد احمرت عيناه من الشرب ودخان السجائر:

- أنا عرفت الموضوع ده من "عادل" لكن هو مبيحبش يتكلم عن الحادثة.
- طب ما يمكن يكون الحادثة هي السبب في حالته دي، حاول بقى تخف عليه شوية يا أخي، ده طلع غلبان أهو.

نظر لي مستنكرًا كلامي ثم قال:

- يا عم "عصام" هو اللي بيدخل نفسه في كل حاجة، هو ما له نشرب ولا نتنيل!، هيعمل فيها مصلح اجتماعي!

قلتُ و أنا أضحك على كلام "هشام":

- سيبك منه وقولي هتروح على القهوة الليلة ولّا هنكمل هنا.
- طبعا هروح عشان أعرف " عادل " عمل إيه في الشغل الجديد ما هو يا سيدي مع المجنون من الضهر ومفيش أخبارعنهم.

لمحت "هشام" يتابع إحدي الفتيات بعينيه الذابلتين وتحرك نحوها ثم رفع صوته وقال:

- أموت أنا وأعيد السنة، أحلى موزة دي ولا إيه!
- يخرب عقلك، يا عم بلاش كده ممكن يكون معاها حد ويتخانق معاك، إحنا مش ناقصين مشاكل.

بصوت يكاد يخرج من فمه، والعرق يكسو جبهته كعابر سبيل يجوب الصحراء وقت القيلولة قال "هشام ":

- يا عم " عصام " فكك، الدنيا قدامك، والموزة بتضحك والأيام جيالك.

ضحكتُ على جملته الغريبة، ولكنه لم يكد يكمل جملته حتى وجدته يضع يده على جنبه، واحمر وجهه، فبدا كأن هناك من يحاول أن يخنقه، ثم انتابته حالة قيء شديد، أسرعت نحوه وقلتُ و أنا منزعج من منظره:

- ما لك يا "هشام"، شكلك تعبان قوي!

وهو يحاول تحمل الألم كعداء في نهاية السباق قال:

- لا، لا، أنا تمام، مفيش حاجة.

إلا أنه ما لبث فشعر بقوة الألم فاستسلم وخارت قواه كذبيحة في صبيحة عيد الأضحى، إلا أنه ما يزال يعاند السقوط، فأخذ يضغط على

جنبه بقوة كمن يريد إسكات الألم، وأخذ يعوي كذئب أصابته طلقة رش من صياد محترف، وقبل أن يهوي ويسقط على الأرض أسرعتُ وأمسكتُ به فكان بين يدي كطائر أخضر كسر جناحه، صرخت عندما لمحت أن عينيه تخبو وتسبل ويغمي عليه، فتجمع حولنا بعض الشباب، وأسرع أحدهم بطلب سيارة الإسعاف و أنا بجواره لا حول لي ولا قوة.

****

كنت أستعد للنزول لمقابلة أصدقائي في المكان المعتاد الذي نقتل فيه الفراغ، حتى رن هاتفي، فنظرت فوجدت أن المتصل هو "هشام" تخيلت أنه يستعجلني للحاق به، فلم أرد وأنهيت المكالمة، فعاود الاتصال مرة أخرى، فشعرت أن هناك أمرًا ما، فقمت بالرد قائلا:

- أيوه يا ابني أنا جاي أهو.
- أنا " عصام " يا "خالد" تعالى بسرعة "هشام" أغمى عليه و أنا معاه في المستشفى، حاولت أتصل بـ" عادل " بس تليفونه مقفول.
- ما له "هشام"؟ حصل له إيه، إنتو في مستشفى إيه؟
- لما هتيجي هحكي لك اللي حصل، المهم تيجي بسرعة وحاول تكلم " عادل ".
- حاضر، حاضر، قول لي عنوان المستشفى.

أخذت عنوان المستشفى من " عصام " وأسرعت بالنزول، و أنا لا أعرف ماذا حدث لـ "هشام" هذا المهمل الذي نصحته أكثر من مرة أن يذهب للطبيب خصوصًا بعدما شعر بالتعب منذ مدة لكنه لا يسمع إلا صوته فقط. و أنا في الطريق إلى المستشفى اتصلت بـ" عادل " وأخبرته بما حدث، فأكد أنه سيكون هناك في أسرع وقت ومعه " حسن ".

وصلت المستشفى وأسرعت لمكان الغرفة التي بها "هشام" فلمحت " عادل " الذي سبقني، يتحدث مع الطبيب وبجواره " حسن " فأسرعت وسألت "عادل " ودقات قلبي تتسارع كمن خرج من سباق لتوه:

- خيريا " عادل "، الدكتور قال لك إيه؟ وفين "هشام"؟!
- براحة يا "خالد" خد نفسك بس الأول، مفيش حاجة، متقلقش، "هشام" كويس، هو في الأوضة هناك هنروح له.

- إزاي مفيش حاجة، ده " عصام " بيقول أغمى عليه؟
- إن شاء الله خيريا "خالد" يلا بينا نروح له الأوضة نطمن عليه.
- خيرإيه بس يا " حسن " هو "هشام" ده بيجي من وراه أي خير.

كان "هشام" بداخل غرفة صغيرة، بها حمام خلف الباب، وتليفزيون صغير معلق على الحائط، وشباك كبير يطل على الشارع، وفي وسط الغرفة سرير صغير يرقد عليه، وقد علقت له المحاليل و" عصام " يجلس بجواره، ظهر على "هشام" أثر التعب وإن كانت حالته بدأت في التحسن بفعل المحاليل المعلقة في يده، بدت السعادة على وجهه بمجرد أن دخلنا عليه الغرفة، على الرغم من محاولته تحاشي النظر لنا لتوقعه العتاب والتوبيخ منا خصوصا من " عادل " الذي كان يعمل له ألف حساب، على العكس تمامًا من معاملته لي، بادره " عادل " قائلا:

- حمد لله على السلامة يا "هشام"، أخبارك إيه؟
- الله يسلمك يا " عادل "، الحمد لله كويس.
- وبعدين يا "هشام" هتفضل كده لحد أمتى؟
- مش وقته يا " عادل " الكلام ده، سيبه لما يرتاح.
- مش وقته ليه يا " حسن " ما أنت سامع الدكتور بيقول إيه!
- قال إيه الدكتور يا " عادل " طمني؟
- الدكتور مش مطمن، وطلب فحوصات وتحاليل.
- سيبك من الكلام ده يا " عادل " أنا كويس أهو، شوية برد وراحوا لحالهم.
- برد إيه يا "هشام" ده كانت حالتك صعبة أوي وبتصرخ من الوجع.
- أنت هتستعبط يا "هشام"، ما تسيبك من الزفت اللي بتشربه وتفوق لنفسك شوية.

- اصبر بس يا " عادل " براحة عليه، و أنت يا "هشام" اسمع الكلام، الأحسن أنك تعمل التحاليل عشان تطمن على نفسك.
- والنبي الموضوع مش ناقصك يا عم "سقراط" أنا كويس وهخرج، لا فحوصات ولا تحاليل ولا غيره.
- في إيه يا "هشام"؟! "حسن" عنده حق، ما تعمل اللي الدكتور قال عليه عشان تتطمن على نفسك، مسمعتش كلام " عصام " إنك كنت بتصرخ من شدة الوجع ولا هو عند وخلاص.
- خلاص يا "عادل"، حاضر، هبقى أعمل التحاليل بعدين، ما أنت عارف أن الدكاترة بتحب تبالغ شوية.
- عمومًا أنت حر، لما المحلول يخلص نروح زي ما قال الدكتور.

عدنا جميعا إلى البيت، ودخل "هشام" ليرتاح، فاستأذن "عصام" و" حسن " بعدما اطمأنوا على حالة "هشام".

****

بعدما تأكدنا من استقرار حالة "هشام" خرجتُ بصحبة "عصام " فسألته عما حدث لـ"هشام" فحكى لي "عصام" ما جرى، ومدى قلقه على "هشام" عندما رآه في هذه الحالة، وإذا به فجأة يسألني سؤال غير متوقع، عندما طلب مني أن أحكي له تفاصيل الحادثة التي راح ضحيتها أعز الناس عندي، فكان كمن ألقى قنبلة و انفجرت وظهر أثرها على ملامحي فأصبحتُ كجندي مصري في حرب النكسة يحاول الهروب من العدو، وليس معه ما يدافع به عن نفسه.

اعتذر " عصام " عن سؤاله، عندما رأى تغير ملامحي، وشعر بعدم ترحيبي في تذكر الماضي، حاولتُ أن ألملم أشلائي المبعثرة، وفضلتُ أن أغدو بعيدًا عن أي عيون تلاحقني، فاستأذنت منه أن يوقف السيارة، بحجة شراء بعض الأشياء، رغم محاولة "عصام " تطيب خاطري وتوصيلي لأي مكان أريده، لكني رفضت بشدة، وصممتُ على مغادرة السيارة، والانفراد بنفسي بعض الوقت.

لم يكن أمامه إلا النزول على رغبتي، فأوقف السيارة، ونزلتُ منها، ولوحت له بيدي مودّعًا، فتحرك بسيارته بعيدًا، سرت والذكريات تملأ جعبتي، فلم أجد إلا ضفاف النيل لأشكو بثي وحزني إلى الله وأدعوه أن يرحم زوحتي و ابنتي، فسؤال "عصام" فتح جرحًا غائرًا لم يندمل، فأعاد الذكريات كصديد فاحت رائحته، جلستُ على ضفاف النيل أبثه أسراري التي أحتفظ بها لنفسي ولم يطلع عليها غيري، ورغم ظهوري بين الجميع بمظهر الضاحك دائمًا، لكن لا أحد يشعر أن بداخلي بركانًا من الحزن والألم لو تركته كان كفيلًا بالقضاء علي.

ضحكتُ و أنا أتذكر ابنتي الجميلة، وهي تقف فتمشي خطوات ثم تقع فتحبو حتى وصلت إلي، و أنا مستلقي على السرير ثم تمسك بهاتفي تضعه في فمها وترضعه بنهم أو تضعه على أذنها كفتاة مراهقة تواعد حبيبها وتقول بصوتها الطفولي البريء:

- ألووووو... ألووووو بابا بابا.

فتأتي زوجتي مسرعة لتأخذه، فتنزعه منها خوفًا من إفساده، فأنهر زوجتي وأعنفها وأطلب منها أن تتركها على راحتها، فتغضب زوجتي وتقول بنرفزة محبَّبة لدي:

- أنت حر أنت وبنتك، يا رب تكسره.

فأضحك من قلبي كوردة داعبتها قطراتُ الندى في الصباح.

ثم فجأة...

وسط ابتسامتي أتذكر يوم الحادثة فيسودُّ وجهي وأشعر بطعنة توجه لقلبي فتمزق أحساسيه ومشاعره إلى أشلاء فتتناثر تناثر البذور على الأرض... يومها عندما نظرتُ لأجد زوجتي تحتضن طفلتي الجميلة وهما يسبحان سويًّا في بحر من الدماء يستنجدان بمنقذ كغريق يمسك بأول قشة تقابله، و أنا أحاول جاهدًا تخليص أقدامي التي غاصت داخل السيارة المحطمة... حاولتُ وحاولتُ لكن رصيد ابنتي قد انتهى من الحياة فصرختُ صرخة مدوية كانت كافية لتتساقط من أجلها دموع البشر، فحملتها بين يدي داخل سيارة الإسعاف، وزوجتي راقدة بداخلها، رافضًا محاولة أي شخص أخذها مني، احتضنتها وكل أملي أن تعود للحياة، فلم أشبع من طفولتها، ولم أمل من شقاوتها، لكن هيهات فقد فاضت روحها للبارئ، ولم يعد أمامي إلا احتسابها من عداد سكان الجنة.

حاولتُ إيقاف الدموع التي تتراقص في عيني وأنا أتذكر شبح الأمل الذي تمسكتُ به، وزوجتي داخل غرفة العمليات لكن سرعان ما تبدد كسراب الصحراء في يوم شديد الحرارة.

مشاعر متداخلة تجعلني أضحك ثم أبكي ثم ابتسم فتنهمر دموعي بشدة، أشعر بها تمتزج بمياه النيل عندما اقتربتُ لأرى صورتي على صفحته، أخرجني من تلك الذكريات صوت أذان الفجر الذي يصدح فقمتُ من مكاني، ومددتُ يدي فالتقطتُ بعض قطرات الماء، ألقيتُ بها على وجهي.

سرتُ عائدًا لمنزلي حاملًا معي دقات قلبي المرهف الذي يدفعني دومًا لحب الحياة، وإسعاد الناس، وقد أعلنتُ الحرب على كل جنود اليأس، وأنا لا أحمل إلا إرادتي الصلبة كسلاح وحيد في مواجهة كل التحديات، كم كنت أتمني أن أسعد زوجتي وطفلتي، فحبي لمساعدة الغير نابعًا من وفائي لذكرى أغلى اثنين على قلبي زوجتي وطفلتي الوحيدة.

****

أعيش الواقع خيالًا، والذكريات حقيقة، فلا أهنأ بالواقع ولا تعود الذكريات، حاولتُ كثيرًا التأقلم مع حياتي لكني لم أستطع، خياله يطاردني في كل مكان ويزورني في كل زمان، ترى هل أظل هكذا، أم يضحك لي زماني وينتشلني من تلك الدوامة؟

ماذا أفادني المال والجاه، ماذا أضافه لي كوني جميلة في سجن جميل، رضيتُ يا قلبي المسكين أن تجمع من أشلائي المتناثرة حطامًا أعيش به، فأكون شبه إنسان بلا قلب، بلا حب، بلا حياة.

هل لي أيتها النسمات الرقيقة أن أطلب منك أن ترسلي آمالي إلى نفس أخرى؟، فقد كانت الآمال بيننا هي أحلام اليقظة.

إن روحي لا تزال في مذهب الحس كأنها تفيض بالبكاء، لكن الأرض لا تحب البكاء، وكل دموع العاشقين لا تروي ظمأ النسيان ولو انحدرت كالسيل الجارف، وما دمعتي إلا النهر الذي نبتت على شاطئيه أشجار المشاعروغصون الأحساس، وأوراق اللهفة.

ها أنا كالطائر الذي وقع من الجو بسهم، فلما أحس الأرض جعل يضربها بجناحيه، وظل يحاول ويحاول ولكنه لا يطير، وكلما أراد أن يقفز إلى السماء وجد أن خاصية الطيران فيه مختلة ترجف وتضطرب، وبعد كل هذا العناء والألم يكتشف أن جناحه قد كسر فالتصق بالأرض، وجاءه الموت من كل مكان وما هو بميت.

حتى متنفسي الوحيد في زيارة عائلتي حرمت منه، ولا أزورهم إلا خلسة، كالمشبوه الذي يتوارى بعيدًا عن أعين الناس.

كنت أجلس بمفردي أشاهد التلفاز شاردة، لا أعي المناظر المتغيرة أمامي على الشاشة، انتهبت على صوت الخادمة ترحب بزوجي الذي أقبل نحوي بطلعته التي أكرهها، ليس إلا لأنه حرمني من حبي وسلب مني طعم الحياة، ألقى بجسده الضخم بجواري، وقال وهو يتصنع الابتسام:

- جهزي نفسك عشان تزوري أهلك، بكرة تنزلي تشتري لهم شوية حاجات وبعد بكرة تروحي لهم.
- بجد... أخيرًا هتحقق لي أمنيتي.

فقال وهو ينظر لي بغضب والشرر يتطاير من عينيه:

- أنت بتتريقي، يا هانم افهمي أنا مش فاضي للعب العيال ده.
- بتسمي زيارة أهلي لعب عيال.
- أنا قلت لك خلاص هتروحي، الموضوع انتهى.
- حاضر يا باشا، ده أنا لو بشتغل في شركتك مش هتعاملني بالشكل ده.
- أمال أعاملك إزاي، ما أنت مش عاجبك حاجة، عندك كل اللي تتمناه أي واحدة في العالم، وبرضو مش عاجبك.
- عندي كل حاجة بس ناقصني الحب، محدش هنا بيحبني، حتى بنتك " سارة " دايما بتعلق على أي تصرف بعمله.
- أنا رفضت إنها تعيش معانا في القصر مع أنك متأكدة أنا متعلق ببنتها قد إيه، كل ده عشان أرضيكي.
- فيك الخير يا باشا، سعادتك معرفتش هي قالت إيه لأصحابها عني يوم الحفلة، خلتني في نص هدومي.

- تصرفاتك هي اللي بتخليها تعمل كده، أنت ليه مش عايزة تفهمي إن أنت متجوزة مين، ولازم تتعامل مع الناس على الأساس ده، وسيبك من شغل الفلاحين بقى.
- هو أنا لازم أتكلم من طرف مناخيري عشان أعجب الهانم بنتك.

قال بحدة وهو ينتفض من مكانه:

- فلاحة وعمرك ما هتتعلمي، قومي نادي على الخدم يجهزوا العشا، وسيبك من كلامك ده أنت مش قعدة في الغيط في بلدكم.
- حاضر يا باشا، أنت تؤمر.

تركته يصعد غرفته ليبدل ملابسه، ودخلت المطبخ أطلب منهم أن يجهزوا العشاء، وعدتُ إلى مكاني لأرتدي عباءة أحلام اليقظة وأطلب منها جناحين لأطير بهما بعيدًا، حيث حياة غير الحياة، وناس غير الناس.

****

أمسِ كان أول يوم في عملي الجديد كسائق لدى مجموعة شركات " أبو المحاسن "، وقد استلمت الزي المخصص لسائقي الشركة، هذا الزي المكون من بدلة كحلية اللون، وقميص بلون السماء، واستمعتُ لبعض التعليمات من المسئول عن سائقي الشركة، مثل الالتزام بالأمانة، والحفاظ على السيارة ونظافتها، وبعض تعليمات الأمن المعتادة، وها أنا في صباح اليوم الثاني، أقف خارج الشركة أنتظر لتنفيذ أي أمر وطلب أكلَّف به، معي بعض عمال الشركة نتحدث ونضحك، كانت وسامتي وجسمي الرياضي وطولي الفارع ملفت لكل العمال فلم يصدقوا أني سائق معهم، حتى أنهم في البداية حسبوني رجلًا مهمًا أتى الشركة لعقد إحدى الصفقات، لكن عندما جاء من يستدعيني لمكتب " محجوب بيه " تأكدوا من صدق كلامي، عدلت من هيئتي، وتبعت الرجل إلى داخل الشركة، وعند باب المكتب سُمح لي بالدخول.

نفس المكتب الذي دخلته عندما كنت أقدم أوراق الوظيفة، ومنه دخلت مكتبًا آخر، كنت أول مرة أرى " محجوب بيه " رجل نحيف نوعا ما، شعره أسود لامع، الحيوية تظهر في ملامحه، يجلس خلف مكتب كبير فخم وأمامه بعض الأوراق، وعلى الجانبين موجود كنبة فخمة سوداء اللون، تتوسطهما طاولة صغيرة وضعت فوقها زهرية صغيرة بها ورد.

وقف "محجوب" من مكانه وأمر الرجل الذي اصطحبني بالانصراف، ثم اقترب مني وقال بصوته الحاد:

- أنت السواق الجديد؟
- أيوه يا فندم... أنا "عادل" السواق الجديد.
- إيه علاقتك باسمه إيه ده المهرج اللي توسط لك.
- ده صاحبي من فترة، وحب يقدم لي خدمة.

- هو فعلًا خدمك خدمة كبيرة؛ لأننا مش بالسهل كده نعين أي حد، خصوصًا أننا مش محتاجين لسو اقين، لكن صاحبك شاطر كلمني في وقت كنت مبسوط فيه وأعطيته كلمة ومش ممكن أرجع فيها، لكن اعمل حسابك أنك لسه تحت الاختبار.
- أوامرك يا باشا، إن شاء الله هكون عند حسن ظن حضرتك.

مكملًا باقي التعليمات بجدية وهو يكتب في ورقة:

- تكون بالعربية الساعة ستة بالظبط عند قصر الباشا، طبعًا تعرفه، هتروح مشوار مع الست هانم.

مددتُ يدي وأخذتُ منه الورقة ووقفت أنتظر باقي التعليمات فقال:

- أهم حاجة عندي الالتزام والأمانة، وبلاش كلام مع الهانم خالص، أنت معاك العنوان تنزلها هناك، ولما تخلص ترجعها القصر وتيجي على الشركة.
- اطمن يا باشا، أنا هنفذ المطلوب مني بالحرف.

ثم أشار لي بالانصراف، وقبل أن أخرج من باب المكتب، استوقفني وقال بصوت اختفت منه الحدة والجدية:

- لما ترجع تعرفني بكل حاجة حصلت وبالتفصيل الممل.
- تمام يا باشا... حاضر.

خرجتُ من مكتب " محجوب " و أنا لا أرتاح لشكله ولا لطريقة كلامه، ومما زاد من قلقي، طلبه أن أبلغه بكل التفاصيل، كأني جاسوس أعمل لحسابه، حاولتُ إبعاد تلك الهواجس عن تفكيري، وشغلتُ نفسي مع بعض العمال، فأخذنا نتسامر ونضحك على مو اقف مرت في حياتنا، ودون أن يشعر أحد كنتُ أقحم اسم "محجوب " في الحوار فلاحظتُ أن الجميع يتفق مع الهاجس الذي ولد بداخلي تجاه شخصية هذا الرجل.

في الوقت المحدد، نظفت السيارة من الداخل، ولمعتُ الزجاج من الخارج، واستأذنت من زملاء العمل، و اتخذتُ مجلسي أمام عجلة القيادة، وأدرت المحرك، ولوحتُ لهم مودعًا، و اتجهتُ إلى قصر الباشا، كما يحلو للجميع أن يطلق عليه هذا اللقب، رغم أن الباشوية ألغيت من زمن بعيد، لكن "أبو المحاسن" شخص استثنائي حتى في تعامل الدولة معه، ورغم أن الكثير يتهمه بأنه يمتلك الكثير من الأراضي التي اشتراها بسعر زهيد، حتى هذا القصر الذي بناه في موقع مخالف بين أحضان النيل، لكنه استطاع بنفوذه منعه من قرارات الإزالة مثل كل المباني المخالفة، وصلتُ إلى البو ابة الرئيسية للقصر، التي فُتحت إلكترونيًا بمجرد ما اتجهت نحوها بالسيارة، ثم سرت مدة داخل القصر في طريق يتوسط الحدائق الجميلة حيث الأشجار والورود.

اقتربتُ من باب القصر، وأوقفتُ السيارة ونزلتُ، فخرجت خادمة كبيرة في السن نوعا ما، وأخبرتني بأن الهانم تستعد للنزول، فوقفتُ بجوار السيارة، وأشعلتُ سيجارة و أنا أتأمل القصر الفخم وما حوله من حدائق، لأول مرة أرى مثل هذا القصر بل وأكون متواجدًا بداخله، وبعد دقائق جاءت خادمة أخرى تحمل في يدها شنطة، أسرعتُ نحوها وأخذت منها الشنطة ووضعتها في السيارة، وتركتني الخادمة ودخلت القصر، ثم انتبهتُ لصوت الخادمة العجوز وهي تودع الهانم قائلة:

- خلي بالك من نفسك يا حبيبتي، ترجعي بألف سلامة.

ثم احتضنتها كأنها ابنتها، وودعتها بإشارة من يدها.

كنتُ أظن أن زوجة "أبو المحاسن" كبيرة في السن، لكني وجدتُ شابة صغيرة في السن، تتهادى في مشيتها كالملاك، ترتدي فستانا أسود اللون وتضع على رأسها قبعة سوداء كبيرة عليها طوق ذهبي زادها جمالًا على جمال

جسمها الممشوق، ومشيتها التي تشبه في رقتها غزالًا سارحًا في الفلا، لم أحدد ملامح وجهها بسبب ما تضعه فوق رأسها، لكنها لا تتعدى الخامسة والعشرين من العمر.

اقتربتْ من السيارة، ولم تلتفت إلي، فأسرعتُ متجهًا إلى الباب الخلفي وفتحته، دون أن أنطق بكلمة واحدة كما أبلغني "محجوب" وعدتُ إلى مكان القيادة، وبدأت السيارة في التحرك متجهة خارج أسوار القصر العالية...

وفي الطريق لمحتها من خلال مرآة السيارة، تخلع القبعة من فوق رأسها، فأرجعتُ البصر كرتين في المرآة، حتى أرى وجه هذا الملاك الجميل التي وافقت على الزواج من رجل يكبرها بأكثر من ثلاثين عاما، وأقنعتُ نفسي بأنها وافقت من أجل المال، وعندما رفعت رأسها لأعلى، وصار بإمكاني رؤيتها بوضوح، ولما تلاقت عيني بعينيها، صُعقت مما رأيته.

توقف الزمن لحظات وعاد للوراء، ومر أمامي كأني أشاهد فيلمًا يروي قصة حياتي، توقف الزمن عندما التقطت خلايا عقلي رسالة غريبة، فانقطع الإرسال فجأة، ولم يعد عقلي يلتقط سوى نبضات قلبي التي أخذت تتسارع بقوة، وانحبست أنفاسي وهي تدقق النظر في الملامح الماثلة أمامي في المرآة، تلك الملامح المنقوشة في ذاكرتي، بل محفورة في عقلي وقلبي، تزورني دائما في أحلام اليقظة والمنام، مضت بضع ثوان وأنا في غياهب الخيال ودوامة الواقع.

بعد لحظات تملكتني رغبة قوية في التأكد من حقيقة ما رأيته، حتى أزهق الخيال وأظهر الواقع، فأوقفت السيارة واستدرت بكل جسمي ورفعت رأسي ببطء في اتجاهها، فالتقيت بعينيها تحدقان في، فخفضتُ عيني بسرعة وقد سارت في أوصالي رعشة، نتيجة تصارع مشاعري التي تملكتني شيئا

فشيئا، وبعدها شلّت المفاجأة تفكيري، فحبس الصمت الكلام بداخلي فلم أنبس بكلمة.

إنها هي... نعم إنها هي... هي "هبة" حبيبتي السابقة، عرفتها بالرغم من المساحيق الكثيرة التي تضعها على وجهها وما ترتديه من ملابس.

انتبهتْ، ونظرتْ لي فعرفتني، وفي لحظات عادت برأسها للوراء كأنها تعود بذاكرتها إلى حيث حبنا وعشقنا...

حيث البراءة والعهود التي كانت بيننا...

نظرتْ إلي ونظرتُ إليها، ولم ننطق بكلمة واحدة.. كانت العيون وحدها تتناجى وتسر بما يدور في القلوب العاشقة..

استلمت العيون دفة القيادة فاستمرت النظرات بيننا.

كنا نتحدث بلغة لا يفهمها إلا كل محب عاشق.

لغة لا تحتاج لمفردات لا تحتاج لكلمات، فقط كانت النظرات.

كل منا يبث للآخر أوجاع الفراق وآلام البعاد.

ثم أفقتُ من غفوتي التائهة في عينيها، عندما تذكرتُ من يكون زوجها صاحب القوة والنفوذ والبطش، أما أنا فمجرد سائق من ضمن آلاف السائقين الذين يعملون عنده.

فهربتُ بوجهي لأتحاشى نظراتها، وأعدتُ تشغيل محرك السيارة وسرتُ مكملًا الطريق، ولم أنطق وهي أيضا ما زالت حبيسة ذهولها من تلك الصدفة العجيبة، ما زالنا سويا في نشوة اللقاء ولعبة القدر بنا، أسئلة كثيرة تدور في خاطر كل منا...

ها هو نفس الطريق الذي كنت أنتظرها عليها كثيرًا، عند عودتها من المدرسة، حتى أسعد برؤيتها وأشاركها إحساس الحب البريء الذي ولد بيننا، وتلك أحلامنا معًا، وهذة الشجرة الكبيرة التي سكنت أور اقها حياءً عند

رؤيتها لي و أنا أطبع أول قبلة على شفتي حبيبتي، كل مكان في الطريق المؤدي لبيتها يشهد على حبنا وتعاهدنا بعدم الفراق.

أخرجت الورقة التي أخذتها من " محجوب " وألقيتُ بها من نافذة السيارة، فمثلي لا يحتاج لمعرفة العنوان من ورقة وهو محفور بداخلي، تحمل نسماته الرقيقة الذكريات والحب.

اقتربتُ بالسيارة حتى أصبحتُ على بعد خطوات من منزلها، وأوقفت السيارة، حتى لا يراني أحد من أهلها فهم يعرفوني جيدًا، فهمت مقصدي، فنزلت من السيارة وفتحت لها الباب الخلفي لتنزل وعندما همت بالخروج تلاقت العيون، فظلت تنظر لي و أنظر لها وعلي شفتينا رسمت رعشة، والكلام يريد أن يخرج لكننا لا نستطيع.

لفحني عطرها واستقر في صدري، كأنه رسول الغرام بيننا، فترجم عقلي الرسالة التي ابتسم لها قلبي، مدت يدها لتمسك بيدي و أنا أخرج لها الشنطة من المقعد الخلفي، فتوقفتُ مكاني وغمرني الحنين إليها، وكدت أنطق وتنطق، كادت الأحضان تتعانق في غمرة الشوق، لكن حدثت المفاجأة...

****

يبدو أن أمها سمعت صوت السيارة عندما اقتربنا من المنزل، فعندما لمحتنا ننزل من السيارة، رفعت صوتها بالنداء، فكان صوتها جرس الإنذار الذي أخرجني من غفوة أحلامي.

وها أنا أقف بعيدًا بجسدي، أُنفس ما داخلي عبر دخان سيجارة كقطار سكة حديد قديم، أقف قريبًا بفكري المشغول بتلك الصدفة الغريبة، أخذتُ أنظر للفضاء من حولي و أناجي طيفها:

- عاد طيفك يتر اقص أمام عيني بعد مرور كل تلك السنوات.

وبعدما تعود على الرؤية من غيره، عاد الشوق يجبرني على التفكير فيك بعدما ذبلت أور اقنا من زمن بعيد. انتفض حبك من نومه بعدما ظننتُ أنه مات بداخلي.

عاد قلبي ينبض بحبك بكل ما أوتي من قوة حتى احتواني بركان من المشاعر والأحاسيس تجاهك لست أدري ما حدث لي... فجأة وبدون مقدمات ولا سابق إنذار عاودني الحنين إليك.

نسيت أو تناسيت كل ما حدث بيننا.. وعادت مشاعري المراهقة تتلهف على حبك والتفكير فيك، قام حبك الكامن بداخلي وأزال آثار الكراهية تجاهك وبدأ يستعد لاحتلال مكانته المفضلة التي كان يحظي بها من قبل.

اشتعلت نار اللهفة إليك بعدما كانت خامدة، وفي لحظة لم أنتبه إليها ظهرت مرة أخرى شديدة الحمية لدرجة أنني وقفت مكتوف الأيدي حيال شدتها بل إنني حاولت الهروب منها فلم أستطع.

عجز عقلي عن متابعة تلك الأحداث ولم يجد تفسيرًا لما قلبي فيه من حرج شديد بإحياء ذلك الحب القديم الذي كان بلا شك الحب الأول بل الأوحد الذي ما زال حتى اليوم المحرك الأساسي لمشاعر الحب داخلي، استرجع عقلي شريط الماضي بأفراحه وأحزانه.. استرجعه بما يحتوي من ذكريات حلوه ومآسي محزنة... هذة الذكريات التي نقشت بين حجرات القلب الضعيف الذي غفر وسامح وصفح عن محبوبته الأولى التي خانته وفضلت عليه غيره.. ثم أعادتها الصدفة لكي يراها من جديد.

آآآه.. أيها القدر، مقهور أنا معك بعدما كنت نصيرًا ورمزًا للانطلاق، مقهور أنا معك لأني غير قادر على أن أصرخ بصوت عالٍ مفصحًا عن مشاعري.

مقهور أنا معك لأني صامت حينما أتكلم، صامت حينما أتألم، صامت حينما أبوح، مذبوحٌ حينما لا أبوح.

مقهور أنا كأني كاتب فقد أعز ما يملكه، وهو قدرته على التعبير عن تفاصيل حبه وعشقه وكأنني في مجلس الفيتو الكل فيه يعترض على مشاعري آآآه..آآآه يا أيها القدر. هكذا أنت دائم الإصرار على أن تعطيني ما لا أريد حينما لا أطلبه، ولا تمنحني ما أريد حينما أكون في أشد الاحتياج إليه.

أيها القدر تلعب معي لعبة القدرة على التحمل ترى من فينا "أيها القدر" سوف يصرخ أولًا...

أنت أم أنا؟

لن أصرخ أولا أعدك بذلك.

سوف أستمر صامدًا مبقيا على وعدي وعلي حبي محتفظا به في أعماق قلبي.

لا أدري، ماذا أفعل؟

أفرح أم أحزن، وهي أمام عيني لكنها ملك لغيري...
أصمت أم أتكلم، وهي معي بعد مروركل هذة السنوات...
أفكاركثيرة تراودني، وما زلت غيرمصدق ما حدث...
لكن حدث ما أخرجني من تفكيري وأعادني لحيث أنا الآن...

****

لم يمر إلا ساعة أو أكثر قليلا، ووجدتها آتية نحوي بعد انتهاء زيارتها لعائلتها، جاءت تحمل نسمات الماضي القريب، وتعيد شريط الذكريات بعدما خمدت ناره، لتسكب عليه من عطرها فتزيده اشتعالا. فيعود بقوة و يزلزل أركان مشاعري، ويبث في قلبي لهيبًا مستعرًا لا أقوى على تحمله.

عندما اقتربتْ شعرت بقلبي يدق في صدري بقوة، كعريس يقف في انتظار عروسه لتزف إليه في ليلة كلها سعادة وفرح، لم أجد معها أحدًا من عائلتها، كأنها تخاف أن يراني أحد منهم.

طردتُ شرود الذهن الذي آنس وحدتي و أنا أنتظرها، وفتحت لها باب السيارة، واتخذت مكاني أمام عجلة القيادة، وأدرتُ محرك السيارة، و انطلقنا في طريق العودة إلى الواقع الذي نجاهد للهروب منه.

الصمت ما زال يقود الألسن، ويحتضن اللقاء الذي أتى على غير ترتيب، فكانت الصدفة هي المقرر والمتحكم، ها نحن بمفردنا الآن كما تمنينا دائمًا، لكن الواقع يقف بيننا الآن حائلًا وحارسًا ضد أن يبث أحدنا أشواقه للآخر...

أرادت أن تذيب جبل الجليد بيننا فقالت وصوتها يكاد يسمع:

- إزيك يا "عادل"... أخبارك إيه؟ أنت بتشتغل في الشركة من إمتى؟

أعاد لي صوتها الحنين إلى الماضي، فسرحتُ في رقته وهمسه الملائكي، كما كنتُ أطلق عليه دوما، بل أشبه صوتها بوشوشة العصافير، وبعد برهة نظرتُ لصورتها في قلبي والمنعكسة أمامي في المرآة، وقلت:

- الحمد لله أنا كويس... بشتغل في الشركة من يومين بس، واحد صاحبي حضر حفلة في القصر واتوسط لي عند "محجوب".

فقالت وهي تقترب برأسها من مقعدي:

- أيوه أيوه، ده كانت حفلة عيد ميلاد حفيدة "شكري"، بس صاحبك مين اللي كان في الحفلة؟!

قلتُ ونظري مثبت على صورتها في المرآة:

- صاحبي ده كان بيقدم نمرة المهرج، وكلم " محجوب " وأهو الواسطة نفعت واشتغلت.

قالت وهي تبتسم باندهاش:

- بجد، هو المهرج ده صاحبك، ده دمه خفيف ومضحك بشكل.

شعرتُ أنها تحاول بكل الطرق مدَّ جسور الحديث معي، لكني كنتُ متحفظًا، كأني أرى صورة زوجها تر اقبنا، فحاولت تقليل الكلام خصوصًا أنني ما زلت لم أستوعب تلك الصدفة العجيبة، فكنتُ أرد عليها بإجابات مقتضبة، حتى أنها لاحظت ارتباكي وخوفي و اندهاشي فقالت:

- مالك يا "عادل" أنت مش فرحان أنك شوفتني؟!

أوقفتُ السيارة وقلتُ و أنا أنظر لها كأني أراها لأول مرة:

- إزاي... وليه؟!

بادلتني النظرات، وهي مندهشة، ثم قالت وهي تخلع قفازات يدها:

- يعني إيه إزاي وليه! مش فاهمة؟

فقلتُ بمرارة الفراق كآكل الحنضل في صحراء قاحلة:

- إزاي أنت مرات "شكري أبو المحاسن"، حصل إمتى وإزاي؟!
- عادي، إتجوزته زي أي واحدة بتتجوز.
- يوم فرحك أنا كنت و اقف بعيد، وشوفتك و أنت خارجة في إيد واحد غيره، ولا دي الجوازة التانية ليكي؟!

كان كلامي جارحًا لها ويحمل معنى الإهانة فتغيروجهها وقالت:

- لا، لا، أنت فاهم غلط، "أبو المحاسن" رجل معروف للكل، بعد ما كتبنا الكتاب، بعت حد من طرفه خدني بالعربية وهو كان منتظرني في القصر، فمعظم الناس افتكروا زيك كده، إن الرجل اللي ركبت معه العربية هو جوزي.

استدرتُ بوجهي بعيدًا ونظرتُ أمامي كمن يهرب من ظنه السيئ وقلت بمرارة:

- آه، فهمت، طبعًا "أبو المحاسن" بنفوذه ممكن يعمل أي حاجة، و أبوك و افق عشان العزوالفلوس.

السخرية الواضحة في كلامي، دفعتها للاقتراب أكثر من المقعد الذي أجلس عليه وقالت بصوت يظهر مدى تعبها وحيرتها وقلة حيلتها:

- متظلمنيش يا "عادل" ربنا وحده أعلم باللي أنا فيه، من يوم ما اتجوزت، الكل فاكر أني سعيدة، وأي واحدة تتمنى تكون مكاني، بس أنا عايشة في عذاب، "شكري " كل اهتماماته بشغله وأولاده وأحفاده و أنا آخر حاجة يفكر فيها.

لمحت دمعة تتر اقص في عينيها، و أبت إلا أن تجري لمرساها على خديها، فعقبتْ قائلة:

- أنا مجرد جارية اشتراها بفلوسه، عشان تظهر معاه في حفلات أصدقائه، يتباهى بجمالها ويثبت لنفسه ولهم أنه لسه شباب، ومرغوب حتى من البنات اللي في عمر بنته.

التفتُ لأنظر لها، فاقترب وجهي من وجهها وقلتُ بأسى:

- أنا كمان من يوم ما أنت اتجوزتي و أنا عايش ومش عايش، سبت أمي وإخو اتي في البلد، وهربت لأن كل حاجة هناك بتفكرني بيك، وحياتي مشيت على كده لحد ما اشتغلت في الشركة.

عمري ما تخيلت أنك تكوني مراته، وعمري ما فكرت إننا ممكن نتقابل مرة تانية.

ثم قلتُ و أنا أهرب من ضعفي أمام عينيها التي أعشقها:

- بس بعد اللي حصل النهاردة لازم أسيب الشغل في الشركة، مينفعش أشتغل عند الرجل اللي سرق مني حلم حياتي.

وضعت يدها على كتفي، فاستدرتُ لها، فقالت باكية:

- أرجوك يا "عادل" بلاش تبعد عني تاني، أنا ما صدقت أقابلك مرة تانية، أنت ليه بتفكر في نفسك بس، وبتختار السهل زي ما تخليت عني، كان المفروض تحارب الدنيا كلها عشان أبقى مراتك إنت.

أبعدتُ يديها عن كتفي وقلتُ بحدة:

- دلوقتي بتلومني أنا... أحارب إزاي وأحارب مين؟!، تفتكري إن أبوك كان هيضيع فرصة زي "أبو المحاسن" بثروته ونفوذه.

عادت بظهرها للوراء وأسندته على الكرسي وقالت تترجاني:

- افهمني يا "عادل"، لو سبت الشغل فجأة كده بعد يومين بس وكمان بعد ما كنا سوا، كده ممكن تلفت نظر أي حد، فبلاش تتخلى عني، خليك جنبي سند ليا.

هربتُ من الحوار معها، أدرتُ محرك السيارة، وأدرت جهاز مسجل السيارة على أغنية " أم كلثوم " أنا و أنت ظلمنا الحب"، وقبل أن أنطلق بالسيارة سمعت رنة هاتفها، فخفضتُ من صوت الأغنية وسمعتها تقول بصوت مضطرب:

- أيوه، أنا في الطريق أهو، مش هتأخر، حصل إيه بس يا دادة... بجد، خلاص أنا جايه أهو.

انتهت المكالمة، ولاحظت تغير ملامح وجهها، وقالت لي:

- بسرعة والنبي يا عادل شوية، أنا أتاخرت ولازم أرجع بسرعة.
- حصل إيه، المكالمة فيها إيه؟
- مش عارفة، ربنا يسترها، قبل ما أنسى هات رقمك.

****

وصلنا القصر فنزل "عادل" وفتح لي باب السيارة، تحسبًا أن يرانا أحد، نزلت مسرعة بعدما أخذتُ رقمه، وصعدت درجات السلم، ورغم قلقي من مكالمة الدادة، لكن كان قلبي يدق فرحًا من تلك الصدفة غير المتوقعة التي جمعتني مع حب عمري، حتى لم أنتبه للدادة وهي تستقبلني عند الباب وهي تقول:

- اتأخرتي ليه كده، الباشا هنا من بدري وعصبي جدًا.
- اللي حصل بقى يا دادة، هبقى أحكيلك، الباشا فين دلوقت؟

قبل أن تجيب، وجدته خارجًا من مكتبه، وهو ينادي بصوت عالٍ، فأسرعت نحوه، محاولة امتصاص غضبة، لكنه بادرني قائلا:

- حمد الله على السلامة يا ست هانم، كل ده كنت فين، مش قلت لك متتأخريش.

قلتُ بصوت مرتبك، و أنا أحاول السيطرة على اضطرابي:

- متأخرتش ولا حاجة، أمي كانت تعبانة شوية، قلت مش معقولة أسيبها وأمشي على طول كده.
- وأخبار السواق الجديد إيه؟ " محجوب " بيشكر فيه.

تنفستُ الصعداء لأنه لم يلاحظ اضطرابي، و ابتسمت حين تكلم عن " عادل " وكدت أقول:

- قصدك حبيبي " عادل "، لكني انتبهت في اللحظة الأخيرة، وقلتُ و أنا أداري الفرح المنصوب بداخلي:
- ده سواق أخرس وبارد أوي، طول الطريق ساكت منطقش بكلمة، حتى لما طلبت منه يشغل أغاني، هز رأسه وخلاص، وكمان منزلش من العربية هناك، إنتو جابينه منين ده؟!

شعرتُ بنجاح خطتي، عندما قال "أبو المحاسن" وهو يضحك بصوت مرتفع:

- والله برافو عليه إنه عمل كده، وبعدين مش كنت بتشتكي من "لطفي" السواق، وبتقولي عليه رغاي أوي.

عندما شعرتُ باستعداده للحوار والمناقشة، وكعادتي مؤخرًا في محاولة مناطحة القدر، والفوز بأكبر المكاسب لتعويض ما تعرضتُ له من حرمان الإحساس بالحب أو حتى الشعور بالأمومة، لذلك كنتُ أنتهز أي فرصة، أشعر فيها أني أستطيع استخدام الأسلحة الفتاكة للأنثى، فأطلب منه بعض الطلبات، فاقتربت منه ووضعتُ يدي على كتفه وقلتُ بدلال:

- كمان بتضحك، طب أنا مخصماك، ولازم تصالحني بهدية حلوة! ولا أنت بقيت بخيل.

فضحك على طريقة كلامي الطفولية، وقبل أن يفكر في الرد، أضفتُ:

- مش أنت كنت بتفكر تجيب عربية لـ " سارة "، أنا كمان عاوزة عربية زيها.

تعجب من طلبي غير المتوقع، وقال وهو يضرب كفًا بكف:

- أنا أصلا رفضت أجيب عربية لـ " سارة "، كمان أنت تقولي عايزة عربية.

اقتربت منه أكثر ووضعت يدي على كتفه بدلع وقلتُ:

- مليش دعوة أنا عاوزة يبقى لي عربية، مش أنت دايمًا بتطلب مني أبقى زي الهوانم اللي بتحضر حفلات وتروح النوادي.

- العربيات عندنا كتير، ولكل عربية سواق خاص، لما تحبي تروحي مشوارهبعت لك العربية، بس طبعا مش كل يوم.
- لا يا سيدي... أنا مش هفضل تحت رحمة السواقين، الرغاي والبارد والأخرس.

استدار حولي و ابتسم وقال:

- على كده بقى أنت بتعرفي تسوقي؟!

فقلت و أنا ابتسم بدلع ودلال:

- ما أنت يا حبيبي هتعلمني السواقة.

قال وهو يمسك بيدي ويضحك بصوت مرتفع:

- أهو ده اللي ناقص، أسيب أشغالي وأعمالي وأعلمك، لا، لا، الأحسن أجيب لك السواق الأخرس يعلمك.

نظرتُ إليه نظرة أسد تمكن من فريسته بعد جهد وتعب، لكنه يحاول إخفاء ذلك، وعدتُ من زهو الانتصار، حين قال:

- يلا اطلعي غيري هدومك عشان أنا أمرتهم يجهزوا العشا.

فتركته فدخل غرفة المكتب، وصعدتُ أنا لغرفتي، ووقفت أمام المرآة أحدث نفسي، و أفكر فيما حدث، ومع أني كنت سعيدة لأني وصلتُ لهدفي، بهذا التخطيط لكي أحظى بالقرب من حبيبي لأطول وقت ممكن، فوجدت صورتي في المرآة تحتقرني وتقول لي:

- كيف وصلت لتلك الحالة، كيف أصبحت بوجهين، أصبحت ممثلة بارعة في الخداع، بعدما كنت وردة رقيقة.
- فعلا كنتُ وردة، لكنها ذبلت بين أسوارهذا القصر المقيت.
- هل تظنين أنك ستنجحين، ويعود إليك حبيبك؟!

- هنجح وأعيش مع حبيبي ونرجع أيامنا الحلوة مع بعض.

تغير وجه المرآة وقالت:

- أنت عارفة لو جوزك شم خبر هيعمل إيه؟!
- جوزي! هو اللي هيطلب من حبيبي يعلمني السو اقة.
- إزاي هتعيشي حياتك كلها، و أنت عايشة بوشين.
- أنا اتظلمت ولازم أخد حقي.

ظهر العبوس على وجه المرآة، فاستدرت بوجهي عنها، لأعلن رفضي لكل ما قالته، فلن أسمح للضمير أن يقيم لي محاكمة، فكما باعني أهلي لمن لا يستحق، سأحصل أنا على ما أستحق، لن أدع الظروف تنتصر هذه المرة، وها أنا قمتُ بإلقاء أول حجر لأحرك المياة الراكدة، فأصبح من السهل أن يأتي حبيبي ليعلمني قيادة السيارة و أنعم بالقرب منه.

سمعت طرقًا على باب غرفتي، فانتبهتُ من معركتي مع صورتي في المرآة، وأذنت للطارق بالدخول، فكانت الدادة، أقرب إنسان لي في هذا السجن، دائما تحنو علي وأحكي لها كل شيء وأستمع لنصيحتها دوما. كانت تستدعيني لتناول العشاء مع زوجي فقلت لها هامسة:

- عاوزاكي بعد العشا في موضوع مهم جداا.

****

عدتُ بالسيارة إلى الشركة، بعدما قمت بتوصيل حبيبتي إلى القصر، ولا يشغل بالي طول الطريق إلا تلك الصدفة التي جعلتني شارد الذهن فيما حدث، فكيف أقابل حبي القديم مرة أخرى و أتذكر يوم تقابلنا لآخر مرة عند الشجرة، المكان المعتاد لنا وعلمتُ بمو افقة أهلها على زواجها من غيري.

ضحكة ألم وغصة قلب و أنين جوارح وشرود عقل.. حياة أقرب إلى النهاية، وصوت أقرب إلى الصراخ وهدوء يكاد أن يقتلنا، قلب يتمزق وعقل يتملق وذهن شارد وعيون جاحظة وأذن تسمع ولا تعي وجسم يذوب ويتمني لو أن الأرض ابتلعته، قلب يدق ويد ترتجف وشفاه ترتعش ودموع تتساقط على مصير أُجل كثيرًا رغم أنه كان حكم القدر من البداية.

عجز وحيرة وألم.. دهشة وصبر وأمل.. لكنه أمل الفراق.

حب..همس..شوق...لهفة..ترقب و انتظار.

مفردات جديدة أضافها لنا قاموس الفراق، غيرة وعتاب كانت المفردات الأكثر حظا بيننا، فقد أحببتها كما لم أحب من قبل، عشقتها كما لم أرَ مثلها من قبل، حلمتُ بها ولها، فكرتُ فيها وبها، لم أشعر بالدفء إلا معها، عشقتُ صوتها الهامس ذلك الصوت الذي يأسر كل شيء بداخلي، فصرتُ أدمن كل شيء فيها حتى غيرتها الشديدة وتسلطها أحيانا، صارت هي الحياة بالنسبة لي، أنام على صوتها وأغفو لأحلم بها وأستيقظ على طيفها.

سهد وسهر ولوعة وحب، عرفتُ كل جديد في حبي لها، تقمصتُ كل الأدوار، وحلمتُ بكل الأمصار ونحن معًا.

نعم أحببتها رغم علمي باستحالة اللقاء، فكان الفراق هو الوليد المنتظر الذي حتمًا سيتمخض عنه رحم النصيب، ولد الحب بيننا وكتب عليه الفراق من أول يوم عرفتها فيه.. حب غريب لم أسمع عنه ولم أقرأ عنه حتى في أساطير الغرام، فحبنا استحال فيه القرب فكان الفراق هو الموت، بيننا خط فاصل يمنع الفراق ويمنع الوصال.

مثلما كان الحب حلمًا جميلًا، صار الفراق أملًا نفكر فيه نرجو منه البعد، ونخشى قرب موعده المحتوم، قلبان ينتظران الحكم بالإعدام، قدر محتوم لا مهرب ولا مفر منه وكل مقدماته ما هي إلا محاولة للهروب من حكم النصيب والقدر. حياة بأمل الفراق ما أصعبها وما أقساها على النفس، لوعة الفراق المنتظر أصبح الذهن شاردًا، والفكر واردًا، والنصيب يستعد لاحتلال مكانه وفرض كلمته ولو بالقوة.

صوت كالنحيب ودموع كقطرة دماء تتساقط من قلب صريع مسجي يرتدي ثوبه الأحمر انتظارًا لتنفيذ حكم الفراق.

أصبح الفراق أملًا رغم أننا نتمنى ألا نفترق.

خرجت من عباءة أفكاري عندما وصلتُ مقر الشركة وسلمتُ السيارة بعد إتمام مهمتي، وخطر ببالي أن أروي كل ما حدث على شخص أثق في رأيه، فلم أجد إلا " حسن "، اتصلتُ به و اتفقنا على اللقاء في كافيه على ضفاف النيل، وصلتُ قبله، فجلستُ أبث للنيل أوجاعي وذكرياتي و أنا أرى صورة حبيبتي على صفحاته تبتسم لي، وصل " حسن " وبادرني ببعض الفكاهة عندما لمح حيرتي، ثم قال: مالك يا عم، و إيه الموضوع المهم اللي بسببه جبتني على ملا وشي؟

- كل ده بسبب الشغلانة المهببة اللي حضرتك جبتها لي.

- ما لها بقي، مش عجباك، ولا حد ضايقك؟

- لا يا فالح، بس قابلت آخر حد كنت أتوقع أقابله.

- حد مين، ولا أقولك استنى نطلب قهوة وبعدين تحكي لي.

استدعي "حسن " الجرسون وطلب لنا فنجانين من القهوة، فأشعلت سيجارة، وبعدها بدأت أحكي له كل ما حدث، وهو يتابع عن كثب ولم ينطق إلا عندما انتهيت من رو اية قصتي كلها.

- ما ترد يا عم، ما لك ساكت ليه؟! دبّرني يا وزير.

وضع "حسن" الفنجان من يده ونظر لي وقال:

- هي فعلا صدفة غريبة، وحاجة تحير.

قلتُ بانفعال و أنا أشير له بيدي:

- في إيه يا "حسن" مالك، هو أنا بسأل عن رأيك في الصدفة!

قال "حسن" وهو يضحك ويحاول تهدئتي:

- أولًا أنا ضد فكرة إنك تسيب الشغل، خصوصًا بعد اللي حصل، وكلام "هبة" صح.

- قصدك إيه مش فاهم، بقول لك ممكن حد يعرف إن بيننا حاجة.

- بص يا "عادل" البعد مش بعد مسافات، ابعدها عن تفكيرك حاول تهرب لو طُلب منك توصلها مكان. واصبر لحد ما تلاقي شغل في مكان تاني، ولا التاكسي وحشك؟

قلتُ و أنا أضرب كفا بكف:

- شكرًا على الإضافة، قوم..قوم يا عم الفيلسوف نروح القهوة.

تعلق " حسن " بذراعي عندما هممت بالوقوف، وقال وهو يضحك:

- اصبر بس يا عم استنى، أنا هريحك.

- بجد يا " حسن " أنت مستفز، أقول لك ممكن حد يلاحظ حاجة تقولي البعد مش مسافات ومش عارف إيه.

- يا " عادل " افهم، أنا معاك في كل كلامك، بس أنا بقولك اصبر، لو سبت الشغل فجأة، كده بتفتح مجال للشك.

- أيوة يعني المفروض أعمل إيه؟، ده أنا في لحظة ضعف قلت لها على رقمي ومتأكد إنها هتحاول تكلمني.

ضحك " حسن " بصوت مرتفع حتى أنه لفت نظر الموجودين، وعندما نهرته سكت، وقال و هو ينظر لي:

- بتقول خايف وعايز أسيب الشغل وحضرتك عرفتها رقمك، طب ما حتى لو سبت الشغل هي برضو هتكلمك.

- هغير الرقم، هولع فيه، أنا ما صدقت أنساها، رجعت لي تاني وهتلخبط كل حياتي.

- طب قوم نروح للجماعة على القهوة وفي الطريق هقول لك تعمل إيه.

****

في الصباح دخلت على "أبو المحاسن" مكتبه، وقمت بتركيب الابتسامة على وجهي، وكان يجلس على مكتبه يوقع بعض الأوراق فبادرته قائلا:

- صباح الخير يا باشا، كله تمام، العمل في الإنشاءات مستمر ومفيش أي مشاكل، وكل الناس هتستلم في المواعيد المحددة، معانا دلوقتي كل أوراق ملكيتنا للأرض و إننا أخدناها بالطرق القانونية، ومحدش يقدر يفتح بقه.

وقف "أبو المحاسن" من على كرسيه وظهرت الفرحة على ملامحه ثم عقب قائلا:

- برافو يا "محجوب"... المشكلة دي كانت قلقاني أوي، خصوصا الكلام كتير في الإعلام الأيام دي عن رجال الأعمال وأراضي الدولة.
- متقلقش يا باشا، سيبك من كلام الإعلام وشوية العيال بتوع الفيس بوك، إحنا تمام التمام، ده حتى القصر تم وضعه تحت الحراسة شكلا بس، لكن هو في حراسة الدولة، زي ما قلتُ لسعادتك قبل كده، الوضع تحت السيطرة يا باشا.
- ابقى افتكر يا "محجوب" تبلغ رئيس القناة يركز شوية على مشروعات الشركة اللي بنعملها للشعب، والأعمال الخيرية، فاهمني طبعا.

فقلت و أنا أنظر له نظرة ماكرة:

- طبعًا طبعًا فاهم... القناة عندنا بتعرض كل الأعمال دي وخصوصًا التبرعات والحاجات اللي بنوزعها على الفقرا.

ضحك " أبو المحاسن " و اقترب ووضع يده على كتفي وربّتَ عليه وقال:

- طول عمرك شاطر يا "محجوب" وبتفهم المطلوب منك.

فقلتُ و أنا أحني رأسي بتواضع مصطنع:

- تلميذك يا باشا، وكلام سعادتك أوامر لازم تنفذ.

عاد " أبو المحاسن " لمقعده خلف المكتب، ثم نظر لي كأنه تذكر شيئا وقال:

- أخبار البودرة إيه يا " محجوب " هتوصل المينا إمتى؟

سؤاله المفاجيء جعلني أضطرب وقلتُ محاولا إخفاء ارتباكي:

- قريب أوي يا باشا، سعادتك متقلقش، أنا هروح استلم الشحنة بنفسي واطمن إن كله تمام.
- أيوه فاهم، بس إزاي مفيش وقت محدد لوصولها؟!
- فيه طبعا ميعاد يا باشا، وصلنا فاكس إن الشحنة هتوصل المينا أول الشهر الجاي، بس أنا محبتش أشغل سعادتك بالأمور دي.
- تمام، لازم تتطمن على كل حاجة، زي ما أنت عارف أنا هكون في الوفد اللي هيسافر أوروبا مع الريس.
- تروح وترجع بالسلامة يا باشا، اطمن.

هز رأسه متفقا مع كلامي ثم قال وهو يشير بيده:

- علي فكرة يا "محجوب" الهانم مبسوطة من السواق الجديد، بس بتقول إن عيبه الوحيد إنه أخرس مبيتكلمش.

ثم أكمل كلامه وهو يضحك:

- وطبعا ده المطلوب، إبقى كلفه بأي طلبات تخص القصر.
- الحمد لله يا باشا إن اختياري نال رضا سعادتك.
- وكمان قبل ما أنسى، عاوزك توصي المعرض على عربيتين آخر موديل واحدة لـ "سارة" وواحدة للهانم.

استغربت من قراره المفاجئ، خصوصًا أنه رفض من قبل أن يشتري سيارة لـ " سارة " فماذا حدث؟، فسألته:

- خيريا باشا إيه اللي حصل؟ سعادتك كنت ر افض الموضوع ده.

قام من جلسته و اقترب مني، وقال وهو يشير لي بيده:

- أنت شاطر أوي في شغلك، بس متعرفش تعامل الستات كويس إحنا هنشتري لهم العربيتين، علشان يبطلوا زن، بس برضو مفيش واحدة منهم هتستخدمها خصوصًا الهانم.
- سعادتك خبرة يا باشا، وبنتعلم من سعادتك، حتى "سارة " كانت زعلانة وبتقول: بابا رفض يجيب لي عربية.
- أنا مقدرش أرفض لـ "سارة " طلب، بس هي طلبت في وقت كنت مشغول فيه بموضوع الأراضي و أنت طبعا عارف.
- الله يكون في العون يا باشا، كلنا تحت أمر سعادتك.
- تمام يا " محجوب" مش هوصيك تاني كل حاجة تمشي مظبوط و أنا مسافر.
- حاضر يا باشا، متقلقش، أنا هروح الميناء واطمن على وصول الشحنة، وهوصي المعرض على العربيات، حاجة تانية يا باشا؟
- لا يا " محجوب " كده تمام، روح أنت شوف شغلك.

عندما توجهت نحو الباب، استوقفني، فاستدرت نحوه فقال:

- لما يكون السواق ده معندوش شغل، ابقى ابعته للهانم علشان يعلمها السو اقة، يعني مرة أو مرتين في الأسبوع.
- تماما يا باشا حاضر، أوامر سعادتك.

خرجت و أنا في قمة الدهشة مما قاله، وصار لدي يقين أن لزوجته دخل فيما قاله وهي من عرضت أن يشتري لـ " سارة " سيارة حتى تكون مبررًا

لها في اقتناء سيارة، وضح ذلك عندما طلب أحدًا يعلمها السو اقة، لكن كل هذا لا يهم، المهم أن الباشا لن يكون متواجدًا وقت وصول الشحنة إلى المنيا، بكده أقدر أنفذ كل مخططي وأصل لهدفي، فلن أظل مجرد سمكة صغيرة في بحر الحوت " أبو المحاسن " فقد آن الأوان لهذة السمكة أن تكبر وتحصل على المقابل الذي تستحقه، وأخرجني من تخيلاتي رنة هاتفي، فنظرت للهاتف فكان المتصل من توقعته.

****

أخبرني "حسن" أن حبيبتي كانت تعيش حياتها بدوني لمدة طويلة، لكنها تفتقد للحب والاهتمام، وما أن ظهرتُ في حياتها حتى عاد لها الحنين إلى حبنا القديم، وأخبرني أيضا أن الإهمال وعدم الاهتمام هما أفضل من يجعل هذا الحب يموت، لذلك نصحني بإهمالها وعدم الانصياع لكل رغباتها، وعدم الذهاب كثيرًا للقصر إلا للضرورة.

لكن "هبة" لم تمنحني فرصة الرفض، فكانت تنتهز أي فرصة حتى تستدعيني، وكانت تتحجج بأي طلبات لتروي ظمأها لرؤيتي، فلا يمر يوم حتى يأتيني أمر بالذهاب للقصر، فبدأت تتحدث معي كثيرًا وإن لم أذهب إليها ترن على هاتفي، لتبث لي أشو اقها ومشاعرها نحوي، حاولتُ صدها كثيرًا خوفا من بطش زوجها، لكنها لم تهتم فكانت مثل الفرسة الهائجة التي خرجت من سجنها للفضاء الواسع ترمح فيه دون حساب لأحد.

أرادت أن تعيش الحب معي كما كنا من قبل الفراق، فهي لم ولن تحب غيري، فتبدلت أحوالها وبدت أجمل من قبل، تهتم بشكلها ولبسها خصوصا مع انشغال زوجها الدائم في عمله ومع رؤيتي لها يوميا عندما كنت أذهب لأعلمها قيادة السيارة.

كنت أخذها يوميًّا إلى مدرسة تعلم قيادة السيارات، ثم أمكث معها حوالي ساعة أعلمها، وأعود بها على القصر، وكل هذا تم بتخطيط منها، لم أملك حق الرفض عندما طلب مني ذلك، فزوجها لا يأمن أن يعلمها أحد من مدربي مدرسة القيادة.

نتقابل يوميا لمدة أسبوع كامل، حتى صارت مثل المجنونة لا ترى أمام عينيها غيري وكل ما تفكر فيه عشقها لي، حتى لاحظتُ أن الدادة العجوز تبتسم كلما رأتني معها، فلا شك أنها تشعر بأني السبب في سعادة " هبة"،

كانت الدادة تحبها وتتمني لها الخير، لست متأكدًا من كونها تعرف قصتنا القديمة أم لا.

لا أخفي قلقي من كل ما يحدث، لكن " هبة" لم تدع لي فرصة أن أفكر فقد حاصرتني في كل أوقاتي سواء كنتُ معها أو بالاتصالات الهاتفية.

فعاد قطار الحنين يسرع من قضبان الماضي، وتذكرتُ أيام الحب معها وأصبحتُ مشدودًا إليها، ونسيتُ أو تناسيت أنها زوجة لرجل مهم، وبعد أن كنتُ متحفظًا، بدأتُ أجاريها، فماذا أفعل في حبها الذي طفى مجددًا على السطح، وصار في قمة عنفوانه كالشلال الهادر أو كالإعصار الذي اقتلع الأخضر واليابس، وأخذ بتلابيب عقلي، فلم تعطني الفرصة حتى لأفكر في زوجها.

إن كان أهلها ألقوها في غيابة الجُب، ليشتريها " أبو المحاسن " بثمن بخس مجرد دراهم معدودة، لكنها مع الوقت تحولت لامرأة أخرى، لم تعد تهتم إلا بنفسها وحبها، فلا ترى غيري في الدنيا، وزاد الأمر سوءًا بغياب زوجها.

اشتعل الصراع بين عقلي وقلبي، ففكرت أكثر من مرة في ترك العمل في الشركة، لكن قلبي وقف لي بالمرصاد فأسكت عقلي وحبسه أدراجه، و انجرفت مع تيار الحب العنيف و أنا لا أعرف أين المرسى.

تشبثت بالأمل الأخير، عله ينتشلني من تلك الحيرة التي تتملكني، فأسرعتُ إلى الفيلسوف "حسن" لينقذني مما أنا فيه، قصصتُ له كل ما حدث، فحذرني من مغبة ما أنا فيه، ونصحني بمحاولة الابتعاد، ووصف " هبة " بالمجنونة التي لا تعرف ولا تعي ما تفعله، وقال لي محذرًا:

- تعرف يا "عادل"، أنا مرة قرأت مقولة جميلة أوي بتقول:

(إذا تجاوز الحب حدود العقل تحول لعشق، وإذا تجاوز العشق حدود العقل تحول لهوس، وإذا تجاوز الهوس حدود العقل تحول لجنون، وحبيبتك شكلها وصلت في حبك لحد الجنون، و أنت لازم تسيطر على الجنون ده، لأن كده من السهل إن أي حد يعرف، الصبا تفضحه عيونه يا عم "عادل").

استغربتُ من كلام " حسن " وقلتُ له:

- أنت بتحذرني من الجنون و أنت مجنون رسمي، وبعدين أنا بقول لك تشوف لي حل مش تزود خوفي وقلقي.

ضحك "حسن" رغم سخريتي من كلامه وقال:

- خلاص يا عم ابعد عننا إحنا الاتنين، وبعدين جنون عن جنون يفرق يا صاحبي.

فقلتُ و أنا أبتسم ابتسامة باهتة كألوان الشجر في الخريف:

- المشكلة أني عارف كل ده، لكن أعمل إيه؟، بحبها يا "حسن"، بحبها قوي.

نظر لي "حسن" نظرة تعاطف ثم صاح قائلا:

- كده خطر يا صاحبي، كده هندخل في سكة الحرام، وأظن أن أنت مترضاش إن رجلك تيجي في الوحل.

لسعني " حسن " بكرباج كلامه كمن لسعه عقرب صحراوي وقلت نافيًا:

- أنت بتقول إيه يا جدع أنت، أنا استحالة أفكر في كده.

ضحك "حسن" ونظر لي نظرة ماكرة، وقال وهو يغمز بعينه:

- الشيطان شاطر يا صاحبي، هي جميلة زي ما بتقول، ويمكن عقلك يوزك وتعمل فيها أمير الانتقام وتأخد حقك بالطريقة دي، خصوصًا أن جوزها شاطر بره البيت بس.

رغم كلامه الجارح، لكني على ثقة من خوفه وقلقه، فقلت نافيًا:

- أنا مش بالوضاعة دي، ومش ممكن أفكر في كده، وعشان أثبت لك حسن نيتي، أنا هحاول أبعد على قد ما أقدر.

رغم وعدي لـ " حسن " بالبعد عنها، لكن ما زال قلبي يجاهد لكي لا نفترق مرة أخرى، إضافة إلى أنها أوهمت الجميع بما فيهم زوجها أنني هذا القوي الأمين، لكني قررت وصممت على البعد مهما كانت النتائج.

****

بعدما خرجت من مكتب " أبو المحاسن "، جاءني اتصال كنت أتوقعه من " عبد العزيز بيه " فهو يريد أن يطمئن على الصفقة التي نجهز لها سويا، ولا يدري الباشا عنها شيئا.

- ألو...، أهلا يا " عبد العزيز بيه "، أخبارك إيه؟
- الأخبار كلها عندك أنت يا " محجوب ".

فقلتُ و أنا أضحك:

- كله تمام، الصفقة قربت توصل المينا.
- طب والترتيبات هنا، أخبارها إيه؟
- كله تمام، متقلقش، الباشا نفسه هيكون مسافر، يعني كل حاجة هتمشي زي ما إحنا عايزين.
- و أنا عند كلمتي، الفلوس هتدخل حسابك في البنك مجرد ما البودرة توصل المخازن.
- تمام يا باشا، جهز الرجالة اللي هتستلم و أنا هديك تليفون و أنا في المينا.
- طب ليه منستلمش من مخازن شركتهم هنا في القاهرة.
- مينفعش طبعا، هناك في المينا سهل أخرج الصناديق المطلوبة لوحدها قبله من غير ما تتحمل في عربيات الشركة.
- عندك حق يا " محجوب " كده أحسن، أول ما تبلغني هبعت لك اللي يستلم منك.
- طبعا ياشا، كله تحت السيطرة ولا يهمك، ولا تقلق خالص.
- مقلتش الباشا مسافر فين؟

- الباشا مسافر أوروبا مع وفد رجال الأعمال اللي هيكونوا في استقبال الريس، يعني ممكن السفرية تستمر أسبوع أو عشرة أيام، نكون خصلنا كل حاجة لا من شاف ولا من دري.
- والله برافو عليك يا " محجوب " أنا كنت بسمع عنك كتير، بس مكنتش أتوقع أنك شاطر كده.
- بعض ما عندكم يا " عبد العزيز بيه " وإن شاء الله ميكونش آخر تعامل بينا.
- لا طبعا إزاي تقول كده، دي البداية وفيه صفقات كتير جاية.
- عليك نور يا باشا، أهم حاجة السرية والكتمان، ولا أنت عارف الباشا بتاعنا، كلنا ممكن نروح في حديد.
- عيب يا راجل تقول كده، أنت متعرفش أنت بتكلم مين، أنا مش صغير.
- العفو يا باشا، سعادتك من أكبر رجال الأعمال طبعا، بس الحرص واجب.
- صح يا " محجوب "، هنتظر تليفون منك لما تكون جاهز.
- حاضر يا باشا.
- مع السلامة يا " محجوب "، منتظر ضيوف مهمين.
- اطمن يا باشا، مع ألف سلامة.

****

مر أكثر من عشرة أيام لم نجتمع في المقهى كالعادة بسبب مرض "هشام" و انشغالي في عملي الجديد، وما حمله من عاصفة أربكت حياتي، لكن الليلة كانت الأولى لنا بعد تلك المدة، فقد تحسنت حالة "هشام" وليس لدى أحدنا أي مواعيد.

رحب الجميع بـ"هشام " الذي أضفى عليه المرض بعض الذبول، لكنه ما زال يتمتع بسلاطة اللسان والكلام اللازع، منذ عرفته وهو لم يتغير، فهو متمرد ومستهتر، لا يهتم إلا بنزو اته وشهو اته، ترك عائلته، ونسي كفاح والده حتى يكمل تعليمه، فلم يعد يسأل عنهم إلا نادرًا، بل تحولت علاقته بهم لهجر وقسوة.

وجدتها فرصة للتحدث مع " حسن " الذي سألني عن أخباري وعما وصلتُ إليه مع " هبة " حبيبتي، وهل ما زالت تحاصرني أم لا؟، فقلت و أنا أتنهد بعمق:

- الوضع بقى أسوء يا " حسن "، أنا سمعت في الشركة إن الباشا مسافر أوروبا وهيقعد هناك أكتر من أسبوعين، وطبعا هي هتستغل الفرصة دي، أنا فعلا بحبها، لكن خايف من تصرفاتها المجنونة.
- خلي بالك يا " عادل " خصوصا من " محجوب " شكله مش سهل، أنا مرتحتش لنظر اته ولا لكلامه يوم الحفلة.
- أنت هتقولي، أنا كمان مبرتحش له، تعرف أول ما اشتغلت هناك كان عاوز يشغلني جاسوس على كل اللي في القصر خصوصا " هبة".

اندهش " حسن " وقال بلهفة:

- هو طلب منك كده؟
- لا طبعا، بس حسيت كده من كلامه، لما قال لما ترجع تيجي تبلغني كل اللي حصل، بس أنا طنشته.

ثم تذكرتُ شيئا مهمًا، وعقبتُ قائلا:

- على فكرة يا " حسن " أنا مرة سألت " هبة " عنه، فحذرتني أوي منه وقالت: "محجوب" ده تعبان كبير خلي بالك منه، ولما طلبتُ منها توضح، اكتفت بتكرار التحذير، تقريبا تعرف عنه حاجة ورفضت تقولها.

أسند " حسن " ظهره إلى الكرسي، وقال لي بجدية واضحة:

- بص يا " عادل " أنا لي نظرة في الناس اللي بتعامل معاهم، يا برتاح لهم أو بكرههم من أول مقابلة، " محجوب " بقى من نوعية الناس اللي أول ما تتعامل معاه تكرهه، لأنه منافق وخبيث، المنافق زي الحرامي حبه للمال حاسة في إيده، و إيده على اللي في جيوب الناس، بيتلون زي الحرباية بكل الألوان، ودينه في المنافع أديان، عامل زي الدوا المغشوش راح منه الشفا وفضل فيه السم، المنافق بيحط منفعته بين عينيه، بيوزعها على كل جوارحه، فتظهر في أساليب كلامه وحركته وعاطفته، ليسقيك من طرف لسانه حلاوة، زي السم في العسل.

أعجبني كلام " حسن " فانتهبت بكل حواسي لأستمع له فأردف:

- شوف مثلا نهر النيل بيسوق معاها القاذورات من أول منبعه لحد مصبه، المنافق برضو بيعيش حياته و اتجمعت فيه كل الصفات الوحشة، وعنده الغاية تبرر الوسيلة، فهو خبيث يتلون ويدخل للقوي من أضعف مكان فيه، ويبيع المكروالخداع بتلونه.

ضحكت على طريقة كلام " حسن " كأنه في حصة فلسفة، لكنه لم يهتم و أكمل كلامه قائلا:

- لكل منافق بقى صاحبه الذي ينافق له، وسبحان الله الاتنين مبيفهموش بعض، ممكن بسبب الغشاوة اللي أعمت بصيرتهم، لكل واحد منهم غطا بيداري حقيقته، بس الغطا ده محطوط فوق النار، علشان كده تلاقي المنافق بيخاف من أي حاجة، وعمره ما بيحس بمتعة الحياة حتى لو جمع مال قارون.
- " محجوب " المثال الصارخ للنفاق، يعمل أي حاجة علشان ياخد أي حاجة، ما بيشوفش غير طريق المكاسب ومهما كانت الوسيلة بيعملها علشان يوصل لهدفه، عمره ما بيشبع ولا بيرتوي ولا بتطلع شجرته إلا الشوك اللي بيؤذي غيره، تلاقيه طيب أوي وقت ما يمر به شدة، عنيف وقت استسلام الضحايا، متلون يتصنع الابتسام ويتقن لغة النفاق بمهارة.

أعجبني كلام " حسن " لأنه استفاض في وصف " محجوب " فسألته:

- يخرب عقلك يا " حسن " أنت بتجيب الكلام ده منين؟!

وضع ساقًا فوق ساق وقال وهو يضحك:

- يا ابني ده الفرق بين الإنسان المثقف والناس اللي زيكم، لكن عمومًا ده مش كلامي، ده كلام الأستاذ " الر افعي " لكن مش عيب لما نكرره ونستفيد منه.
- ماشي يا عم المثقف، إحنا ناس غلابة.

ارتسمت على وجهه الجدية، ثم أكمل قائلا:

- خلي بالك يا " عادل " الناس دي مبتهزرش، وحبيبتك دي باين عليها مجنونة، وقتها يا صاحبي أنت اللي هتدبس.
- ربنا يسترها، أنا في عندي خطة، هقولك عليها لما ابتدي في تنفيذها، يا رب كل حاجة تمشي زي ما أنا رسمتها. : - ربنا يسهل.

داخل إحدى ملاهي الدرجة الثانية، بجدرانها العتيقة ور ائحتها النفاذة والدخان الذي يملأ جنبات المكان، فصارت كشبورة الصباح على الطرق الزراعية، وفتيات الليل صاحبات الملابس العارية وأمام البارمان ذلك الرجل الأصلع ذو الكرش الممتلئ واضعًا فوطة على كتفة يسقي الرواد السكارى، وأصوات ورق الكوتشينة والصيحات المتوالية...

جلستُ أنا و"هشام"، الذي أصر على مر افقتي رغم ما مر به في الأيام الماضية، جلسنا نتسامر ونضحك، وكل منا يمسك بالكأس في يده تطرق الحديث بيننا عن " نهى" الفتاة التي تريدها أمي زوجة لي وكيف لم أشعر براحة عندما كنا في زيارتهم بالأمس القريب، فرغم فرحة والدتها وترحيبها، لكن لم يظهر هذا الترحيب على وجه والدها " عبد العزيز بيه "، أظنه يشعر بأننا أقل منهم في المستوى، لكن والدتي يحدوها الأمل بمو افقتهم.

ضحك "هشام" على حديثي، وقال وهو يتناول الكأس في يده:

- جواز إيه يا عم " عصام " مفيش أحسن من الحرية، لا حد يقولك كنت فين و أتاخرت ليه، نفض يا عم.
- أعمل إيه لماما بس، نفسها تجوزني وتشيل عيالي قبل ما تموت.
- يا عم أنت لسه صغير، عيال إيه بس، يا عم روق، بص كده، الدنيا قدامك، الموزة بتضحك والأيام جيالك.

ثم أخرج من جيبه برشامًا، وقذفه في فمه وابتلعه ببعض الخمر وعندما سألته أخبرني أنه مخدر الترامادول حتى لا تعاوده الآلام.

حتي اقتربت فتاة عاملة تحمل طلبات الزبائن، فأمسك "هشام" بيدها، وهو يصيح ويترنح من السكر، وضحك وغمز بعينيه المنتفخة والسواد يزين

أسفلها كملاكم في حلبة النزال، وقال وهو يقلد " حسن الفيلسوف" في استشهاده بالأشعار:

- دعي الأنوثة تجري لمستقرها * فالوردة تذبل إذا جف الرحيق

ضحكنا سويا على المنظر، خصوصًا والفتاة تنظر له بدهشة ولوم، ثم أفلتت يدها منه، فظهر عليه التعب لكنه يقاوم ويعاند لم أشأ أن أسأله وانشغلتُ للحظات بما يدور حولي، وأرجعت البصر إليه كرة أخرى، فوجدته يضع يده على جنبه، ويكاد يتأوه فبادرته قائلا:

- مالك يا "هشام" باين عليك تعبان أوي، مش قلت أنك بقيت كويس.
- أنا كويس يا " عصام " متقلقش، دلوقتي البرشام يشتغل والوجع يروح.
- برشام إيه يا عم، مش شايف شكلك عامل إزاي، قوم بينا نروح.
- يا عم اقعد، بقول لك دلوقت الوجع يروح، خلينا نتمتع بسهرتنا.

لكنه مع الوقت لم يستطع تحمل الألم، فخارت قواه، وصرخ فجأة وكاد يسقط لولا أن لحقتُ به، وتجمع حوله العديد من رواد المكان على شدة صراخه، فقد عاودته الآلالم مرة أخرى، وتكرر ما حدث في المرة السابقة، لكن واضح أن الوجع كان أشد، فأخذته بسيارتي للمستشفى، واتصلتُ بأصدقائه الذين هرعوا إليه.

وقفنا جميعا في الطرقة أمام غرفة الكشف التي يتواجد بها "هشام" بصحبة الطبيب المعالج، وكلنا قلق على حالته، " عادل " يتحدث مع " حسن "، و"خالد" يستمع مني لما حدث لصديقه "هشام".

خرج الطبيب من غرفة الكشف، أسرعنا لنطمئن منه على الحالة، فأخبرنا أن "هشام" تحسن قليلا، لكن يجب أن ننتظر التشخيص النهائي بعد

ظهور نتيجة الإشاعات والتحاليل، استأذن الطبيب بعدما سمح لنا بالدخول لرؤية "هشام" والاطمئنان عليه، فدخلنا مسرعين، فوجدنا "هشام" يبتسم لنا رغم شحوبه الواضح وتعبه البين، تحقلنا حوله لنخفف عنه الألم، وبعد فترة غشيه النوم، فتركناه وخرجنا لطرقة المستشفى، وذهب "خالد" ليستعجل نتيجة الفحوصات والتحاليل.

فجأة رن هاتف " عادل " أكثر من مرة لكنه لم يجب، عندما زادت الرنات، سار إلى أخر الطرقة ليرى من الذي يلح في طلبه، بينما جلست أنا و" حسن " في الطرقة نتحدث.

جاء "خالد" مسرعًا وهو يصرخ فزعًا ويناديي:

- يا "عاااااااادل".

وقفنا كلنا مفزوعين من منظر "خالد"، وجاء " عادل " يجري نحونا ولا ندري ما السبب.

****

نزل خبر وفاة والدي على رأسي كالصاعقة، فزوجي مسافر ولم أجد أحدًا بجواري غير حبيبي "عادل"، فاتصلت به، لكنه لم يرد، فذهبتُ مرغمة مع سائق آخر.

وسط مدافن الفقراء، وقفتُ لأواري جسد والدي التراب، ورغم ما أنا فيه انشغل عقلي بما يفعله حبيبي، لماذا يتخلى عني، لماذا يبعد بعدما جمعتنا الصدفة مرة أخرى؟

داخل بيتنا القديم، جلستُ أتلقى العزاء من نساء القرية، والكل ينظر لي ويتهامسون ويتعجبون من طريقة لبسي، فقد تربيت بينهم ويعرفوني جيدا، لكنهم يجهلون زوجي، بل يحقد الكثيرات منهم علي ما أصبحت فيه.

كانت أمي تجلس بجواري متشحة بالسواد، باكية العين، لا حول لها ولا قوة، وإخوتي الصغار بالقرب فتحوا أنهر الدموع لتنساب من محاجر العيون.

مر يوم العزاء فاستأذنت من أمي المكلومة، اتجهتُ عائدة للقصر، بالسيارة التي كانت تنتظرني بالخارج، ولم يشغل بالي طول الطريق سوى وفاة أبي الذي باعني لهذا الرجل العجوز وها هو يتركني بمفردي، فلا أنا ارتحت ولا هو تنعم بالصفقة.

كنت في أشد الحاجة لوجود حبيبي بجواري في تلك المحنة، فانقطعتُ عن الو اقع وحلقتُ في الخيال مع طيف حبيبي الذي أراه يصاحبني كلما أرى الفضاء حولي عندما أنظر من نافذة السيارة المسرعة فكنتُ أناجيه بلسان قلبي و أقول:

- في غيابك يظل القلب رابضا أمام بيته في انتظار عودتك رافضا كل محاولات إرغامه للسكون مكانه، في غيابك يظل القلب جاحظ العين مترقبا عودتك، رث المنظر، كسير الحال ذليل الجانب،

شاحب الجسد، مناجيًا طيفك حين يلوح في الأفق، هلم حبيبي فقد فعل بي غيابك الكثير، ارحم حالي وعد إلي، حبك..حبك يا له من حب، نبتت جذوره بداخلي ليقتلع هويتي وشخصيتي، وتركني عاشقة ضعيفة، يلهو بها الحب فلا تقدر العيش بدونك، حبيبي لا تغب أكثر فقد مللت الحياة بدونك، وزهدت العيش واشتقت للسكون في مكاني بين الضلوع، كيف أنسى من حول حياتي من قفر لمعنى وحياة، يكفي غياب يكفي ألم يكفي ندم وحنين، ففي وجودك للحياة معني وطعم وحب، سأنتظرك مهما طال الغياب لأني أحبك.

خرجت من مناجاتي، عندما وصلنا القصر، نزلت من السيارة، و أنا كلي شوق ولهفي لأرتمي في أحضان حبيبي و أبكي أبي و أنعي حظي، قبل أن أدخل القصر أو يراني أحد، وقفت في مكان بعيد عن العيون و اتصلت به لأعرف سبب بعده عني، أخذت ألح في الاتصال به حتى رد علي، وأول ما سمعت صوته لم أتمالك نفسي وانهمرت الدموع من عيني، وقلتُ له:

- وحشتني يا روح قلبي، أنت فين وليه؟

لم أكمل سؤالي، فقد قاطعني قائلا:

- معلش، في مشكلة كده هبقي أقولك عليها.

فقلت له بعدما شعرتُ بأنه يريد أن ينهي الكلام معي:

- " عادل " أنا نفسيتي وحشة أوي، هطلب من جوزي أسافر الساحل كام يوم، بس إنت اللي تكون معايا، محتاجة لك أوي.

لم أكد أنتهي من كلامي، حتى قال بحدة وهو يرفع صوته بانفعال:

- يعني إيه محتجالي، اهدي شوية مينفعش كده، ممكن حد يأخد باله.

انهمرت دموعي، وازددت عنادًا وصرخت فيه:

- أنا خلاص مش فارقة معايا أي حاجة، المهم تكون جنبي.

فقال بصوت منخفض وحاول تهدئتي:

- يا "هبة"، حرام عليكي، ارحميني، الشركة مليانة سو اقين بلاش أنا كل مرة.

فقلتُ بعناد قَطًا ذبحتْ على حين غرة:

- أنت اللي هتسافر معايا، وغصب عنك وهتشوف.
- ده أنت اتجننتي رسمي... يخرب عقلك يا مجنونة.
- اسكت بقى، وعلى فكرة أنا مخصماك... مفيش ولا كلمة حلوة منك، حتى معزتنيش في وفاة أبويا.

قبل أن يرد، شعرت بحركة أقدام تأتي من خلفي، فأنهيت المكالمة و أنا أقول:

- سلام دلوقت، سلام، هكلمك بعدين.

والتفت فزعًا وقد صدرت رغمًا عني شهقة مكتومة، واستدرت لأجد شخصًا لا أتوقعه.

****

لم أرَ النوم فمنذ الأمس ونحن بجوار "هشام" بالمستشفى، وها أنا أجلس على كرسي في الطرقة أمام الغرفة التي يرقد بها "هشام"، لا أجد عندي المقدرة أن أراه في تلك الحالة، خصوصًا بعدما أظهرت الفحوصات والتحاليل أنه يعاني من حالة فشل كلوي نهائي ومزمن، والحل الوحيد هو عملية زرع كلية، في أسرع وقت لأن حالته حرجة، وإلا ستظل الآلام تعاوده كل فترة وتقضي عليه.

عقدتُ يدي فوق صدري وأسندتُ رأسي على الحائط، ومددتُ قدمي عسى أن تغفو عيني بضعة دقائق، لكن هيهات وتلك المشاكل تحاصرني، فأنا أعتبر نفسي مسئولا عن "هشام" و"خالد" منذ أن تقاسمنا الشقة، سنوات ولم نفترق، سنوات و أنا أتحمل تصرفات "هشام" الطائشة، كيف أتخلى عنه الآن وهو في هذه الحالة، هل جعلت الصداقة إلا لتلك الظروف؟، حذرته كثيرًا من تصرفاته ولهوه، لكن ما العمل الآن؟

من أين لنا بتكاليف تلك العملية، ونحن نعيش يومًا بيوم؟، ثم ابتسمت بمرارة عندما تذكرتُ مكالمة تلك المجنونة وما تنوي عليه، في الصباح تهربت من الذهاب إليها، وها هي تلح في اتصالاتها وفوجئت بأنها تريد أن أسافر معها إلى الساحل، يا لها من مجنونة حقًا، كيف أترك صديقي وأسافر معها؟

كاد التفكير يقضي علي ولم يخرجني منه إلا قدوم " حسن " الذي سهر معنا لقرب الفجر وها هو يعود الآن والساعة تقترب من العاشرة مساء، وما أنا اقترب مني حتى انهال بالأسئلة ليطمن على حالة "هشام"، فتأثر بما عرفه، وطلب مني الدخول لرؤية "هشام" وعندما أخبرته بعدم قدرتي على رؤيته في تلك الحالة، جذبني بالقوة ودخلنا الغرفة.

كان "هشام" يرقد على السرير الصغير، وفي يده أنبوب المحاليل، وعيناه غائرة ووجهه شاحب، وبجواره "خالد" منهمك في القراءة، فالكتب لا تفارقه أينما ذهب، وقف عندما دخلنا، بينما اكتفى "هشام" بابتسامة باهتة كأوراق الخريف، بادره " حسن " بالسؤال عن صحته، فهز رأسه وتمتم بشفتيه قائلا: الحمد لله.

اقتربت منه وجلست بجواره، و أنا أحاول التخفيف عنه، فسألني عن جلوسي بالخارج لمدة طويلة، فأخبرته أنني كنتُ أنهي بعض المعلقات الخاصة بشغلي.

نصحنا الطبيب بإخفاء حقيقة مرضه، حتى يستعيد عافيته، فأخبرناه أن مرضه مجرد مغصٍ كلوي عادي وسيشفى منه بعد أيام قليلة، جلسنا نتحدث معه، حتى دخل علينا " عصام " وهو يحمل في يده لفة فسلم علينا، واطمأن على "هشام" وقال:

- أنا قلت: أكيد مأكلتوش من إمبارح فجبت لكم أكل.
- والله فيك الخير يا "عصام".

تناولت بعض الطعام سريعًا، ثم غمزت لـ " حسن " أن يتبعني للخارج بحجة أني أحتاج لتدخين سيجارة، فهم " حسن " أني أريده في أمر ما فلحق بي و تركنا " عصام " و"خالد "بجوار"هشام".

عدت لجلستي على كرسي في الطرقة وبجواري " حسن " الذي قال:

- خير يا " عادل " أنت شكلك مهموم قوي، إن شاء الله تتدبر.

ربتُّ على كتفه وقلتُ:

- يسمع من بوقك ربنا، والله يا " حسن " أنا في مشكلة كبيرة غير مشكلة "هشام" ومش عارف أعمل إيه!
- خير يا عم ما تتكلم.

- " هبة " كلمتني من شوية، وكانت بتعيط بحرقة، أبوها مات النهارده الصبح، وكان عندها أمل أروح معاها، بس أنا كنت مستأذن من الشغل علشان موضوع "هشام".
- البقاء والدوام الله، فين المشكلة، ما خلاص اللي حصل حصل.
- المشكلة إنها عايزة تروح تغير جو في الساحل لأن نفسيتها تعبانة، وطبعا بتلح إني أروح معاها، وطبعا هتطلبني ومش هقدر اتحجج.
- وما له يا عم روح، ولو على حالة "هشام" أنا شايفه بدأ بيتحسن والعملية قدامها وقت، تكون رجعت بالسلامة أحسن ما حد يلاحظ حاجة وتتفصل من الشغل.
- تصدق أنت فعلا مجنون، إزاي يا بني آدم أسيب صاحبي وأورح أتفسح.
- فسحة إيه يا عم، ده شغلك، قوم بس ندخل لـ "هشام" وسيبها على الله.

****

عدتُ من السفر بعد إتمام الصفقة، واستلم رجال " عبد العزيز بيه " ما يخصهم، كانت سعادتي لا توصف، فالمرة الأولى أعقد صفقة مهمة ويكون المكسب كله لي، دون تدخل " أبو المحاسن" وصلت القصر لأطمئن على زوجتي وابنتي، دخلت من البوابة، فلمحت زوجة " أبو المحاسن" تقف بمفردها، لكم أحسد الباشا عليها، فهي حقًا آية في الجمال والرقة، عكس زوجتي العدوانية، اقتربت منها، فلم تشعر بي لأنها كانت مشغولة، تتحدث في الهاتف، وكانت ترتدي فستانًا أسود زادها جمالًا على جمالها.

اقتربتُ أكثر وأحدثتُ صوتًا، فالتفت منزعجة، وهي تحاول إخفاء الهاتف في يدها حتى لا ألاحظ أنها كانت تتحدث، فابتسمت لها وقلتُ:

- مساء الخيريا هانم، أخبارك إيه؟
- الحمد لله تمام.

لاحظتُ أن وجهها شاحب، وعيونها باكية، فسألتها بجدية:

- خيريا هانم، حصل حاجة؟
- أبويا مات النهارده ولسه راجعة من الدفنة.
- البقاء لله يا هانم، آسف، أنا لسه راجع من السفرومعرفش.
- أيوه عارفة، كمان الباشا مش موجود.

استمر الحديث بيننا حتى لمحت زوجتي " سارة " آتية نحونا، فحاولت إنهاء الحوار بسرعة، فقلت لها:

- تمام يا هانم، أنا هعمل اللي اتفقنا عليه.
- تمام يا " محجوب " اتفقنا.

تركتني واتجهتْ إلى داخل القصر، فتقابلتْ مع زوجتي، لكنها لم تحدثها، وأسرعت للداخل،

ابتسمتُ لزوجتي، وقلت:

- أهلا " سارة "، أخبارك إيه يا حبيبتي، فين " عزة "؟
- كنت بتتكلم معاها في إيه يا " محجوب "؟!، وإيه الاتفاق اللي بينكم؟
- هي مين دي؟ و اتفاق إيه؟
- " محجوب " أنت بتستهبل، الهانم اللي داخلة دلوقتي؟
- آآآه، حرام عليكي ده أنا كنت بعزيها في أبوها، وبسألها لو محتاجة حاجة، ما أنت عارفة الباشا موصيني.
- بجد والله، فيك الخيريا " محجوب "، بتعرف الواجب كويس.
- في إيه يا " سارة "، أنت متحاملة عليها ليه؟، بدل ما تروحي تخدي بخاطرها، بتقولي عليها كده.
- أيوه، أنا بكرهها، وعمري ما هرتاح لها، ومش عايزة أشوفك تاني و اقف بتتكلم معاها.
- حاضريا حبيبتي، قوللي بقى فين " عزة " وحشتني، أنا جبت لها لعب كتيرو أنا راجع.

تركتني ودخلت، وبينما أخذت أفكر فيما اتفقت عليه مع " هبة ".

****

مر أربعة أيام و"هشام" يرقد في المستشفى، ونحن نتناوب زيارته والمبيت معه، حتى بدأ يتحسن رويدًا بسبب الأدوية والمحاليل والرعاية بالمستشفى، في انتظار توافر المبلغ المطلوب لإجراء العملية.

جاءني الأمر المتوقع الذي لا مفر منه، السفر إلى الساحل الشمالي بصحبة زوجة الباشا لكن ما أدهشني في الموضوع هو إصرار" محجوب " على اختياري أنا للسفر، مع التشديد بعدم الاعتذار ففهمت أنها رسالة من " هبة " حتى لا أتهرب منها كما فعلتُ معها في المدة السابقة، لم أجد مفرًا من الاستجابة للأمر خصوصا بعدما أقنعني " حسن " بالإضافة لتحسن حالة "هشام".

سيكون السفر عصرًا عندما يخجل وجه الشمس وتتوارى بعيدًا بأشعتها الحارقة، عن صديقتها الأرض.

جهزت السيارة الفارهة، وفي الموعد المحدد اتجهت للقصر، حيث الهانم في انتظاري، وصلتُ القصر فدخلت من بوابته الكبيرة، عبر الطريق الذي تحفه الأشجار من الجانبين، وصلت باب القصر، أوقفت السيارة، نزلت منها وأشعلتُ سيجارة أنفس فيها مرارة الهجر والهجرة واللوعة والفراق، أتت الخادمة "مديحة" تحمل شنطة السفر الخاصة بالهانم، فأسرعت بفتح الصندوق الخلفي للسيارة ووضعنا به الشنطة.

بعد دقائق ظهرت "هبة" تتهادى كالملاك في مشيتها ترتدي قميصًا أسود اللون برسومات على الصدر وبنطلون من الجينز أزرق اللون وتضع على رأسها قبعة تشبة رعاة البقر... وخلفها الدادة "سعاد" تلك العجوز التي تحبها " هبة " كثيرًا وتعتبرها مثل أمها، وتحكي لها كل أسرارها، وذلك لحنانها وطيبتها وعطفها عليها.

أسرعتُ بفتح باب السيارة لزوم الرسميات أمام الجميع، فوجئت بسؤال "هبة" عن سبب عدم حضوري معها مراسم جنازة والدها، فاعتذرتُ معللا ذلك بمرض صديقي المقرب، و انشغالي معه.

فعقبت الدادة بحزن وحنان:

- يا عيني يا ابني، إن شاء الله خير، ربنا يشفيه.

ركبت "هبة" السيارة بعدما فتحتُ لها الباب الخلفي، كنتُ أعتقد أن الدادة ستأتي معنا، لكني فوجئت بـ"مديحة" تصعد السيارة، بجوار"هبة" لم أكن أرتاح لتلك الخادمة بسبب نظراتها السمّاوية، وطريقة كلامها المستفزة على العكس من الدادة تلك العجوز الحانية.

اتخذتُ مجلسي أمام عجلة القيادة، وأدرتُ المحرك، متجهًا خارج جنبات القصر الفخم، تاركًا خلفي صديقًا يتألم، وحبًا يشتاق و أيدي مرتعشة تقبض على المقود بكل ما تستطيع، وعيون تترقب لنا الأخطاء.

لاحظتُ أن "هبة" تخلتس النظرات في المرآة التي أمامي، فبادلتها بنظرات ترد على نظراتها، وقلب يرسل لها بريدًا على نسمات الهواء المتطاير فيصل سهمه ليرشق داخل سويداء قلبها العاشق.

لاحظتُ بفطنتي أن "مديحة" تتصنع الانشغال لكنها تسترق السمع والمتابعة خوفًا من أن يتبعها شهاب أحدنا فتنكشف، فلا تجد من سيدتها إلا التوبيخ.

حتي تذيب جبل الصمت، وتقتل الطريق، طلبت مني " هبة " أن أشغل كاسيت السيارة، فأومأت برأسي مو افقًا، فانبعث الصوت يصدح بأغنية رقيقة تقول كلماتها:

خدني معك على درب بعيدة   مطرح ما كنا ولاد صغار

ودفي ربيعي بشمس جديدة   نسيني يوم ما صرنا كبار

سرحتُ مع كلمات الأغنية، و أنا أختلس النظرات في المرآة لأعانق نظرات " هبة " التي لا حظتُ عليها التأثر بكلمات الأغنية، ولمحت الدموع تتر اقص في مقلتيها، لكنها تحاول أن تداريها خلف ابتسامتها.

قطعنا نصف المسافة تقريبًا، ولم يتبقَ لنا إلا حوالي ساعة ونصف لنصل إلى الساحل الشمالي، والشمس بدأت تلملم أشعتها لتتوارى في بيتها لليوم التالي، و" هبة " تسند رأسها على الكرسي، هائمة في خيالها، ولكنها انتفضت فجأة وطلبت مني التوقف، توقفتُ ونظرتُ إليها متعجبًا، لكنها قالت وهي تنظر للخادمة وتشير لها:

- انزلي يا " مديحة ".

****

غادرت " هبة " المقعد الخلفي للسيارة، و أتت لتجلس بجواري، ففهمت لماذا طلبت مني التوقف بالقرب من إحدى الكافيتريات المنتشرة على طول الطريق، وأمرت الخادمة أن تذهب لتشتري لنا بعض الأطعمة والعصائر، أقلقني تصرفها خوفًا من أن تلاحظ الخادمة خصوصًا أنها غير مأمونة الجانب ونظراتها تشبه نظرات المخبرين.

تناقشت معها ونهرتها بسبب تصرفها الجنوني، لكن دموعها أسكتت لساني، عندما شعرتُ باحتياجها لي، وبعد مرور حوالي ربع ساعة عادت " مديحة " وهي تحمل الكثير من المعلبات، فوجئت بجلوس " هبة " بجواري لكنها لم تعقب، فأدرتُ محرك السيارة واستأنفنا رحلتنا نحو الساحل الشمالي.

قبل التاسعة، وصلنا فيلا "أبو المحاسن" بالساحل الشمالي، فتحت لنا البو ابة، سرت بالسيارة حتى الباب الداخلي للفيلا، التي كانت لا تقل فخامة عن القصر، ثلاثة أدوار تحيط بها حديقة جميلة، وحمام سباحة بالخلف، نزلتُ مسرعًا وقمتُ بفتح الباب للهانم، ثم أخرجت الشنطة من صندوق السيارة، فحملها البواب للداخل، وصعدت " هبة " سلم الفيلا ومن خلفها الخادمة، وقفت أتابعهم، حتى عاد البواب بعد لحظات، وأخذني إلى غرفة صغيرة بجوار البو ابة، ستكون مقر إقامتي في الأيام القادمة، شكرته ودخلت الغرفة التي كانت تحتوي على سريرٍ صغير، ومنضدة صغيرة وضع فوقها تليفزيون، وملحق بها حمام، ولها نافذة تطل على حديقة الفيلا.

استبدلتُ ملابسي، وألقيت بجسدي المنهك على السرير، أفكر فيما يحدث، اتصلت بـ"خالد" الذي طمأنني على حالة "هشام" وأخبرني أن حالته في تحسن لكن لا بد من العملية حتى تستقر حالته، دخل البواب و أنا أتحدث

في الهاتف، كان يحمل صينية الشاي، فأخبرته أن لي صديقًا مريضًا كنت أطمئن عليه، شكرته على الشاي، وأخذنا نتبادل الحديث، فجأة سمعنا صوت " مديحة " تنادي، فخرج لها البواب وعاد بلفة بها بعض الطعام، وقال: إن الهانم أرسلت لك العشا مع الخادمة، تناولتُ العشاء واستكملت كلامي مع البواب، وكنت أساله عن عمله هنا وعن " أبو المحاسن " وجدتُ أنه مثل الجميع لا يحب " محجوب " ولا يرتاح له ووصفه بالإنسان المنافق، ولو أن الست الكبيرة موجودة لم تكن تسمح له بالزواج من ابنتها " سارة " لكنها مرضت جدا في آواخر أيامها ولم تستطع الرفض.

كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة ليلا عندما رن هاتفي فنظرتُ فإذا هي " هبة " فارتبكتُ واستأذنت من البواب وخرجتُ من الغرفة، فجاءني صوتها وهي تقول:

- حمد الله على السلامة يا قلبي.

لمست كلماتها شغاف قلبي فحاولتُ التهرب وقلتُ:

- الله يسلمك أخبارك إيه؟

لاحظتْ توتري، فحاولت التخفيف عني قائلة:

- حبيبي، متقلقش، صاحبك هيعمل العملية.
- إن شاء الله، بس مش بالطريقة اللي بتقولي عليها.
- متقلقش يا " عادل "، كل حاجة هتبقى تمام.

حاولتُ الاستفسار منها، فسألتها:

- تقصدي إيه يا "هبة"؟ وحاجة إيه اللي هتبقى تمام؟

قالت وهي تتهرب من الإجابة:

- اتعشيت كويس؟ الأكل اللي بعته عجبك!
- أيوه، الحمد لله، قولي تقصدي إيه بكلامك؟

- مش وقته يا " عادل "، ارتاح أنت شوية وبكرة لنا كلام تاني... تصبح على خير.
- و أنت من أهل الخير.

أغلقتْ الخط، وتركتني في حيرتي وعدم مو افقتي على ما تنوي فعله، فأنا لا أريد حل مشكلة بمشكلة أخرى، لكن ترى هل عندها حل آخر؟!

****

في اليوم التالي استيقظتُ مبكرًا، وأظن أني لم أذق طعم النوم بسبب ما يشغل تفكيري، وجلست على كرسي في ركن خارج الغرفة، أنفس همومي في سيجارة اشعلتها، لحظات وفُتحت النافذة، فنظرتُ لأعلى فوجدتها تخرج كالشمس، تستنشق هواء الصباح المنعش، ترتدي بيجامة من الحرير الوردي، وقد فردت شعرها كأنها بعثت من جديد.

ابتسمتْ لبزوغ الشمس، ونظرتْ إليها كأنها تناجيها وترسل لها رسالة البداية، فقد انتهى الظلام الذي عاشت فيه، و أتى النور ولو كان مؤقتًا، أشعر بها وقد قررت أن تتمتع به ولا تتركه يبعد عنها مرة أخرى بعدما أضاء حياتها.

كنتُ في مكان لا يسمح لها برؤيتي، فوقفتُ و اقتربتُ من فلكها بملابسي البيضاء، فصرت كالفارس النبيل الذي أرسله القدر لينقذ "سندريلا " مما هي فيه.

أحدثتُ صوتًا فوقع بصرها نحوي، فابتسمت وأشارت لي بتحية الصباح وغلفتها بقبلة حالمة، فقلتُ في نفسي: ويل لحال العاشق عندما تكون أمامه من يحب ويحرم منها. سحقًا لكل من فرق بين قلبين ينبضان بالحب، فهكذا الحب الصادق لا يصمد طويلًا أمام ماديات الحياة.

أشارت لي بما يعني أنها ستبدل ملابسها، فأومأت لها برأسي وبعد دقائق جاءت من بعيد تتهادى كعادتها مع أول نسمات الصباح الباكر كإحدى آلهة الجمال لدى الإغريق، أقبلت بثغرها الباسم وعيونها اللامعة، وكان شعرها ينساب خلفها يمتطي أرجوحة الهواء المنطلق الآتي من ناحية البحر.

طلبتْ مني مرافقتها إلى الشاطئ، فسرت بجوارها، فتلاقت الأيدي تتلامس وتطلعت العيون تتناجى، و اقتربت القلوب تتهامس لتحيي الماضي، وتعانقت النبضات لتعلن اتفاقها على عودة الحياة، جلسنا على الشاطئ،

نتبادل النظرات، فكنتُ أهمس لها دون أن أتكلم، وهي تجاوبني دون أن تهمس.

كلما نظرتُ إليها، كنت أرى الثمار ناضجة ويانعة ويافعة، تتوسل إلى أن أقطفها، وشعرتُ بسحابها قد تجمع وبدأت تهطل قطراته على الثمار الندية لترويها، ذهبتُ في غياهب الإحساس وبذور النشوة، فاقتربت منها ونحيتُ من على خديها الشعر المتطاير الذي يحمي عيونها الجميلة، و اقتربت أكثر، فتدللت وأغمضت عينيها، فسرقتُ من الزمن قبلة طبعتها على شفتيها فتذوقتُ شهدها وذبتُ فيه إلى أخمص قدمي.

همت بي وهممتُ بها، لولا أن هاجت الأمواج تتراقص على أوتار قلوبنا وتعزف لحنًا انتظرناه كثيرًا، فها نحن الآن على شاطئ الجزيرة بمفردنا كما كنا نحلم دائمًا.

أخرجنا صوتُ الأمواج من حالة الهيام والنشوة، فاعتدلت في جلستها، وقالت وهي تلمس خدي بيدها الرقيقة وتتنهد:

- يلا يا " دولة " نرجع قبل ما حد يأخد باله.

فقلت لها كالذي عاد لتوه من حلم جميل:

- أيوه يلا، كده ممكن حد يشوفنا وإحنا مش ناقصين.
- بعد الفطار تجهز نفسك عشان المشوار اللي اتفقنا عليه.

فتعلقت بيدي و اتجهنا نحو الفيلا، وكانت الساعة تقترب من التاسعة، اقترينا من الفيلا، فلاحظت خيالا لشخص يقف خلف غرفة البواب، و انزعجت فسحبتُ يدي من يدها و اقتربتُ و أنا أنادي على البواب:

- بتعمل إيه عندك يا عم " فتحي "؟

- " مديحة "!! بتعملي إيه عندك؟ وو اقفة كده ليه؟ وفين عم " فتحي "؟
- مفيش يا ست هانم، أنا كنت نازلة أدور عليكي، لما روحت لك الأوضة ولقيتك مش موجودة، عم " فتحي " راح السوق.
- تدوري عليا ليه! أنا نزلت أنبّه على السواق عشان رايحة مشوار، يلا اطلعي جهزي الفطار.

أومأت الخادمة برأسها وأسرعت للداخل، فنظرتُ لـ " عادل " لأطمئنه بعدما تغيرت ملامح وجهه خوفًا من أن تكون " مديحة " شاهدتنا سويا، وطلبتُ منه أن يستعد للمشوار الذي اتفقنا عليه

صعدتُ لغرفتي، ودخلت لآخذ حمامي الصباحي واستبدال ملابسي، وأنا سعيدة بالوقت الذي قضيته بالقرب من حبيبي، وسعيدة أيضًا بأني سأساعده على حل مشكلة صديقة لما لاحظت من قلقه عليه.

خرجتُ من الحمام وأنا أرتدي الروب، وأدلك شعري بالفوطة، ففوجئت بالخادمة تقف في منتصف الحجرة وهي تحمل صينية الفطار بين يديها، فنهرتها على وقفتها هكذا، فتحججت بأنها تتنظر أوامري، فطلبت منها وضع الفطار على السرير، وأمرتها أن تذهب بالفطار للسواق وتطلب منه تجهيز السيارة. فعلت ما طلبته منها لكنها قالت:

- مشوار إيه يا ست هانم، هو أنا مش جاية معاكي؟!
- لا خليكِ أنت هنا، السواق هيكون معايا، هشتري شوية حاجات وأرجع تكوني جهزتي الغدا.

وأنا أجلس أمام المرآة أصفف شعري قلتُ لها:

- وبعد الغدا إن شاء الله هنطلع على البحر.

تركتني الخادمة فأنهيت تبديل ملابسي، وخرجت من غرفتي حيث كان ينتظرني بجوار السيارة، يتحدث في هاتفه، فتحت باب السيارة وصعدت للمقعد الخلفي، وعندما خرجنا من الفيلا سألته فأخبرني أنه كان يطمئن على صديقه المريض.

وصلنا مقر البنك التابع للساحل الشمالي، فنزلتُ من السيارة وتركت " عادل " بعدما أخدتُ منه رقم حساب المستشفى، وقمتُ بتحويل المبلغ المطلوب لإجراء العملية، ثم خرجت وأنا أبتسم وفتحت الباب الأمامي وجلست بجواره وقلتُ:

- كله تمام، حولت المبلغ المطلوب، كلم بقى الدكتور وبلغ أصحابك، عشان يعملوا حسابهم.
- برضو يا "هبة" مشيتي اللي في دماغك.

فقلتُ وأنا أضع يدي فوق يده بحب وأنظر له:

- مقدرش أشوف حبيبي في مشكلة وأتخلى عنه، وبطل كلام بقى واطلع على أي محل نشتري شوية طلبات علشان محدش يأخد باله.
- إحنا كده بنحل مشكلة بمشكلة تانية.

فطنتُ لما يقوله فعقبتُ على كلامه:

- يا حبيبي دي فلوس من حسابي أنا، وأنا عارفة هقول إيه لو حد سألني عليها.

فقال وهو يلوح بيده، مبديًا حيرته:

- مش عارف أقول لك إيه، يلا ربنا يسترها.
- لا تقول ولا تعيد، أنت عندي بكل أموال الدنيا.

قال وهو يربت على يدي بحنية:

- ربنا يخليكي ليا.

كنتُ في قمة سعادتي، كأني أعيش في حلم جميل فقلت له:

- ويخليك لي يا حبيبي، أول ما أرجع إن شاء الله هطلب الطلاق من "شكري" ونتجوز ونعيش مع بعض لآخر العمر.
- براحة شوية يا "هبة"، الموضوع محتاج لترتيبات.

فقلت بدلال و أنا أسند برأسي على كتفه:

- ما لك يا "دولة"، أنت مش عايز تتجوزيني يا حبيبي ولا إيه؟!
- الموضوع مش كده يا " هبة "، أنت نسيتي أنت متجوزة مين؟!
- ولا يهمني، أنا غلطت مرة ومش هعيش معاه طول عمري.
- والله العظيم أنت مجنونة، وهتودينا في داهية.

أشار لي بيده، وأمسك بهاتفه، ليبلغ أصحابه بما حدث، كنتُ قريبة منه لذلك كان الصوت واضحًا لي حتى أسمعه فقال:

- أيوه يا "خالد" ، أخبار "هشام" إيه دلوقتي؟
- الحمد لله، أحسن شوية، بس ساعات بيحس بمغص جامد.
- طب اسمعني كويس، أنا حولت المبلغ المطلوب على حساب المستشفى، وهرتب مع الدكتور كل حاجة.
- جبت الفلوس منين يا "عادل"؟
- مش وقته الكلام ده يا "خالد" لما أقفل معاك تروح الاستقبال تطمن أن المبلغ وصل، وتعرف من الدكتور ميعاد العملية إمتى وتبلغني.
- حاضر، حاضر، هعمل كل اللي قلت عليه.
- تمام، و أنا هكلم " حسن " علشان يكون معاك في كل خطوة لغاية ما أرجع.

- طب أنت هتيجي إمتى يا " عادل " أنا خايف على "هشام" قوي، لما بيتعب بتكون حالته صعبة.
- كلها يومين وهكون معاكم إن شاء الله، وهحضر العملية.

أنهى المكالمة مع صديقه، فنظرت له بحب شديد، فابتسم وقال:

- مالك بتبصي لي كده؟!
- فرحانة بيك يا حبيبي، ومستغربة من حنيتك على أصحابك وخوفكم عليهم كأنهم أخو اتك أوولادك.
- أنا مسئول عنهم من يوم ما اتعرفنا وسكنا سوا في الشقة.

فجأة ونحن نتحدث، رن هاتفي، وعندما نظرت لرقم المتصل ذهلت فلم أكن أتوقع منه أي اتصال في هذة الأيام.

****

بعدما استقبلته بالأمس في المطار، صممت على إنهاء الموضوع مهما كانت العواقب، فذهبت له قبل أن يتوجه لعمله بالشركة، دخلتُ القصر وسألت عنه فعرفت أنه بغرفة مكتبه، استاذنت بالدخول، وكان منشغلا يقلب في بعض الأوراق التي أمامه على المكتب وعندما شعر بي، أنزل النظارة من على عينيه وقال لي:

- خيريا " محجوب " أنت هنا ليه المفروض تكون في الشركة.
- خير يا باشا، أنا فعلا عديت على الشركة الصبح، بس فيه موضوع عايزرأي سعادتك فيه.
- موضوع إيه؟! ما كنا مع بعض بالليل وأكيد هنتقابل في الشركة.
- أيوة يا باشا، بس حضرتك كنت لسه راجع من السفر مرضتش أتعب سعادتك، وكمان الموضوع مينفعش يتقال في الشركة.

ألقى القلم من يده، ونظرلي وقال:

- ما تتكلم يا " محجوب " موضوع إيه ده اللي مينفعش في الشركة؟
- براحة يا باشا، براحة، عاوز سعادتك تتمالك أعصابك.

انتفض من على مكتبه و اتجه نحوي وقال:

- اللهم طولك يا روح، ما تتكلم يا " محجوب "، إيه مالك؟

قلتُ بحذرو أنا ألقي القنبلة على رأسه:

- الهانم مرات سعادتك يا باشا.

فقال بفزع:

- ما لها "هبة"، أنا لسه مكلمها من شوية وطلبت منها ترجع بس هي استاذنت في يومين كمان، و أنا و افقت علشان موضوع موت أبوها.
- ترجع بالسلامة يا باشا، لكن هي والسواق يعني.

اقترب " أبو المحاسن " مني وقال بعصبية:

- ها، كمل ما لها "هبة" وما له السواق؟

ابتعدت عنه واستدرت بظهري له وقلتُ:

- الظاهر كده، بينهم موضوع حب وغرام وكده.

جذبني نحوه بقوة وهو غير مصدق وقال بحدة:

- نعم! حب... إزاي، وإمتى؟ وعرفت منين؟

- البت مديحة الشغالة بلغتني بكل حاجة وبعتت لي الدليل.

- دليل إيه يا "محجوب"؟ أنت قلت لي إن السواق ده كويس، لحقوا يكون بينهم حب إمتى؟ وإزاي؟

أخرجتُ الهاتف من جيبي وفتحته على صور " هبة " والسائق، ثم أدرت له الحوار المسجل بينهما، فلم يتمالك " أبو المحاسن " نفسه وهو يستمع لكلمات الحب والغرام تخرج من فم زوجته وتقال لهذا السائق، فجلس على أقرب كرسي كمن هوى في بئر سحيقة.

اقتربتُ منه وقلتُ:

- آسف يا باشا، لكن عمري ما ارتحت لـ"هبة"، لما شكيت في الموضوع، عملت تحريات واكتشفت أنها تعرف السواق من زمان، وكان بينهم قصة حب كبيرة، كانوا ناويين يتجوزوا، ومش بعيد يكون شغله في الشركة من ترتيبها.

قال " أبو المحاسن " وهو مذهول:

- ترتيبها إزاي!، مش قلت إن المهرج هو اللي توسط له في الشغل.

- أكيد دي خطة يا باشا، تمثيلية عملوها علينا، عشان نصدق.

بحيرة وألم وحسرة وقلة حيلة نظر إلي وقال:

- طب والحل إيه يا "محجوب"؟

وجدتُ الفرصة سانحة لأضرب ضربتي القوية و أتخلص منها فقلت:

- متقلقش يا باشا، أنا هخلص الموضوع، لا من شاف ولا من دري، المهم سعادتك تكون طبيعي وتكلمها تطمن عليها.
- فهمني يا "محجوب"، هتتصرف إزاي؟، طمني.

اقتربت منه و انحنيت نحوه وهو جالس وقلتُ:

- يا باشا، متقلقش، ده لسه واصلني رسالة من شوية إنها حولت فلوس من حسابها لحساب مستشفى، علشان واحد صاحبها هيعمل عملية كبيرة.
- بنت بياعة الفجل، عاوزه تعمل نفسها الأميرة " ديانا".

استدرتُ ووقفت خلف ظهره وقلتُ:

- ولا يهمك يا باشا، الموضوع هيخلص وهنرتاح كلنا.

نظر إلي الباشا، نظرة الغريق الذي يتعلق بقشة، ولم يعقب.

****

كنتُ أسجل خواطري حول قصة " عادل " و" هبة " وأعيش فيها بكل حواسي، وعلي القرب مني يرقد "هشام" على سرير المرض، فجأة دخل علينا " حسن " بوجهه البشوش وهزاره الساخر، وفي يده سندوتشات للفطاروقال:

- صباح مصري أصلي يموت في الهزار، صباح ورد بلدي وفول ع الفطار، ودعوة تهون جراح الغلابة، وضحكة تزين وشوش الطيابة، صباحكوا ابتسامة تفوت في الكآبة، تجلجل فيطلع في لحظة النهار.

ضحكت بصوت مسموع، بينما اكتفى "هشام" بابتسامة شاحبة، فأردف " حسن " موجهًا كلامه لي:

- إيه يا بني، أنت مبتزهقش من الكتابة دي؟ وريني كده كتبت إيه؟

فقلت و أنا أبتسم بخجل:

- يا عم الفيلسوف، سيبك من اللي بكتبه وقولي " عادل " قال لك حاجة؟

اقترب من "هشام" وربت على يده وقال:

- أخبارك إيه يا بطل؟ هانت وكله هيبقى تمام إن شاء الله.

اكتفى "هشام" بهز رأسه، وتمتم ببعض الكلمات التي لا يسمع منها إلا كلمة الحمد لله.

جلس " حسن " وهو يفتح لفة السندوتشات، وهو يشير لي لأكل معه ثم قال:

- كله تمام يا سيدي، " عادل " قاللي أن الفلوس وصلت المستشفى، إن شاء الله أول ما الدكتور يوصل هنسأله على ميعاد العملية، ونرتاح بقى ونشوف مصالحنا.

تنهد "هشام" وأشار بيده وقال بصوت متقطع:

- أنا خايف أوي من العملية دي؟

وقف " حسن " و اتجه نحوه وشد على يده، وقال:

- إيه يا عم شغل العيال ده؟ ما أنت سامع الدكتور بيقول كله تمام والفحوصات والتحاليل تمام، وكمان الكِلية جاهزة، يعني ممكن تكون العملية بكرة وهترتاح، بس سيبها على الله.

- يعني " عادل " مش هيكون هنا وقت العملية؟

- لا طبعا، أكيد هيكون موجود، هو قاللي أول ما نعرف من الدكتور ميعاد العملية هنبلغه وهيكون هنا قبلها.

ساد الصمت لحظات، حتى سمعنا طرقًا على الباب، قمت أفتح الباب فإذا بالممرضة جاءت لتطئمن على حالة لـ "هشام".

****

جلستُ بمكتبي ألتقط أنفاسي بعدما مرت الأحداث الأخيرة على خير وبعدما تأكدت أن نصيبي من الصفقة دخل في حسابي السري بأحد البنوك، إذ فجأة يرن هاتفي بإلحاح، فنظرتُ له وعندما عرفت المتصل، تركته يرن لكنه لم يتوقف، فأمسكت بالهاتف بعصبية وقلت للمتصل:

- في إيه ما لك؟ مش قلت مليون مرة بلاش تتصلي إلا لما اتصل أنا.
- ما لك يا " محجوب " بتتكلم كده ليه؟ أنا عوزاك في حاجة مهمة؟
- ما كنت لسه معاك من كام يوم، حاجة إيه المهمة دي؟!

سكتت لحظة كأنها مترددة، ثم قالت بصوت متقطع:

- أنا حامل يا " محجوب " ولازم تشوف لك حل.

انتفضت من مكاني كمن لسعه عقرب، وقلت:

- نعم يا شاطرة، بتقولي إيه؟ أنا مليش دعوة بالكلام ده أنا متفق معاكي.
- يعني إيه متفق معايا؟ هو يعني كان بمزاجي.
- يوووه، بقول لك إيه، اتصرفي، لازم تتخلصي من الحمل ده، أنا مش فاضي للكلام ده.
- أتخلص منه! أنت بتقول إيه، استحالة طبعا أعمل حاجة زي كده، أنت لازم تكتب عليا قبل ما الحمل يظهر عليا.
- نعم يا أختي، أنت بتقولي إيه؟!
- أنا سلمتك نفسي، كنت فاكرة أنك هتفرح.
- أفرح بإيه! بالمصيبة اللي حضرتك عملتيها.
- بتسمي حملي منك مصيبة، قول بقى أنك خايف من الست هانم مراتك.

- اخرسي، أنا مبخافش من حد، بس مش معنى كده أوافق أنك تحملي بالطريقة دي.
- وأهو حصل، إرادة ربنا، ليه بقي عاوزني أتخلص منه؟
- إرادة ربنا ولا غباء من حضرتك؟
- ملوش لزوم الكلام ده يا " محجوب " أنا مش هتخلص منه مهما حصل.
- وأيش عرفني أنك حامل مني، أنت نسيتي أنا أتعرفت عليك إزاي وفين!
- اخرس قطع لسانك، أنا أشرف منك، وهتشوف حسابك على الكلام ده إيه.
- أنت بتهدديني، طب بصي بقى، من الآخر كده، لو متخلصتيش من الحمل ده، مش هتشوفيني تاني.
- مش هتخلص منه يا " محجوب "، واعمل اللي يريحك.

قالت كلمتها وأنهت المكالمة، فألقيتُ بالهاتف على المكتب وأسندتُ ظهري على الكرسي واضعًا يدي خلف رأسي، وأنا أفكر في تلك المصائب التي تتوالى، كلما أنتهي من مشكلة تظهر أمامي أخرى.

- عملت إيه يا " محجوب "؟

انتفضتُ من مكاني، فلم انتبه لدخول " أبو المحاسن " مكتبي، فوقفتُ ألملم أشلائي وقلت باضطراب:

- كله تمام يا باشا، متقلقش سعادتك.

نظرلي بعمق و اقترب مني وقال:

- ما لك يا " محجوب " شكلك عامل زي اللي خارج من خناقة؟
- لا، لا، لا، يا باشا، مفيش حاجة، شوية إرهاق من الشغل بس.

جلس الباشا على الكرسي، وقال هو ينظر لي:

- طب فهمني هتعمل إيه وهتتصرف إزاي في المشكلة اللي قلت عليها.
- يا باشا اطمن، أنا عرفت من البت " مديحة " إن مرات سعادتك، هترجع بكرة بالليل، و أنا رتبت كل حاجة، متقلقش.
- ماشي يا " محجوب " مش عايز أي غلطة، أنا مش ناقص، وبعدين أنا رايح المؤتمر الاقتصادي كمان يومين، وعاوزك تخلص الموضوع ده قبلها.

أومأتُ برأسي مو افقًا، فوقف " أبو المحاسن " وهمّ بالانصراف، لكنه استدار ونظر لي وقال:

- هي البت " مديحة " دي شغالك لحسابك من إمتى؟

قبل أن أجيب تركني وخرج، فألقيت بجسدي على أقرب كرسي و أنا ألعن تلك المصائب المتراكمة فوق رأسي، لكن فجأة وقفت وقد استقر تفكيري فيما سأفعله مع تلك الساقطة.

****

في الموعد الذي حددته، حتى نصل القاهرة قبل التاسعة مساء، و أقضي الليلة في المستشفى بجوار "هشام" حتى موعد العملية غدا، وقفتُ أمام الفيلا وبجواري السيارة جاهزة في انتظار مجيء " هبة " حتى ننطلق في طريق العودة.

بعد لحظات جاء البواب يحمل الشنط، وهي من خلفه تتهادى وبجوارها الخادمة، ابتسمتْ عند رؤيتي، فابتسمت ابتسامة خفيفة، وأسرعت نحو باب السيارة وفتحته بعدما وضع البواب شنطتها في صندوق السيارة، صعدت " هبة " للمقعد الخلفي و اتجهتُ نحو مكان القيادة لكني لاحظت وقوف " مديحة " فسألت عن السبب، فعرفت أنها ستبقى في انتظار وصول ابنة " أبو المحاسن"، ارتحت لما سمعته فأنا أكره تلك الخادمة بسبب طريقتها وتصرفاتها المريبة.

أدرت محرك السيارة و انطلقت بها، وبعدما بعدنا عن الفيلا بمسافة كبيرة، أوقفت السيارة فنزلت "هبة" من المقعد الخلفي وجاءت لتجلس بجواري كما اتفقنا.

كانت تنظر لي نظرات كلها حب، وكل فترة تضع يدها تلامس يدي، فقلتُ و أنا أنظر لها مبتسمًا:

- هشغلك أغنية بقى إنما إيه بقى هتعجبك أوي.

أومأت برأسها مو افقة على كلامي، فأدرت مسجل السيارة على أغنية بعينها كانت مفاجأة لـ "هبة" وما أنا صدح صوت الأغنية التي تقول:

مش لازم نتكلم علشان نفهم بعض أرواحنا بتتلاقى حتى ولو في البعد

و أنت معايا كفاية عليا إيدك تبقى في حضن إيديا

ابتسمت "هبة" أول ما سمعت الأغنية، ومالت برأسها على كتفي وقالت بشوق جارف:

- الله عليك يا "دولة"، فاكر لما كنا دايما بنسمعها وإحنا سوا.

زي الندى يا حبيبتي عيونك
زي الدفا في ليالي البرد

فقلت بحب و أنا أضع يدي على رأسها وأخلل خصلات شعرها:

- طبعا يا حبيبتي فاكر، أنا منستش ولا لحظة كنا فيها سوا.

رفعتْ رأسها وهي تضغط على يدي وتقول:

- كل اللحظات اللي جايه هنفضل فيها سوا، وعمري ما هسيبك تاني مهما حصل.

بدأنا نردد كلمات الأغنية سويا ونحن نبتسم:

أنت اللي عشقك قدر في القلب زي النبض
و أنت اللي بين البشر آخر ملاك ع الأرض
علمني عشقك أسمعك من غير كلام
وحنان عيونك بلمحة قبل السلام

قلتُ لها و أنا أحلق في الخيال:

- أنا قضيت معاكي أجمل يومين في عمري، ونفسي أكمل معاكي لآخر العمر.

يا طير وهاجر من الفضا رفرف وهام
حطيت جناحه في قلبي أنا غمض ونام

فقالت وهي تلحق في عالم الخيال كطائر نال حريته:

- شغل الأغنية تاني يا "دولة"، بحبها قوي قوي بتفكرني بكل لحظة كنا فيها سوا زمان.

نظرتُ لها بابتسامة تعادل بزوغ القمر الوليد في كبد السماء ونوره الذي يستحي من عظم السماء فصار مثل شمعة تتلألأ، يتطاير نورها مبددا الظلام، مددتُ يدي لأعيد الأغنية.

فجأة...

في طرفة عين لمحت سيارة نقل كبيرة تقطع الطريق وتتجه نحونا فلم أستطع الهروب، فارتطمت بنا من الناحية التي تجلس فيها "هبة" التي صرخت بفزع، اختلت عجلة القيادة من يدي بسبب قوة الارتطام، فانقلبت السيارة عدة مرات، حتى صدمها حجر كبير بجانب الطريق، فاعتدلت السيارة وتوقفت وتوقف معها صراخ "هبة".

سبحنا في غياهب الموت نحتاج لمعجزة لتنتشلنا مما نحن فيه، بعد لحظات بدأت أستفيق من غفوة الألم، نظرتُ بحثًا عنها فوجدتها بجواري سابحة في دمائها، فراعني منظرها، حاولت التحرك فلم أستطع، حاولتُ وحاولتُ جاهدًا حتى استطعتُ انتشال أقدامي من بين حطام السيارة، وبدأتُ أزحف في اتجاه "هبة" وتذكرتُ عندما كنتُ أقول لها: سآتي إليك لو حبوًا، سآتي إليك لو في آخر العالم، ظللتُ أزحف وأحبو والدماء تخط من خلفي خطًا ليكتب عليه الزمن مصير هذا الحب الذي ضربه إعصار من الأوجاع والآلام.

وصلتُ ناحيتها وحاولتُ جذبها خارج السيارة، وجذبتها بقوتي الواهية، حتى مال جسمها كله فوقي كأني أحتضنها، فتلاقت القلوب تشيّع بعضها، تتألم وتئن وتصرخ بلا صوت وتبكي بلا دموع.

كانت في حضني غارقة في بحرها و أنا أسبح في بحري، بحران من دماء الحبيبين اللذين جمعتهما الصدفة وفرقهما النصيب، ظللتُ أنظر في وجهها الدامي، و أنا أصرخ وأستنجد بها أن تفيق وترد علي، تساقطت دموعي على

خدها فكانت تتلاقى مع دمائها التي تخضبت بها الرمال لتروي جسدها المسجى عليه، وإذا بجسدها الذي كان يعبق بريا القرنفل وشذا الفلّ تفوح منه روائح الموت، وضعتُ رأسي على صدرها لأناجي قلبها، فجاوبني ببعض النبضات الواهنة التي تؤكد أنه ما زال عند وعده في تمسكه بالحياة، فابتسمتُ وصرختُ أستنجد بأي منقذ أو أي سيارة تمر، لكن ظلمة الطريق كانت ترفض نجدتنا.

رويدًا رويدًا بدأ الألم يتفاوض مع جسدي، فعقد الصفقة لصالحه وأجهز على الباقية مني، فملتُ برأسي عليها واحتضنتها وغرقنا سويا في بحر النسيان.

****

صباح يوم العملية، كنت أجلس أنا و"خالد" بجوار "هشام" الذي تسبح نظراته باتجاه سقف الغرفة، كأنه يناجي ربه أن تمر العملية على خير، نظر لي "خالد" وغمز بعينه كأنه يريد أن يتحدث معي، خرجنا من الغرفة فبادرني "خالد" قائلا:

- العملية ميعادها قرب و" عادل " لسه موصلش، أنت مش قلت أنه هيجي على بيات.

فقلت له على الرغم من قلقي، لكني حاولت أن أصبره:

- الغايب حجته معاه يا "خالد" وبعدين كل حاجة هنا تمام، حتى المشكلة اللي الدكتور قال عليها اتحلت، و" عصام " على وصول يعني لو احتاجوا نقل دم كلنا موجودين.

قال هامسًا "خالد" وهو يقترب مني:

- أنا قلقان أوي على " عادل " وكمان لو "هشام " سأل هنقول له إيه؟

فقلتُ و أنا أربتُ على كتفه:

- إن شاء الله خير، تعالى بس ندخل لـ "هشام " علشان نطمنه بكلمتين قبل العملية، وشوية هبقى اتصل بـ " عادل ".

عدنا إلى غرفة "هشام" فوجدنا الممرض يساعده على ارتداء القميص الأخضر الخاص بالعمليات، وقد شحب وجهه وقد أخذ يتمتم ببعض الكلمات غير المسموعة.

حاولنا رفع روحه المعنوية فقال "خالد" له:

- أخبارك إيه يا "هشام"؟، متخفش إن شاء الله خير، إحنا هنا كلنا جمبك ومعاك.

فقال بوجه شاحب كشجرة حُرمت ضوء الشمس:

- "عادل" فين يا "خالد"، رجع ولا لسه؟

لم يستطع "خالد" الإجابة فنظرلي، فقلتُ باسمًا:

- إيه يا عم شغل العيال ده؟ ما تجمد كده، وبعدين " عادل " وصل تحت بيخلص شوية إجراءات، وهيكون عندك قبل ما تدخل العمليات.

دخول " عصام " فجأة أنقذنا من سؤال "هشام" عن سبب تأخر " عادل "، فوجدتها فرصة لتغيير الموضوع فقلتُ لـ " عصام " و أنا أغمز له بعيني:

- مش " عادل " تحت وجاي وراك.
- آه، أيوه صح، " عادل " بيخلص حاجة كده وجاي ور ايا.

حان وقت دخول "هشام" غرفة العلميات، فاستوقفت الممرضات وربتُّ على كتف "هشام" وهو على السرير الذي سيحمله للداخل وقلت له:

- خلي ثقتك بالله كبيرة، كله خيرإن شاء الله، لازم تتمسك بالأمل.

بينما كانت الممرضات تدفع سرير "هشام" في الطرقة متجهًا لغرفة العمليات، ونحن نعدو خلفه، حتى رن هاتفي فتوقفتُ لأنظر من المتصل فوجدته " عادل " فتحت الخط بسرعة وقلتُ:

- أنت فين يا " عادل " ينفع منك كده، خلاص "هشام" دخل العمليات وكان نفسه يشوفك و...

جاءني صوت لا أعرفه يقول:

- عمليات إيه يا أستاذ، تعرف صاحب الرقم ده؟!

تغيرت ملامحي وقلت منزعجًا:

- أيوه أعرفه، أنت مين، والتليفون ده وصلك إزاي وفين "عادل"؟

فقال صاحب الصوت وهو يصرخ:

- يا أستاذ، براحة اصبر، صاحب الرقم ده عمل حادثة على الطريق الصحرواي، والإسعاف نقله عندنا المستشفى.

لم أتمالك نفسي من الصدمة، وأسندتُ ظهري للحائط وقلتُ:

- طب هو عامل إيه دلوقتي كويس... اتكلم طمني وفين المستشفى دي؟
- أنا في الاستقبال، خد عنوان المستشفى، وتعالى بسرعة.

أخذت العنوان منه، واتصلت على "خالد" الذي كان يقف في آخر الطرقة عند غرفة العلميات، فجاء مسرعًا، وهو يتعجب أني أرن على هاتفه رغم أنه يراني، فقلت منزعجًا:

- في إيه يا " حسن " بترن عليا ليه؟ حصل إيه طمني؟!

وأنا لا أدري ما أقول، فالمفاجأة عقدت لساني، لكن قلتُ بعد جهد:

- واحد اتصل عليا من رقم "عادل"، وبيقول إن " عادل " عمل حادثة، وهو دلوقتي في المستشفى.

نظر لي "خالد" في ذهول، ثم رمى بجسده على إحدى الكراسي، ووضع يده فوق رأسه وكاد يصرخ وقال:

- أنت بتقول إيه يا " حسن "، أنت متأكد، معقولة كده، أصحاب عمري الاتنين هيروحوا مني كده في غمضة عين.

فقلتُ وأنا أحاول التماسك، وربتُ على كتفه:

- مش وقته يا "خالد"، أنا هروح أطمن على "عادل" وخليك أنت و"عصام" هنا مع "هشام" ونكون على اتصال مع بعض.

وقف وهو يمسح دموعه بيده وقال:

- حاضر يا "حسن" بس لازم تطمني أول ما توصل.

وأنا متعجل، أومأتُ برأسي وقلت:

- إن شاء الله خيريا "خالد" ، ادع ربنا أنت بس.

خرجتُ مسرعًا من المستشفى متجهًا لعنوان المستشفى التي يرقد بها " عادل " وأنا لا أعرف ما حالته، كنت أدعو الله طوال الطريق أن يكون صديقي بخير.

وصلتُ المستشفى، وتوجهت مسرعًا إلى الاستقبال، إلا أنه كانت هناك مفاجأة في استقبالي.

****

عندما وصلتُ المستشفي بحثًا عن " عادل " وجدت الكثير من رجال الصحافة والإعلام يملئون استقبال المستشفى، فسألت الموظف الذي أخبرني بأن " عادل " تعرض لحادثة مروعة وهو الآن في غرفة العمليات، فسألته عن سبب وجود الكثير من الصحافيين فأخبرني أنهم جاؤوا لتغطية الحادث الذي أودى بحياة زوجة رجل الأعمال "أبو المحاسن" وأنها لم تستطع احتمال آلامها، وصعدت الروح إلى بارئها بمجرد وصولها المستشفى.

صعدت للطابق الأعلى حيث غرفة العمليات التي يرقد بها صديقي"عادل " وجلستُ على كرسي في الطرقة، انتظر أي خبر عن صديقي، وقتها تذكرتُ نفس المنظر عندما كنتُ أنتظر خروج زوجتي، لكنها ماتت أثناء العملية، أبعدتُ شبح التفكير الأسود عن خاطري و اتصلتُ بـ"خالد" لأطمئن على "هشام" وأطمئنه على "عادل" فعرفتُ أن "هشام" الآن داخل غرفة العلميات أيضًا.

خرجت ممرضة من غرفة العمليات، فأسرعت نحوها، وقلتُ:

- لو سمحت يا آنسة..يا آنسة، إيه الأخبار... العملية خلصت؟
- أيوه الحمد لله، تمت على خير.

فقلت لها بلهفة:

- طب و" عادل " أخباره إيه؟ أنا صاحبه وعايز أطمن عليه.
- اطمن... الحمد لله، صاحبك انكتب له عمر جديد، حالته كانت صعبه قوي، بس إن شاء الله كلها ساعات ومرحلة الخطر تعدي.
- لو سمحتي يا آنسة "سماح" ممكن أدخل أطمن عليه.
- لا لا طبعا، مينفعش دلوقتي، لسه هيخرج على العناية المركزة لأنه لسه في مرحلة الخطر.
- متشكر أوي يا آنسة.
- العفو، أي خدمة.

استأذنتْ مني عندما نادت عليها زميلتها في العمل، عدتُ إلى مكان جلوسي مرة أخرى، وقد اطمأن قلبي بعض الشيء وقلتُ لنفسي، سبحان الله، من كان يتخيل أن يجري لـ"عادل" و"هشام" عملية جراحية في نفس الوقت تقريبا، ولا يعلم منهما عن حالة الآخر شيئًا.

عاودتُ الاتصال بـ"خالد" وعلمت أن "هشام" خرج من غرفة العمليات على العناية المركزة، والحمد لله العملية نجحت لكنه أيضا في مرحلة الخطر، بعدما طمأنته على حالة " عادل" طلبت منه أن يبلغني بكل جديد، وكل منا يتابع حتى تمر مرحلة الخطر على خير.

عدتُ لمكاني بجوار غرفة " عادل " وجلستُ أدعو لـ " هبة" بالرحمة فقد ظُلِمَتْ كثيرا، وعاشت مرغمة مع رجل لا تحبه.

مرت الساعات بطيئة، و أنا في انتظار عودة الغائب، حتى لمحتُ الممرضة نفسها تخرج من غرفته، وقد تغيرت ملامح وجهها، ففزعت لمنظرها وهي تعدو مسرعة نحوي، ولم أستطع الوقوف أو حتى مقابلتها.

****

انتشر الخبر كالنار في الهشيم، فكل العاملين في المستشفى بدأوا يتحدثون ويتهامسون عن الحادثة التي وقعت وراحت ضحيتها زوجة "أبو المحاسن"، وهذا السائق الذي يرقد مصابًا وليس على لسانه إلا اسمها، مما جعل اليقين يولد من رحم الشك، فالأمر يتعدى كونها علاقة زوجة رجل مهم بسائقها الخاص.

حتى عندما سألتُ صديقه عن السر، فتغيرت ملامح وجهه محاولا اختلاق مبرّر، وقال لي: إنه يذكرها على لسانه بسبب عدم وجود غيره معها أثناء الحادثة، لكن قلبي لم يصدق هذا المبرر الواهي.

أنهيت ساعات عملي وخرجت عائدة إلى بيتي، ولما دخلتُ وجدت والدي يجلس على الكنبة يتابع الأخبار، فهو في إجازة منذ موضوع رفضه الرشوة من رجال " أبو المحاسن "، فجلستُ بجواره و أنا منهكة من التعب وقلت له:

- أخبارك إيه يا بابا؟ عرفت اللي حصل؟

فقال وهو يتنهد بمرارة، كأنه فطن لما أقصده:

- الحمد لله يا بنتي، ربك كبير، خسارة البنت اللي راحت في عز شبابها، يلا ربنا يرحمها.

فقلت له و أنا أعتدل في جلستي بجواره:

- لو تسمع يا بابا، السواق اللي كان معاها في الحادثة ومفيش على لسانه إلا اسمها، شكلهم كده كان بينهم حاجة.

فقال، وهو ينظر لي بغضب:

- متقوليش كده يا بنتي، استغفري ربك، هي دلوقت في دار الحق، ولها رب يحاسبها.

- يا بابا!، لما سألت صاحبه و أنا بطمنه أنه بدأ يفوق من النبج، قعد يبرر بكلام كده و أنا مش مصدقة، وكل البنات في المستشفى بيقولوا كده.
- بلاش يا بنتي نخوض في أعراض الناس، ربنا يسترها علينا.
- ونِعم بالله، كلامك صح يا بابا، ربنا يسترها على الجميع.

استرسل أبي في الكلام، وسألني عن السواق فقال:

- أنتِ بتقولي إن السواق فاق من العملية، يعني بقى كويس.

فقلت و أنا أتذكر منظره، وهو يهمس باسمها وهو تحت البنج:

- أيوه يا بابا، الحمد لله بس لسه برضو في مرحلة الخطر، الخبطة اللي اتعرض لها كانت صعبة.
- ربنا يلطف به، أكيد ملوش ذنب.

نظرتُ لأبي مندهشة وسألته:

- أنت يا بابا ناسي اللي " أبو المحاسن " عمله معاك، إزاي بقي زعلان أني بتكلم عن مر اته كده.
- يا بنتي، وهي ذنبها إيه؟، مفيش شماتة في الموت.

دخلت غرفتي و أنا أقول لنفسي: يا ترى كان شكلها إيه " جوليت " حبيبه " روميو "؟

****

مر أكثر من أسبوع على الحادث، وبدأ " عادل " و"هشام" يستعيدان وعيهما بشكل كامل، لكنهما بقيا تحت الملاحظة، كنا نتبادل الأماكن أنا و" حسن " وعصام " ونتنقل بين المستشفيات، وفي أحد الأيام تركت " عصام " بجوار"هشام" وذهبت لأطمئن على صديقي الآخر.

وهناك رأيتها تدخل بزيها المميز وبثغرها الباسم ووجهها المستدير كالقمر، وخدودها ذات الخجل الدائم، الذي أثار إعجابي بها حتى لاحظ " حسن " أني أطيل النظر لها.

كنا نخفي عن " عادل " خبر وفاة حبيبته " هبة" وأنها بخير لكن وجود عائلة " أبو المحاسن" حولها يمنعنا من الدخول عندها، لكن الممرضة " سماح " أخطأت يومًا وهي تتابع حالته، وترحمت على " هبة"، فانتفض " عادل " من مكانه، وتغيرت ملامح وجهه ونظر لي ثم نظر لـ " حسن " وقال وهو يشير للممرضة:

- الكلام اللي هي بتقوله ده صح يا "حسن"، اتكلم، أرجوك.

ابتلع " حسن " ريقه وتعلثم وهو يقول:

- أرجوك أنت يا " عادل " خليك في حالتك دلوقتي، واحمد ربنا أنها جت على قد كده.

أدار" عادل " وجهه محاولًا إخفاء دموعه ثم قال:

- يعني "هبة" ماتت... ماتت، مش هشوفها تاني.

ثم صرخ وهو يبكي:

- أنا عايز أموت... عاوز أموت هعيش لمين بعدها؟!

وقف "حسن" وأمسك به محاولًا تهدئته، وقال بحدة:

- عاوز تموت؟! طب ابقى ارمي نفسك في البحر، هتلاقي نفسك بتصارع علشان تعيش، أنت مش عايز تموت أنت بس عايز تقتل حاجة جواك.

وقفتْ الممرضة مذهولة، فما حدث كان بسببها، فلم تستطع أن تفعل شيئا، حتى طلب منها "حسن" حقنة مهدئة، فأسرعت بها، حتى بدأ مفعولها يسري في عروق " عادل " فاستكان بعض الشيء، كانت الممرضة في غاية الخجل الذي ظهر على وجهها فبدت أكثر جمالًا، فاعتذرت عما بدر منها، لكن "حسن" طمأنها بأنه كان سيعرف عاجلا أم آجلا.

بعدما ذهب " عادل " في غياهب النوم، خرج " حسن " بصحبة الممرضة ليذهب إلى هناك حيث يرقد "هشام" وبقيت بمفردي بجوار" عادل " فأخرجت دفتري الصغير الذي لا يفارق جيبي، وبدأت أسطر أحد الفصول المحزنة في رو اية " عادل وهبة " فكتبتُ على لسان "عادل":

لم يمهلني القدر، و أبى أن أعيش سعيدًا في معترك الحب، لطم قلبي بهواه وأعاصيره، آثر أن يسلبني الحب بعد ما عشت فيه لحظات و أيام وشهور، لم يمهلني القدر حتى أكمل عقد الحب الذي امتلكني، وجعلني كالمراهق الذي يدخل دوامة الحب للمرة الأولى.

أتاني القدر من خلف ظهري و أنا أعطي الأمان، أتاني كالطوفان وأخذ معه كل شيء، أخذ حبي وحلمي و أملي.

آه.. من غوص ألم الفراق وحسرة الندم وتوهان القلب وذهول العقل، سرق مني القدر زماني وأزاحني عن مكاني المفضل في حجرات القلب الذي اعتدت النوم الهانئ بداخله، قطع القدر جميع قنوات الاتصال مع الحبيب.. ومزّق كل أوراقي الجميلة، أتاني القدر يحمل سكين الغدر وأجهز به على قلبي، لم أستطع الدفاع عن نفسي أو الإمساك به. كنت أعيش حلمًا جميلا لم

أستيقظ منه إلا على كابوس الندم والألم والفراق، حتى الندم على ما فات لم يشفع لي بأن أعزي نفسي، قتلني القدر و أقام لي العزاء وشيع حبي إلى مثواه الأخير، رفض أن أصلي عليه، أو أن يتقبل مني العزاء في حبي، كأني أذنبت حين أحببت.

حرم علي الحب كأني مخلوق غريب عن الحياة.

حرم علي مجرد الذكرى الجميلة التي عشتها مع حب العمر كله.

حرم علي مجرد التفكير والحنين إلى حياتي السابقة.

حرم علي إن أرتدي قميص حيائي الأسود أحضر به العزاء في حبي الفقيد.

لم أصدق أني الآن أعيش بدون قلب بدون حب بدون حلم بدون أمل.

حلمت يوما أني سأفوز بتلك النجمة الجميلة البعيدة العالية، لم أفق من وهمي إلا عندما اقتربت منها، وفجأة تأتيني سكين القدر لأسقط من أعلى وأهوى على الأرض ويرتطم حبي بالو اقع المرير ويفارق الحياة، صرت أعيش عاريًا بين العشاق والمحبين، عاريًا بدون حب يستر قلبي ويداري عورته، صرت أعيش وحيدا أداري سو أتي عن الناس وأختبأ منهم، وأخاف أن ير اني أحد عاريًا من الحب، أرى الحب والفرح والحلم من بعيد يسيرون اليد في اليد والضحك يصاحبهم، أهرب منهم لأجد البكاء والصراخ والتعاسة والشقاء بانتظاري في مقابر القدر.

خز ائن قلبي ملأها الحزن والألم. كم كنتَ قاسيًا معي أيها القدر، و أنت تجهز على الباقية مني فلم تترك لي شيئا من حبي، سرقت كل شيء وخلفت لي الضياع والأسى ليس في يدي الآن ما أستطيع فعله إلا أن أتوارى بعيدا عن أعين المحبين، وألقي بنفسي في أحضان مقبرة حبي أواسي نفسي، و أترحم على حبي الذي فارق الحياة.

سمعتُ طرقًا على الباب، فأخفيت ما كتبته وأذنت للطارق بالدخول، فكانت هي، دخلت تتهادى كالملاك وحمرة الخجل تصاحبها، فاقتربت من " عادل " الذي كان ما يزال نائمًا وقالت بصوتها الرقيق:

- شوية كده وهيفوق ويبقى تمام إن شاء الله.

حاولتُ فتح حوار معها، لأحظى بأكثر وقت ممكن معها فقلتُ:

- شكرًا يا آنسة " سماح " على اهتمامك بـ" عادل ".

فقالت وهي تتحاشى النظر نحوي:

- أنت بتشكرني على إيه! أنا بعمل شغلي.

استأذنت وهمت بالانصراف، وعندما اقتربت من باب الغرفة، قلت لها:

- لحظة لو سمحتي، فيه موضوع مهم عايز أسألك عنه.

****

مر أسبوعان تقريبا على الحادث وها أنا أرقد داخل غرفتي بالمستشفى، أكابد لوعة الفراق لكن هذه المرة فراق للأبد فقد رحلت أغلى الناس، و أنا ما زلت كما أنا طريح فراش أنتظر أن يسمح لي الأطباء بالمغادرة، غادر "هشام" المستشفى وعاد للبيت، اتصل بي وتحدثنا كثيرًا عما حدث وقد عرف كل شيء، مكث يصبرني ببعض الكلمات المتداولة أن أتمسك بالصبر وصحتي أهم، كما طمأنني عن حالته ونصيحة الأطباء له بالبعد عن عاداته القديمة في الشرب والسكر التي تسببت له في تلك المشاكل، ووعدني بالزيارة في أقرب وقت.

أما أنا فما زال أمامي بعضة أيام حتى أعود لبيتي بعدما أطمأن على الكسور التي أصابت رجلي ويدي، الحمد لله خفت آلام الرأس بعد العملية التي تمت عندما شك الأطباء أن يكون المخ أصيب.

دوما كان يزروني " حسن " و"خالد" وعصام " كما كانت الممرضة " سماح " تهتم بي وألحظ في نظراتها وكلامها شئيا لا أفهمه ولا أريد أن أستنتجه.

دخلت غرفتي كعادتها، فقالت وهي تقترب ووجهها تصاحبه الابتسامة:

- صباح الخير، أخبارك إيه النهارده؟

أجبتها بشرود و أنا أضع يدي فوق رأسي:

- تمام الحمد لله.
- يا رب دايما تكون بخير، ممكن تشمر دراعك علشان الإبرة.

أمسكتْ يدي وهي تنظر لي نظرات لا أفهمها، كل ما أشعر به أنها تهتم بي لسبب أجهله.

أنهت عملها، ثم قالت وهي تدّعي انشغالها في ترتيب ما معها من أدوات قياس الضغط وغيرها:

- ربنا يرحمها، الظاهر كنت بتحبها أوي يا أستاذ " عادل ".

اندهشتُ من كلامها، فقلت بمرارة وحزن كطائر ذبح من الألم:

- نعم!، آه، ربنا يرحمها اتظلمتْ كتير في حياتها.

شعرتْ من ردي عليها رفضي للخوض في هذا الموضوع، فظهر على وجهها الإحراج، واحمر وجهها خجلا، فقالت وهي تتعلثم:

- أنا آسفة، إني بدّخل في حاجة تخصك.

همت بالانصراف، فحاولت إزالة الإحراج عنها فقلت:

- لا، لا، لا، محصلش حاجة تستدعي الأسف.

فأومأت برأسها كحمامة تقف على بقعة مياة صافية، وقالت:

- لو حضرتك احتجت حاجة، اضغط على الجرس ده.

استأذنتْ، وتوجهت نحو باب الغرفة وهمت بفتحه، حتى وجدت الفيلسوف " حسن " يدخل مبتسمًا ويقول:

- صباح الجمال، على فين، لو حضرت الشياطين ولا إيه؟!

فقالت بصوت هامس، وهي تبتسم:

- لا أبدًا مفيش حاجة، بس عندي شغل تاني.

وهو ما زال يقف أمام الباب ويمنعها من الخروج، نظر لي وقال:

- و أنا بقول أنت مش عاوز تخرج من هنا ليه، طبعا حقك يا عم الماء والخضرة والوجه الحسن.

فقالت بعدما احمر وجهها خجلا بسبب ما قاله " حسن ":

- بعد إذنكوا.

ما أن خرجت، حتى قلت لـ " حسن " و أنا أنظر له معاتبًا:

- مش هتبطل بقى كلامك ده، أنت أحرجتها أوي على فكرة.
- اطلع أنت منها، أنا متأكد أنها مش هتزعل مني.
- هو الموضوع كده، طب يا عم ربنا يسعدكم.

لم يتمالك " حسن " نفسه من الضحك، و اقترب مني واحتضنني وما زال يضحك، فقلتُ له:

- والله أنت فعلا مجنون، فيه إيه يا بني بيضحكك أوي كده.

فسحب كرسيا وجلس بالقرب مني وقال:

- طب رأيك فيها إيه، بس بصراحة؟
- معرفش، بس واضح أنها محترمة ومؤدبة وبنت ناس طيبين.

ضحك " حسن " وقال متصنعًا الجدية:

- يعني نتوكل على الله.
- وما له يا عم، ربنا يبارك لك.

وقف " حسن " و اتجه لمنتصف الغرفة واستدارلي فجأة وقال:

- يا واد أنت، قال يعني مش ملاحظ حاجة.
- حاجة إية؟! أنت ما لك النهارده يا عم أنت!

اقترب مني مرة أخري ونظر لي بعمق وقال:

- قال يعني مش واخد بالك من نظراتها واهتمامها بيك، يا بني دي عينيها كلها حب ولهفة وشوق.
- أنت بتقول إية يا عم المجنون؟! حب وشوق إيه بس.
- أيوة يا " عادل "، والله البت دي وقعت في غرام حضرتك.
- " حسن " ده مش وقت هزار، أنا في إية ولا إية؟!
- مش هزارده بجد، والأيام هتثبت لك إن كلامي صح.
- والنبي أنت فايق ور ايق، أنت بتقول إيه يا "حسن"!

- يا " عادل " أنا عارف أنك كنت بتحب " هبة " الله يرحمها قد إيه، بس متنساش إنها كانت متجوزة، و أنت كده أو كده كان لازم في يوم هتتجوز.
- كنت متفق معاها إنها تطلب الطلاق ونتجوز.
- وجوزها كان هيطلقها كده بسهولة، ويسيبها لحضرتك، فوق يا " عادل " وبص لمستقبلك، لازم تشوف شغل لأنهم أكيد هيفصلوك من الشركة.
- هو أنت فكرك إني هرجع الشركة تاني، بعد اللي حصل؟

أثناء كلامي مع " حسن "، سمعت طرقًا على الباب، فوقف " حسن " ليرى من الطارق، وأذن له وعندما ظهر خلف " حسن "، انتفضت من مكاني لأنه كان شخصًا لم أتوقع أن يفكر في زيارتي.

****

- هي بقى الحكاية طلعت كده! و أنا برضو بقول مش معقولة يكون شغله في الشركة صدفة يعني.
- بص يا " محجوب " باين من كلامك أنك فهمت غلط، أنا فعلا أعرف " عادل " من زمان، لكن والله موضوع شغله في الشركة أنا معرفش عنه أي حاجة وكانت مفاجأة لي.
- مفاجأة إية يا "هبة" هانم، أنا سامعك بتقولي له حبيبي وحشتني ومش عارف إيه!
- " محجوب " الزم حدودك، لو كنت فاكر هتلوي دراعي بالموضوع ده، فخلي بالك، أنا برضو عندي اللي يلوي دراعك.
- تقصدي إية بكلامك ده وضحي؟
- قصدي اتفاقك أنت و" عبد العزيز " بيه يوم الحفلة، إنكم هتستوردوا بدرة مخدرات مع بودرة السيرامك بتاعة المصنع من غير ما الباشا يعرف.
- يا بنت الأيه، و أنا اللي كنت فاكرك طيبة وغلبانة و" سارة " بتتجنى عليكِ.
- أيوه اصحى لكلامك والأحسن إننا نتفق، كل واحد فينا له مصلحة يبقى بلاش نضيع بعض.
- نتفق على إية يا هانم، عاوز اني اتستر عليك وأخون الباشا؟
- والله بجد، واللي أنت بتعمله من ورا ضهره بتسميه إيه؟
- قولي عاوزه نتفق على إيه؟

كانت الدادة تحكي لي، وفجأة توقفتْ وانهمرت الدموع من عينيها، فنظرتُ لها و أنا أغلي من داخلي، فأكملت كلامها قائلة:

- كانت بتحبك أوي يا ابني، ربنا يرحمها، طول عمرها حظها قليل في الدنيا.
- كملي يا دادة، " هبة " اتفقت معاه على إيه؟

قالت وهي تمسح الدموع التي تتساقط من عينيها:

- اتفقت معاه، أنه ملوش دعوة بيك خالص ولا يقرب منك، ووقت ما تطلب سواق تكون أنت معاها في كل مشوار أو سفر، وهو اللي سهل لها موضوع سفر الساحل.
- طب هي ليه تعمل كده، كان ممكن تقولي و أنا أتصرف.
- هتتصرف إزاي و انت بتحاول تبعد عنها، خصوصًا بعد موت أبوها، يومها كلمتك تترجاك متبعدش عنها، هو سمعها وحصل بينهم الاتفاق ده بينهم.
- مقابل إنها تتستر عليه، ومتفضحوش في موضوع البودرة.

أومأتْ برأسها وهي ما زالت تبكي ثم قالت:

- عرفت قد إيه كانت بتحبك، ومش عوزاك تبعد عنها، مكنتش بتخبي عني أي حاجة، كنت زي أمها بالظبط لأنها كانت طيبة وغلبانة.

فقلت لها وكلي حزن وألم ودموع ينزفها القلب بداخلي:

- أهي راحت يا دادة، قبل ما تنفذ اتفاقها، راحت وأخدت كل سعادتي وكل أحلامنا سوا.

نظرتْ لي وكأنها تريد أن تقول شيئا، لكنها مترددة، لكنها قالت:

- هو حد يتفق مع التعبان اللي اسمه " محجوب "، ده محجوب عنه الخير يا ابني.
- يعني إيه يا دادة وضحي كلامك.

- بص يا " عادل "، أنا مش من عادتي أتصنت على حد بيتكلم، لكن ليلة الحادثة، بعد العشا كده، سمعت الباشا بيكلم "محجوب" وبيقول له:
- مش عاوز أي خطأ يا "محجوب" وكل حاجة تظهر طبيعية، مش عارفة كان يقصد إيه؟

انتفضت في مكاني، و قلت لها:

- تقصدي أن هم اللي مدبرين الحادثة، عشان يتخلصوا مننا.

انزعجتْ من كلامي، وقالت وهي تشير نافية:

- لا يا ابني متظلمش الباشا، الظاهر إن " محجوب " قاله على موضوعك أنت والمرحومة، بس الشهادة لله، الباشا طلب منه يربيك ويبعدك عنها وكمان قال له أكيد السواق اللي غواها و أنا لي تصرفي معاها.
- تقصدي إيه؟
- أقصد إن الباشا رفض إن " هبة " حد يمسها بسوء، حتى أنت كمان مطلبش أنك تتقتل، ده مجرد ضرب أو حاجة زي كده، بس التعبان " محجوب " أكيد هو اللي دبر حكاية الحادثة عشان موضوع الاتفاق ويبقي كده ضرب عصفورين بحجر، حتى الباشا دلوقتي فاكر إن الحادثة قضاء وقدر.

فكرت فيما قالته، وقلت كأني أحدث نفسي:

- كلامك صح، كده هو اتخلص من الوحيدة اللي كشفت سر تجارته في المخدرات، ويظهر قدام الباشا أنه بيعمل كده علشان يحافظ على سمعته.

- أيوه طبعا، " محجوب " ده شيطان، أنا هقول لك حاجة مهمة علشان أنا و اثقة فيك من كترما سمعت عنك من المرحومة.
- قولي يا داداة، متخافيش سرك في بير، قولي علشان دم " هبة " ميروحش هدر.

فقالت وهي تنظرلي كأنها تترجاني أن أحفظ سرها:

- الست هانم الكبيرة اللي يرحمها، مكنتش بطيق " محجوب " ولا بتقبله، وكانت ر افضة موضوع جوازه من بنتها.
- طب إيه اللي جبرها تو افق، ولا بنتها كانت بتحبه.

فقالت وهي تضحكت بمرارة وسخرية:

- بتحبه! لا والنبي يا ابني بس النصيب، " سارة " دي كانت وردة مفتحة، كانت زي النسمة كلها حنية وطيبة، لكن بعد ما زميلها اللي كانت بتحبه أوي ما ضحك عليها وسابها وسافر، حصل لها حالة نفسية، والباشا طبعا عاوز يداري على الفضيحة ومكنش ينفع يجوزها لحد من عيلة كبيرة، فملقاش إلا " محجوب " اللي كان شغال في الشركة مجرد مهندس، جوزها له قصاد أنه يتستر عليها، وبعدها الهانم الكبيرة تعبت أوي، وده كان سبب موتها.

ومن يومها و" سارة " حالها اتقلب وبقت زي ما أنت شايف بتكره أي حد ياخد حاجة منها، حتى لو هي مبتحبش الحاجة دي، و زي ما واحدة تانية أخدت زميلها اللي كانت بتحبه، بقيت بتكره " هبة " وفاكرة أنها أخدت الباشا منهم.

كنت أستمع لما تقول و أنا في قمة الذهول من تلك الأحداث وهذا الجو الذي عاشت فيه "هبة" مقهورة مظلومة، لكني قررت أن أخذ حقها من هذا " المحجوب " الخسيس.. فقالت لي وهي تترجاني:

- والنبي يا ابني أنا مش عاوزة اتبهدل على أخر أيامي، أنا قلت لك كل حاجة لأن ده كان وصية المرحومة، يا عيني زي ما تكون كانت حاسة أن " محجوب " ممكن يغدر بها.
- متقلقيش يا دادة، محدش هيعرف أنك جيتي هنا ولا قابلتيني، بس هاتي رقمك علشان عاوز اطمن عليكي من وقت للتاني.

ونحن نتحدث دخل علينا " حسن " وهو يهلل كعادته ثم قال:

- ابسط يا عم فيه لك مفاجأة حلوة.

****

انتهت فترة البيات العاطفي التي اختارها قلبي مرغمًا، وأراد أن يستفيد منها في خلق دنيا جديدة، أراد خلالها أن يغير مساره العاطفي، وبذل أقصى جهده لنبذ آثار الماضي والاستعداد لحب جديد.

وفجأة...

ظهرتِ أنت في حياتي بهذا العقل المدرك والقلب الكبير وهذا البريق الذي ينبعث من عيناك الجميلة، فيا ترى كيف لي أن أصل إلى هذه القلعة الحصينة، و اقتحامها واكتشاف أسرارها، وخباياها. تلك القلعة التي شدني لها كل شيء، صوتك هذا الهمس الرقيق الذي أخذ بتلابيب عقلي وجلعني حائرا، أأنت ملاك أم بشر؟

نعم أحببتك وأسرني حبك وملأ كياني وسرقني من زماني ومن مكاني كلما تحاورت معك اكتشف الجديد، تحاورنا تناقشنا تجاذبنا أطراف الحديث أبهرني عقلك، و اتزانك وتلك الحصون التي تظهر أمامي شاهقة، ترهق أشد الرجال إذا أرادوا الوصول إليها، أتاني حبك في مرحلة كنت في أشد الاحتياج إليها، أتاني الحب بعدما كفرت بكل معتقدات الناس فيه، جاء حبك ليفتح بيده صفحة طواها الزمن بعدما ذبلت فيها شر ايين الحب وجفت أوردة الغرام. حبيبتي يا من عثرت عليك بعد تعب وعناء يا من أضناني البحث عنك وتحملت الكثير حتى تقابلت معك، أعطِي فرصة للفارس أن يكتشف أسرار قلعتك الحصينة، وأن يرتاح بها بعد ما تعب من غوص الألم في قلبه.

حبيبتي اسمحي للفارس أن يتنقل في قلعتك الحصينة، ويكتشف حدائق عقلك وأزهار قلبك وشلالات إحساسك الجميل وبر اكين عواطفك الجياشة التي تتوارى خلف سياج القلعة الحصينة، دعي الفارس يمتطي

جواده ويعدو مسرعا ليلحق بقلبك ويهمس له ويناجيه، اتركي قلبي يوشوش لقلبك تلك الوشوشة الساحرة التي أحتاج إليها من حين لآخر، امنحي الفارس الفرصة ليقترب منك رويدا رويدا، ويروي ظمأ السنين.

يا ترى ستو افقين أم أن الفارس ما زال يحلم؟

- أنت يا عم أفلاطون، مش هتقوم بقى، " عصام " على وصول.
- حاضريا "هشام" أنت مستعجل ليه بس!
- يا بني آدم، مش متفقين نروح نزور"عادل"؟
- أيوة ما أنا هروح طبعا، بس بلاش أنت لسه تعبان.
- ملكش دعوة وخلص وسيب الهباب اللي بتكتبه ده.

لم أكمل ما كنتُ أكتبه وقمتُ لأستعد للذهاب مع "هشام" لزيارة صديقنا " عادل " في المستشفى، فقد صمم "هشام" الذهاب إليه رغم أنه اطمأن عليه كثيرًا في التليفون. ونحن في انتظار" عصام " يمر علينا بسيارته، كنتُ أريد الذهاب بمفردي لأحظى منها ببعض الدقائق لأتقرب منها وأصارحها بحبي لها.

خرجنا من البيت قاصدين المستشفى التي يعالج بها " عادل " من الحادث وأعالج أنا فيها من الحب، حيث تركت قلبي هناك من أول مرة وطأت بقدمي فيها، لكن إلى الآن ما زالت الشجاعة تهرب مني رغم أني راودتها كثيرًا عن نفسها لكنها ترفض، لن أرتاح حتى أعبر لها عن مشاعري نحوها، وأعرف إن كانت تبادلني نفس الشعور أم لا.

كان قلبي يبحث عنها عندما وصلنا المستشفى، فلمحتها تقف معه تبتسم وهو يمسك بهاتفها في يده، فاشتعلت الغيرة في قلبي نحوهما، لم تستطع قدمي أن تحملني فأسندتُ ظهري إلى الجدار، فانتبه لي وقال:

- مالك يا "خالد" و اقف كده؟

كانت الدادة ما زالت تجلس مع " عادل " عندما دخلت لأبشره بأن الأطباء سمحوا له بالخروج، فاستأذنتْ وودعها " عادل " بكل حب، ثم أخبرني " عادل " بكل ما دار في تلك المقابلة وبأنه قرر الانتقام للراحلة من الذي تسبب في وفاتها، حاولت مناقشته في الأمر وعندما فشلت طلبت منه الانتظار حتى يستعيد عافيته، وذهبت لأنهي بعض إجراءات الخروج من المستشفي، فقابلتها في الطرقة ووقفنا نتحدث عن " عادل " وتأكد إحساسي بأنها تحبه، فطلبت منها رقمها حتى نكون على تواصل، وفجأة انتهبت لخالد يقف بالقرب مننا، ومن بعيد ظهر "هشام" وبجواره " عصام " فقلت:

- ما لك يا "خالد" و اقف كده، " عادل " هيخرج النهار ده.
- أيوه يا سيدي عرفنا من " عصام ".

تركته و اتجهت نحو "هشام" وأخذته بالحضن معبرًا له عن سعادتي برؤيته يسير على قدمه، ثم دخلنا غرفة " عادل " الذي بكى عندما لمح "هشام" يدخل معنا، فجرى "هشام" نحوه وارتمى في حضنه، وتر اقصت الدموع بين الجميع فقلت:

- إيه يا عم أنت وهو، مش وقتها الدموع دي، الحمد لله أنكم بخير.

فقال " عادل " وهو يمسح دموعه:

- والله يا " حسن " ما كنتُ مصدق إني هشوف "هشام" تاني.
- ألف سلامة عليك " يا عادل " أنا الحمد لله كويس قدامك أهو، شد حيلك يلا عشان نخرج من هنا.

قال " عادل " ويشير لـ " عصام ":

- " عصام "، عملت إيه مع بنت " عبد العزيز بيه "؟!

فهمتُ ما يرمي إليه " عادل " من سؤاله، فأسرعتُ قائلا:

- مش وقته يا " عادل " أنا خلصت كل حاجة، جهزيلا نفسك علشان نخرج وفي البيت نتكلم براحتنا.
- في إيه يا " حسن " ما تفهمني؟
- لا، لا، لا، مفيش حاجة يا " عصام "، " عادل " بس بيطمن عليك.

نظر" عصام " لـ " عادل " وقال:

- متشكر على سؤالك يا " عادل "، بس الموضوع ده خلاص اترفض، أبوها يا سيدي بيقول إني مش من مقامهم.

نظر له " عادل " وأومأ برأسه ولم يعقب، أشرتُ لـ "خالد" حتى يأتي لنحضر كرسيًّا متحركًا حتى نخرج عليه " عادل " من المستشفى، وعندما خرجنا من الغرفة، حدثته عن "سماح" فتغيرت ملامحه فقد لاحظتُ أنه يميل لها لكن بعدما تأكدتُ من تعلقها بـ " عادل" قررتُ لفت نظره حتى لا تحدث مشكلة خصوصًا أنه في بداية تعلقه بها ومن السهل نسيانه الأمر، فقلت له ونحن في الطرقة:

- عارف يا "خالد" الدنيا دي عجيبة قوي، ساعات كده بتدي للواحد حاجات هو رافضها، وبتاخد منه حاجات هو أصلا محتاج لها، لكن سبحانه عادل وما بيظلمش حد.
- تقصد إيه بالكلام ده يا " حسن ".

فقلت و أنا أحاول الهروب من نظراته:

- شوف "عادل" اتعذب قد إيه والظروف وقفت ضده، يشاء ربك وسط التعب والحزن يبعت له اللي تحبه.
- قصدك مين؟!

فقلت و أنا أضع يدي على كتفه كأني أتوقع رد فعله:

- "سماح" المرضة، أنا متأكد أنها بتحب "عادل" حب صادق.

فقال "خالد" وهو يبتسم ابتسامة المهزوم:

- أنا كنت فاكر أن أنت اللي بتحبها، لما شوفتكم و اقفين سوا بتضحكوا و أنت ماسك تليفونها.

قلتُ و أنا أضحك وأضربه على كتفه:

- أنا! آه، عشان كده كنت و اقف بعيد تبص لنا أوي، لا لا أنت فهمت غلط دي بتحب "عادل" وكنت بسألها عن شوية حاجات.
- وعرفت إزاي بقى يا فيلسوف إنها بتحب " عادل "؟!
- الصبا تفضحه عيونه يا عم "خالد"، الموضوع واضح زي الشمس وبعدين أنا كنت شاكك في الأول، بس لما كلمتها تأكدت، ولمّحت لـ " عادل " بس هو لسه متأثر باللي حصل.
- تأكدت لما كلمتها إزاي؟! سألتها يعني وقالت لك.
- ما لك يا "خالد" هروح أقول لها أنت بتحبي فلان، لا طبعا بس من كلامها عنه واهتمامها به، وحرصها أنها تاخد رقمي عشان تطمن عليه كل ده يثبت إنها بتحبه.

تغيرت ملامح وجهه وقال بعصبية:

- خلاص يا "حسن" فضنا من الموضوع ده، يلا علشان نخلص.

عدنا لغرفة " عادل " ومعنا الكرسي المتحرك، كنت سعيدًا لأني أوصلت الرسالة لـ "خالد" حتى يخرجها من تفكيره، فلا نريد أن تتكرر مأساة " هبة" وتتزوج شخصًا، وهي تحب غيره.

ونحن نعد أنفسنا للخروج من المستشفى، وجدتها تدخل علينا الغرفة وكأنها لا ترى إلا "عادل" رغم وجودنا جميعا معه، فقالت ووجهها يشع حبًا، وعينيها تنطق لهفة وخوفا من الوداع:

- خلاص هتخرج يا "عادل"... قصدي يا أستاذ "عادل".

كانت كلماتها تجسد معني شوق الأنثى العاشقة حتى النخاع، نظر لها الجميع بدهشة، حتى قال " عادل ":

- أيوه إن شاء الله، شكرًا على اهتمامك.

وعينيها ما تزال متعلقة به ولم تنظر إلينا، قالت بضعف:

- العفو يا أستاذ " عادل "، أنا بقوم بواجبي.

فقلت ضاحكًا حتى أزيل عنها الإحراج:

- بجد تسلم إيدك يا "سماح" على وقفتك جمب "عادل"، وعمرنا ما هننسي جميلك ده.

فقالت بتعلثم وهي تحاول أن تدراي نفسها وتلملم أشلاء حيائها:

- لا جميل ولا حاجة يا أستاذ " حسن "، المهم يكون هو بخير، ونطمن عليه دايما.

أخيرًا شعر " عادل " بما تكابده تلك المسكينة، فنظر لها مبتسمًا وأومأ برأسه ليشكرها مرة أخرى، أما "خالد" فكان يقف لا يستطيع التحدث وقد ثبت له مدى حبها وتعلقها بصديقه المقرب فالتزم الصمت.

كنا نقف أمام المستشفى في انتظار أن يأتي " عصام " بسيارته التي أوقفها بعيدًا، و"خالد" يحمل في يده شنطة ملابس " عادل "، نظرتُ فوجدتُ " سماح " تر اقبنا من إحدى الشرفات المطلة على الشارع ابتسمتُ بداخلي وغمزتُ لـ " عادل " فنظر نظرة خاطفة فلمحها، فانسحبت للداخل، فنظر لي " عادل " بدهشة ولسان حاله يقول: ما الذي تفعله تلك المجنونة، هل أشيع حبا بالأمس لأقع في غيره اليوم.

أتى " عصام " بالسيارة، و أنا أحاول مساعدة " عادل " ليصعد للكرسي الخلفي، لمحناه ينزل من سيارته الفارهة، فوقفنا عندما توجه نحونا قاصدًا دخول المستشفى، وكان يبتسم تلك الابتسامة الصفراء، فهو شخص

تجسدت فيه كل صنوف النفاق والبرود والأنانية، ولما اقترب أكثر، لاحظت أن " عادل " قرر أن يتعارك معه، فأمسكت به، فاستند على كتفي وصاح فيه قائلا:

- على فكرة " عبد العزيزبيه " بيسلم عليك أوي.

****

عدتُ من المستشفى بعدما حصلت على التقارير التي كتبت وقت دخول "هبة" المستشفى يوم الحادث، لتقديمها للجهات المختصة، لأننا نريد التصرف في الحساب التي وضعه "أبو المحاسن" باسمها، كذلك العقارات والوديعة الكبيرة التي كانت باسمها.

لم يشغل تفكيري إلا ما قاله هذا السائق، وأخذت أفكر في كلماته ماذا يقصد بقوله: عبد العزيز بيسلم عليك؟

من أين له أن يعرف العلاقة بيني وبينه؟!

هل تكون "هبة" أخبرته بشيء قبل موتها؟

أفكار كثيرة تراودني لكني لا بد أن أنهي هذا الموضوع الشائك، دخلت المكتب على "أبو المحاسن"، وقد رسمت الخطة في عقلي وقررت تنفيذها.

- مساء الخير يا باشا.
- أهلا يا " محجوب " ما لك مسهّم كده، حصل حاجة؟
- لا أبدا يا باشا، بس فيه موضوع صغير كده عاوز أبلغ به سعادتك.

نظر لي " أبو المحاسن " و أنزل النظارة من على عينيه وقال:

- طب ما تتكلم، ساكت ليه؟
- الواد السواق اللي كان مع الهانم في الحادثة.

وقف الباشا و اتجه نحوي وقال:

- ما له ده! مش خلاص الموضوع اتقفل، وقلت لك الواد ده ميدخلش الشركة تاني.
- تمام يا باشا، كل ده حصل، لكن النهار ده و أنا بخلص شوية إجراءات في المستشفي قابلته وقال كلام كده مش كويس.
- كلام إيه تاني يا " محجوب " إحنا مش هنخلص بقى.

- كلام تافه كده، بس اللي فهمته أنه تقريبا معاه صور وكده له هو والهانم وأوضاع يعني... وتقريبا بيهددنا أنه هينشرها.

انتفض الباشا، وبرزت عيناه من الغضب و اقترب مني، وقال:

- الحقير، مش كفاية اللي عمله وهي عايشة، كمان عاوز يسوأ سمعتنا وهي ميتة.
- إطمن يا باشا، ده لعب عيال، أنا هعرف أسكته إزاي.
- تاني يا "محجوب".. هتقول لعب عيال، أمال اللي بيحصل ده إيه؟، حتة ولد تافه مش عارفين نسكته.
- يا باشا إطمن، والله الموضوع هيخلص زي ما سعادتك عايز، أنا عندي خطة هنفذها وهيخرس بعدها للأبد.
- أوعى تكون ناوي تقتله يا " محجوب " إحنا مش ناقصين مشاكل.
- لا لا لا طبعا، قتل إيه يا باشا، هو إحنا بتوع الكلام ده، ارتاح سعادتك والموضوع هيخلص.

خرجت من المكتب وأنا أنوي تكملة ما عزمت عليه حتى أنهي هذا الصداع.

****

مرت الأيام وتحسنت حالة "هشام" وعاد لعمله، بينما ما زال الصديق الآخر " عادل " يتلقى بعض جلسات العلاج الطبيعي على قدمه ويده، وكنت أذهب معه بعدما لاحظت تهرب "خالد" من رؤية " سماح " بعدما علم بحبها لـ " عادل "، رغم أنني حاولت كثيرًا رأب الصدع بينهما خصوصًا أن " عادل " لم يعلم بموضوع حبه لها، لكن كان قلبها هو الفيصل ليختار من يشاء.

كنت أذهب مع " عادل " المستشفى مرتين في الأسبوع، وكانت "سماح" تساعدنا، بل أوصت علينا زميلاتها، وفي إحدى الجلسات تقابلنا معها، وبعدما سألتها عن أخبار والدها، قلت لـ "عادل":

- تعرف يا "عادل" إن " أبو المحاسن " بعت رجالته ليعرضوا رشوة على الأستاذ إبراهيم" والد "سماح" بس هو رفض وبعدها وصوا عليه وضايقوه في شغله.
- بجد والله، الظاهر عليك متابع أوي الموضوع ده يا " حسن ".
- أيوه طبعا، أقل حاجة نقدمها لـ " سماح " بعد وقفتها معانا.

قال " عادل " بأسى وحزن ظهر في عينيه:

- كل التخطيط ده من التعبان اللي اسمه " محجوب "، أنا متأكد إنه اللي دبر الحادثة اللي راحت فيها " هبة " بس أنا مش هسيبه ولازم أرجع حقها.

نظرتُ لـ "سماح" فلمحت في عينيها نظرة غيرة وألم وضياع، فحاولت تغيير الموضوع فقلت:

- خلص يا عم "عادل"، مش الدكتور قال لك تتمشى كل يوم شوية، يلا أنا عازمك نشرب حاجة بس بشرط هنتمشى لحد هناك.
- مش أوي كده يا أستاذ " حسن " براحة عليه شوية، بلاش يمشي كتير.

- يا بختك يا عم، لاقي حد يدافع عنك ويهتم بيك.

استأذنتْ مننا بعدما احمر وجهها من الخجل، فتركتنا مسرعة ودخلت إحدى الغرف، فضربني "عادل" على كتفي وقال:

- والله يا " حسن " ما بقيت عارف أنت عاقل ولا مجنون، يا بني حرام عليك، بتحرجني وتحرجها بكلامك ده.
- طبعا كله بقى ع المكشوف، لو عملت نفسك مش واخد بالك أنها بتحبك يبقى بتستعبط.
- بتقول إيه يا عم الفيلسوف أنت، والله أنت فايق ور ايق.

جذبته من ذراعه وأشرت له على مكان قريب نكمل فيه حوارنا، مشينا حتى هذا المكان الموجود على النيل، وطلبت من العامل أن يحضر لنا القهوة، ونظرت لـ " عادل " وقلتُ مكملا كلامي:

- بص يا " عادل " أنت بقيت متأكد أن البنت عينها منك وبتحبك.

أخرج سيجارة من علبته وأشعلها ونظر لي بدهشة وقال:

- يمكن كلامك صح، بس أنت ناسي " هبة " واللي حصلها.
- لا مش ناسي، بس صدقني "سماح" دي بنت حلال، هي اللي هتنفعك وهتقف جمبك في حياتك.
- علي فرض كلامك صح، بس مش وقته خالص، الأول تار "هبة"
- ماشي يا عم تمام، بس حاول تديها ريق حلو بلاش الوش الخشب.
- والله أنت أمرك غريب كنت بتحاول تبعدني عن "هبة" ودلوقتي بتحاول تقربني من "سماح ".
- طبعا يا "عادل" أنت صاحبي، والأخ شكسبير بيقول:
- ماذا أصنع بصديق يملأ فراغًا عندي ولا أستفيد منه مشورة أو رأيا، فالأولى بالفراغ صديق يشاركني الرأي أو يترك هذا الفراغ.

- أيوه يا عم، ومين هيقدر يغلبك ما أنت " الفيلسوف المجنون ".

وضعتُ يدي على كتفه ونظرتُ له وقلتُ:

- الانتصار الحقيقي على الماضي هو أنك متكررش نفس الأخطاء في الحاضر، لو سبت الماضي يمنعك من أنك تعيش الحاضر صدقني هتخسر كثير أوي.
- يمكن كلامك يكون منطقي، لكن منعديش استعداد أفرط في حقي وحق "هبة" مهما كان.
- ربنا أراد يعوضك خير فبعتلك "سماح" في طريقك، صدقني ده أحسن تعويض لك عن كل اللي فات.

ضحك "عادل " وجذبني من ذراعي وقال:

- قوم يا عم نروح، دي شكلها كده موصياك عليا.

****

قررت الانتقام من السائق لخوفي من أن تكون لديه معلومات عن تلك الصفقة التي أبرمتها مع "عبد العزيز" فكلفتُ " وجيه " بأن يعرف كل صغيرة وكبيرة تتعلق بـ " عادل " وبعد مرور عدة أيام استدعيت " وجيه " لمكتبي لأعرف منهم ما توصل إليه، دخل مكتبي وكنت مشغولا في بعض الأوراق، فقال لي وعلى وجهه علامات النصر:

- كله تمام يا باشا، عرفت لحضرتك كل حاجة عن اللي اسمه "عادل"
- تمام يا " وجيه "، سمعني كده عرفت إيه؟

أخرج ورقة صغيرة من جيبه، وأخذ يقرأ منها فقال:

- هو ساكن في حي شعبي مع اتنين من أصحابه، دايما مع بعض واحد فيهم اسمه "خالد" واد كده عايش الدور وملوش في حاجة، والواد

التاني اسمه "هشام" وده اللي عمل عملية زرع كِلية، واد بتاع كأس وخمورجي ومشيه بطال، وهم الاتنين بيشتغلوا في المكتبة العامة اللي في قصر الثقافة.

- ها، تمام، كمل يا " وجيه ".
- فيه اتنين بقى اتعرفوا عليهم من فترة، واحد اسمه " حسن " كان مدرس ومراته وبنته ماتوا في حادثة، ودلوقت بيشتغل مهرج في الحفلات وبيسموه " الفيلسوف المجنون "

ضحكتُ على الاسم وقلت:

- أيوه عارفه، ده اللي حضر حفلة عيد الميلاد، وتوسط للسواق يشتغل في الشركة.
- الأخير بقى حضرتك برضو تعرفه، اسمه " عصام " ابن المرحوم أبو الوفا رجل الأعمال، وكان متقدم لبنت " عبد العزيز بيه " بس تقريبا كده رفضه.

وقفت من مكاني، و اقتربت منه وقلتُ و أنا أضع يدي على كتفه:

- و إيه اللي يلم " عصام " ده عليهم، المفروض يعني إنه من طبقة غيرهم، يبقي إيه اللي لم الشامي على المغربي؟

عدتُ لمكتبي وأمسكت بالقلم وأشرتُ له وقلتُ:

- كل اللي بتقوله ده أنا تقريبًا عارفه، أنا عاوز حاجات محدش يعرفها عنهم.

مط " وجيه " شفتيه وقال:

- ما تقولي يا باشا حضرتك بتفكر في إيه علشان أفهم.
- بص يا " وجيه " أنا بدور على نقطة ضعف للواد اللي اسمه " عادل " علشان ندخل له منها.

اقترب " وجيه " من المكتب وجلس على الكرسي كأنه يفكر ثم قال:

- أظن إن أضعف واحد فيهم ممكن ندخل عن طريقه هو "هشام".
- وضح كلامك أكتريا " وجيه ".
- لأنه واد مستهتر وهلاس وبتاع كاس وبيروح البارات كتير وسهل نسيطر على واحد خمورجي زيه.
- برافو عليك يا " وجيه " يبقى الواد ده هو نقطة ضعف السواق خصوصا أنه بيحبه بدليل أنه ساعده في العملية، وبكده نقدر نعرف منه أي معلومات نحتاج لها.
- كلامك صح يا باشا، ده فعلا اللي قصدت أقوله.

ضحكتُ بعدما اختمرت الخطة كلها في ذهني وقلت:

- تمام يا " وجيه "، خليك جاهز علشان اللي هطلبه منك تنفذه.
- أنا دايما جاهز لتنفيذ أوامرك يا باشا.

أذنت له بالانصراف، وجلستُ خلف مكتبي، لأكمل باقي الخطة، وفجأة تذكرتها، فضحكتُ وأنا أطلب رقمها وقلتُ لنفسي أخيرًا أصبح لمعرفتك فائدة مهمة، لم ترد، فعاودت الاتصال بها، وعندما أجابت ضحكت وقلتُ لها: أنت لسه زعلانة مني يا كتكوتة، ميبقاش قلبك أسود بقى.

- هات من الآخر يا " محجوب "، أنا عارفة إن عمرك ما تفتكرني إلا لو محتاج مني حاجة.
- طول عمرِك بتفهميها وهي طايرة، بصي يا ستي أنا هنفذ لك كل طلباتك، مقابل خدمة صغيرة خالص هقولك عليها.

ضحكت بسخرية وقالت:

- هتفضل طول عمرك كده ومش هتتغير، قول عايز إيه؟
- طب اسمعي اللي هقوله كويس.

أيام قليلة ويكتمل عقد شهرين على الحادثة، تحسنت حالتي فيهم وانتهت جلسات العلاج الطبيعي، وعدتُ لعملي السابق كسائق تاكسي أجوب شوراع القاهرة بحثًا عن الرزق.

شهران وطيفها يتراقص أمام عيني، و"حسن" لا يترك فرصة إلا ويحدثني عن "سماح" وعن حبها لي، لكن إلى الآن لا أستطيع نسيان حبيبتي، فقد اقتربت منها في أيامها الأخيرة ولمستُ ما كانت تكابده وتمنيت لو أستطيع التخفيف عنها، لكن القدر سبقني.

وها هو يدفعني مرة أخرى نحو المجهول، كنت بالتاكسي بالقرب من المستشفى التي كنت أعالج بها، فلمحتها من بعيد تقف، اقتربت منها وأوقفت التاكسي وقلت وأنا أنظر إليها:

- آنسة "سماح"! أنت واقفة ليه كده؟!

كأن المفاجأة عقدت لسانها، فاحمر وجهها خجلا، واكتفت بابتسامة، ثم قالت بصوت خافت:

- لا أبدًا مفيش حاجة، أنا بس خلصت شغلي ومروحة.

فقلت وأنا أفتح باب التاكسي:

- طب تعالي أوصلك، بدل ما تقفي كده.

لاحظت ارتباكها، لكنها قالت بتعلثم:

- متشكرة، مش عاوزة أعطلك.

شعرت من ردها أنها موافقة، ولكن الخجل يمنعها، فقلت بإلحاح:

- إزاي تقولي كده ميصحش طبعا أسيبك لوحدك في الشارع.

صعدت بجواري على الكرسي، وهي تنظر لي ثم تميل بوجهها خجلا عندما تقع عينيها على عيني، كانت جميلة حقًا كما قال "حسن"، لأول مرة

أنظر لها كأنثى، من قبل كانت مجرد ممرضة تؤدي عملها حتى لو كانت تشملني بالاهتمام والرعاية.

ساد الصمت بيننا فترة، لو أجد ما أحدثها عنه، لكنها فجأة قالت:

- أخبارك إيه دلوقتي؟ العلاج الطبيعي جاب نتيجة!
- آه، الحمد لله، بقيت أتحرك أحسن من الأول، وأهو رجعت لشغلي.
- الحمد لله، يا رب دايما تكون بخير.

عاد الصمت مرة أخرى، صمت أفكاري وصمت خجلها، ظلت تختلس النظرات حتى لاحظتُ فقلت و أنا أبتسم:

- أنت كل يوم بتروحي متأخر كده!
- لا لا مش كل يوم، على حسب مواعيدي، أيام بيكون عندي شغل للصبح و أيام بروح قبل العصر.
- ياه، بس كده تعب عليك.
- طب أعمل إيه بس، ده شغلي و أنا بحبه.
- وفي البيت مو افقين على كده؟
- أيوه طبعًا، هم عارفين مواعيدي وعندهم ثقة فيا.

نظرتُ لها و ابتسمتُ ثم أومأت برأسي الذي عاد إليه الصمت، حتى خطر ببالي موضوع، فقلت و أنا أتصنع البراءة:

- وأخبار " حسن " إيه؟!
- "حسن"!
- أيوه " حسن " الفيلسوف، مش برضو بينكم كلام وكده.
- لا لا أنت فاهم غلط، " حسن " صاحبك أنت، مش صاحبي أنا.

دفعتني براءة ردها إلى نوبة من الضحك الهستيري، أما هي فاكتفت بابتسامة رقيقة وأظنها فطنت لمعنى سؤالي، ثم قالت وهي تنظر لي:

- كنت فاكرة أنك مبتعرفش تضحك، بس ضحكتك جميلة قوي دايما كنت ساكت، كأنك شايل هم الدنيا على كتفك.

تجهم وجهي مرة ثانية، عندما ذكرتني بأيام المستشفى والحادثة، فقلتُ في نفسي و أنا أنظرلها هل هذا ما يعنيه " حسن " عندما قال:

- كل يوم بنعيشه هو هدية من الله، فلا تضيعه بالقلق من المستقبل أو الحسرة على الماضي، فقط توكل على الله واستمر بحياتك.

أخرجتني من ذكرياتي عندما قالت وهي تشير بيدها:

- عند الناصية اللي جاية لو سمحت.

وقفتُ فغادرتْ التاكسي وهي تنظر لي وعيونها تنطق ما تحتوي عليه نفسها من الحب والعشق. فقلت لها و أنا أبتسم:

- الأجرة لو سمحتي يا آنسة.

التفتت بهدوء، وقالت وهي تبتسم وتشير بيدها:

- أبقى خدها من صاحبك " حسن ".

ضحكت بشدة على جملتها وعلي براءتها، وأشرت لها مودعًا.

****

عادت حياتي طبيعية كالسابق، ولم أعد أشعر بأي تعب بل كنت في كامل لياقتي الصحية والذهنية، فضربتُ بنصيحة الأطباء عرض الحائط، وبدأت أحن لحياتي قبل العملية، فبدأت أرتاد الملاهي الليلة كل فترة خصوصًا في الإجازات، وفي ليلة صحبني فيها " عصام "، كنا نجلس سويًّا وفي يد كل منا الكأس، والدخان قد عبق المكان، وسط أجواء الرقص والموسيقى الصاخبة، وقعت عيني على فتاة تنظر لي بعمق، في البداية كنت أظنها نظرة عادية لكن مع الوقت لاحظتُ أن نظراتها لا تفارقني، فبادلتها النظرات، كانت حقًا فاتنة، شعرها ينسدل على كتفها، والمساحيق تزين خديها، تمسك الكأس بيدها وتغمز لي بكل أنوثة ودلال، كأنها تنادي أن أذهب لأجلس معها.

أخذتُ الكأس في يدي وتوجهتُ نحوها، متجاهلا " عصام "، اقتربت منها، وقلت وما زالت عينيها تدعوني برغبة مثيرة:

- الجميل يسمح لي أقعد معاه؟

قالت وهي تلتوي بجسدها بميوعة وتشير بيدها:

- أيوه، وماله طبعا، اسمح لك، اتفضل.

سحبت كرسيًّا بجوارها وجلست، وقلتُ و أنا أضع الكأس أمامي:

- الجميل اسمه إيه؟
- "إلهام"..اسمي "إلهام"

فقلتُ و أنا أضحك بصوت مرتفع، و أترنح مع الموسيقى:

- ياست "إلهام" هانم... هو أنت اسمك إيه؟!

قالت بدلال وهي تضحك وتشير نحوي:

- أوعى تكون أنت البيه البواب!
- لا، أنا البيه "هشام" واللي هناك ده البيه "عصام" صاحبي.

فقالت وهي تنظر حيث يجلس " عصام ":

- تشرفنا بالبهوات.
- الشرف لنا يا جميل، كل طلباتك الليلة على حسابي.
- ميرسي يا "هشام"، كلك زوق.
- "هشام" إيه بقي، قوللي يا " إتش ".
- باين عليك شقي أوي يا " إتش ".
- ده أنا غلبان، بس اللي يشوف جمالك لازم يبقي في دنيا تانية.

فجأة وجدتُ " عصام " يقترب منا ويقول:

- يلا يا "هشام" الوقت إتاخر.

قالت بسخرية وهي تنظر له:

- إيه ده! هو أنتم من الجماعة بتوع الوقت إتاخر والكلام ده.

جذبتُ " عصام" من ذراعه، فانحنى نحوي ، فقلتُ له و أنا أشير نحوها:

- يا عم " عصام "، الموزة قدامك والدنيا فانية والأيام جيالك.

ضحكتْ على كلامي، بينما " عصام " قال وهو ينظر لنا بدهشة:

- خلاص يا عم خليك أنت، و أنا هروح، ماشي؟
- ماشي يا صاحبي، و أنا شوية كده وهقوم أنا كمان.

استأذن " عصام " وخرج وتركني بصحبة تلك الفتاة الجميلة، التي سلبت عقلي بحركاتها المثيرة.

- كويس أنك سبت صاحبك يمشي علشان نقعد لوحدنا.

قالتها وهي تشير لـ " عصام " وهو يغادر إلى الخارج، فقلتُ لها:

- علي رأيك، أصل " عصام " مقفل شوية من ناحية البنات.

أعلنت الموسيقى عن مقطوعة هادئة، فقالت وهي تشير:

- إيه رأيك نقوم نرقص، ولا أنت ملكش في الرقص.

- لا إزاي بقى، طبعا ليا في الرقص، يلا يا جميل.

وقفتُ ومددت لها يدي فأمسكت بها، ووقفت وتوجهنا إلى مكان الرقص، فوضعتُ يدي على وسطها، ووضعت يدها على كتفي، وبدأنا نتمايل على الأنغام الهادئة، فقالت وهي تشبك يدها خلف عنقي.

- أنت بتيجي هنا كل يوم؟!
- أيوه طبعًا، أنت فكر اني طياري، ده أنا زبون دايم هنا.
- إزاي بقى، أنا هنا كل ليلة وأول مرة أشوفك.

تذكرتُ غيابي لفترة أثناء مرضي، فقلتُ لها:

- آه، صح، أنا كنت بس مسافر لفترة ورجعت.
- امممم، طب قرب كده هقول لك حاجة مهمة.

اقتربت منها حتى كدنا نتلاصق، فاقتربت من أذني ولفحتني بعبيرها وهمست لي بسر، جعلني في قمة ذهولي.

****

مع مرور الأيام بدأتُ أقترب من " سماح " لما لمسته فيها من حبها الصادق، وطيبتها وحنيتها الزائدة، بالإضافة لنصيرها الأول صديقي المخلص " حسن " الذي ينتهز كل فرصة ليمتدح أخلاقها، فلم أرَ مفرًّا من انشغال عقلي بها، رغم وقوف قلبي منزويًا، حاضنًا خلجاته، رافضًا أن تسكنه أنثى غير" هبة " لكن ها هو العقل يشهر في وجهه سيف الاقتناع حتى يجبره على الموافقة عليها.

فبدأت العلاقة بيننا تتطور، فكنا نتحدث كثيرًا عبر الهاتف، نحكي ونتسامر ونضحك، لوقت متأخر من الليل، وأحيانا أقوم بتوصليها بالتاكسي حتى بيتها.

كنت أتذكر " هبة " و أقارن بينها وبين " سماح " فيخطر ببالي كلام " حسن " عندما قال لي مرارًا إن " هبة " حبيبتي رحلت، وإن إخلاصي لها لا يعني عدم الارتباط بـ " سماح " أو غيرها، فهذه هي سنة الحياة، التي تقتضي أن نقابل أشخاصًا ونفارق غيرهم، ومع ذلك ستستمر الحياة بنا وبهم أو بغيرنا وغيرهم.

كنت أعرف أن " حسن " هو المستشار الخاص لـ " سماح "، كما هو بالنسبة لي، فأوعز لي أن أقابلها و أحكي لها عن كل ما يدور بخاطري وأسمع منها أيضا، حتى نقترب من بعضنا أكثر، فطلبتُ منها ذلك فو افقت بخجل، فحددت الموعد والمكان وتقابلنا في مكان عام على شاطئ النيل، تحدثتُ معها في أشياء كثيرة تخص حبي لـ " هبة " وكيف أنها ظلمت في حياتها، ودفعت حياتها ثمنًا لمستقبل كانت ترجو أن يكون أفضل من ماضٍ قهرها وأرغمها على الحياة مع رجل في سن والدها.

تأثرت " سماح " بكلامي عن " هبة " وأخبرتني أنها تحب إخلاصي ووفائي لذكراها، وأرادت أن تغير الموضوع فقالت لي:

- أنت تعرف أصحابك من زمان؟

فهمت أنها تحاول إخراجي من تأثري بموضوع " هبة " فقلت لها:

- بصي يا ستي، أنا تعرفت عليهم وقت ما جيت من البلد وكنت بدور على سكن، والسمسار عرض عليا أسكن معاهم، و افقت عشان المصاريف وكده، ومن يومها وإحنا بقينا أصحاب.
- بس أنا لما شوفتكم في المستشفى، حسيت أنك زي أخوهم الكبير، وأنهم مش بيعرفوا يتصرفوا من غيرك.

- عندك حق، أنا فعلا بحس نفسي مسئول عنهم في كل حاجة، حتى لما "هشام" تعب عملت المستحيل عشان أساعده، و" هبة " بقى الله يرحمها هي اللي دفعت تكاليف العملية.
- بس إنتو مختلفين في حاجات كتير، أظن كده يعني.

قلتُ و أنا أضحك على كلامها:

- شكلك بقيتي فيلسوفة صغيرة، وبتتعملي من " حسن " هو كمان بيستغرب إزاي أنا و"خالد" وهشام " أصحاب.

قالت وهي تحاول أن تخفي كسوفها:

- " عادل "، على فكرة أنت فاهم علاقتي بـ" حسن " غلط!
- يا حبيبتي، أنا بثق في " حسن " ثقة عمياء، رغم أني أعرفه من وقت قريب، بس هو صديق بجد وأخ بمعني الكلمة.

احمر وجهها خجلا عندما قلت بعفوية كلمة حبيبتي، وقالت:

- طب بجد بقى أنا كمان بستغرب، "خالد" كويس ومحترم وهادي، لكن "هشام" ده كلامه كده غريب!
- والله "هشام" طيب وقلبه أبيض، بس هو ماشي ورا نزو اته، أهو بقى كويس شوية من بعد العملية، ربنا يسهل.
- طب الحمد لله أنك مش زيه، وإلا مكنتش...

سكوتها المفاجئ، جعل عقلي يسرح حيث الذكريات فقلت:

- مكنتيش إيه يا "هبة "...

قطعت جملتي عندما انتهبت أنها هي من تجلس أمامي وليست " هبة "، فقلت معتذرًا، عندما لاحظت تغير وجهها:

- آسف والله... مقصدتش أجرحك، غصب عني، اعذريني.
- أنا مقدرة حالتك والله يا "عادل" ومش زعلانة بالعكس.

أنا بحترم وفاءك وإخلاصك لها.

- حظك بقى تحبي واحد معقد،

قالت بلهفة، والحب يظهر في عينيها:

- أيوه يا "عادل" بحـ... بحبك، ومش مكسوفة و أنا بقولها.

أسرني تمسكها بي، وتقديرها لموقفي، فقلت مبتسمًا:

- بصي يا " سماح " يمكن أنا مش قادر أعبر عن اللي جوايا، بس أوعدك إني هكون مخلص لك.

أومأتْ برأسها والخجل يصاحبها ولم تعقب، فقلتُ و أنا أشير للعصير الذي أمامها:

- يوم ما ركبتي معايا التاكسي قولت لي خد الأجرة من " حسن " طب دلوقت بقي مين هيدفع لك حق العصير.

قالت بكسوف والابتسامة تعلو وجهها فبدت كالقمر يتوارى خلف السحاب، لكن ما زال نوره يلمع:

- أنت يا حبيبي اللي هتدفع، أمال أنا و افقت أخرج معاك ليه؟

- أنت داخلة على طمع بقى.

أجزم أن هذه المقابلة قربتني منها بشكل كبير، وعرفت كم هي فتاة رقيقة ومؤدبة وذكية، تقدرني وتتمسك بي بشكل كبير، كنا نتحدث ونضحك حتى مر الوقت سريعًا، لم أنتبه إلا عندما رنّ هاتفي فأخرجته لأنظر من يتصل بي، فوجدته صديقي "خالد"، فاستأذنت منها في الرد، وفتحت الخط وقلت:

- أيوه يا "خالد"، خير حصل حاجة؟

فجاءني صوته مضطربًا، وقال وهو ينهج:

- الحق "هشام" يا " عادل "، تعالى بسرعة يا " عادل ".

خرجتُ من الشقة بعدما تشاجرت مع "خالد" ، عندما وجد زجاجة الخمر والترامادول داخل دولابي، وظل يذكرني بما قاله لي الأطباء بعد العملية، فأخذتُ أدور في الشوراع حتى غابت الشمس، فجلست على إحدى المقاهي، وفجأة خطر ببالي أن أتصل بـ " إلهام " خصوصا وأن العلاقة بيننا تطورت كثيرًا في الأيام السابقة، حيث كنا نسهر سويا منذ تعرفت عليها منذ حوالي أسبوعين.

أخرجت هاتفي و اتصلتُ بها وطلبتُ مقابلتها، وأخبرتها أني سأنتظرها أمام الملهى الذي نسهر فيه، وعندما جاءت فقالت مندهشة:

- خيريا "هشام" مدخلتش تستناني جوه ليه.
- مخنوق ومليش مزاج أسهر هنا الليلة، تعالي نشوف مكان تاني نقعد فيه لوحدنا.

فأخذتي حيث شقتها في المعادي، فتحت الباب ودخلنا فقادتني إلى حيث كنبة كبيرة، فجلستُ أتامل تلك الشقة الكبيرة ذات الأثاث الفخم التي لا ينم حالة صاحبتها أنها تمتلكها، أشارت بيدها نحو دولاب صغير يحتوي على زجاجات الخمر، طلبت مني تجهيز كأس حتى تعود.

أمسكت الكأس بيدي و أنا أدور حول نفسي أتفحص قطع الأثاث واللوحات التي تزين الحائط، وبعد دقائق فوجئت بها تحتضنني من الخلف وهي تضحك، استدرت نحوها وما زالت يدها على وسطي فذهلتُ عندما وجدتها ترتدي قميصَ نوم قصير أظهر مفاتنها، فتفحصتُ جسدها العاري، وشعرها الطويل المنسدل على ظهرها، وصدرها النافر الذي يستعد للهجوم، وخصرها الممشوق، وهذا القميص القصير الذي فضح ما تحته، فكان مثل الستارة الشفافة التي تحجز جيشًا خلفها يتأهب لدخول معركة.

كنت أتصبب عرقًا مما رأيته، بينما قالت وهي تبتسم برقة ودلال:

- ما لك! و اقف مبلم كده ليه، عمرك ما شوفت واحدة حلوة!

فقلتُ و أنا أخرج منديلا من جيبي لأجفف به عرقي:

- إيه الحلاوة ده يا "إلهام"، يخرب عقلك، أنت حلوة قوي!

قالت بدلال وهي تميل نحوي بجسمها:

- ده أنت بتعاكس بقى!

- طبعا بعاكس، حد يشوف الحلاوة والجمال ده ويسكت.

سحبتني من يدي وهي تضحك، جلسنا على الكنبة، وأعطتني كأس الخمر، ثم قامت وأدارت جهاز التسجيل على أغنية راقصة وبدأت في وصلة رقص، أظهرت خلالها كمية من الدلع والخلاعة التي أجهزت على عقلي، فكنت أتمايل مع حركاتها وفي يدي الكأس، كنتُ كشهريار في ليلة من ألف ليلة وليلة، فنسيت سبب مجيئي إليها حتى صرتُ أصدر أصوات التشجيع والمعاكسة، مدت يدها لي فوقفتُ أرقص معها و أترنح وأضحك. سقطنا على الأرض وما زلنا نضحك، فأسندتْ رأسها على كتفي فوضعتُ يدي على شعرها وقلتُ و أنا أتنفس بصعوبة:

- هي دي الجنة بقى؟! ولا أنا فين!

قالت وهي تنظر لي وتضع يدها على وجهي:

- أنت لسه شوفت حاجة، الجنة لسه فيها كتير.

مدت يدها لدرج كومودينوه صغير بجوار الحائط، وفتحته وأخرجت منه ورقة صغيرة ملفوفة وفتحتها و أفرغت ما بها على زجاج المنضدة الصغيرة الموجودة أمام الكنبة، و أنحنت برأسها وبدأت تشم تلك البودرة البيضاء التي أفرغتها من الورقة، ثم عادت للوراء وأخذت نفسًا عميقًا، و أنا

أنظر لها باستغراب، فابتسمت وأخذت من الدرج ورقة أخرى و أفرغتها بنفس الطريقة السابقة وقالت لي بدلال لتشجعني:

- يلا "إتش" دورك يا حبيبي، تعالي جرب المزاج العالي إكسير الحياة.

قلت لها بتردد واضطراب و أنا أشير نحوه:

- بلاش أنا يا "إلهام"، عمري ما جربته، علشان خاطري بلاش.

اقتربت مني ووضعت يدها على خدي برقة ثم قالت:

- أنت ليه خايف كده، ما أنا جربت أهو قدامك ولا حصل حاجة، يا حبيبي هي دي الجنة اللي كنت بتسأل عليها.

استجمعتُ شجاعتي و اقتربت بتردد و أنا أنظر لها، فأومأتْ برأسها كي أفعل، ففعلت مثلما فعلت، وبعد لحظات شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي، فأسندتُ ظهري للكنبة، فأشعلتْ سيجارة وأخذت منها نفسًا، ثم أعطتها لي. وقالت:

- حاسس بإيه دلوقتي؟!

طردتُ دخان السيجارة من فمي وقلتُ و أنا أضحك:

- حاسس إن دماغي بتاكلني والشارع اللي ور ايا قدامي.

فقالت وهي تميل بكل جسمها نحوي وتضحك:

- شكلك كان عامل زي العيال الصغيرة و انت خايف تجرب.

وضعتُ يدي أتلمس شعرها، نفختُ فيه دخان السيجارة وقلتُ:

- براحة يا " إلهام " أنا أول مرة أجربه، أنا آخري برشامة ترامادول وكأس ويسكي.

نامت برأسها على رجلي، ونظرت لي وهي تغمز وتقول:

- ده اللي بيجيب من الآخر، هيظبطك يا حبيبي.

قلتُ لها و أنا أبادلها نظرات الاشتياق والرغبة:

- عندك حق، ده أنا نسيت إيه اللي كان معكر مزاجي قبل ما أجي هنا.

ملتُ نحوها برأسي وكدتُ ألامس شفتيها، لكنها هربت بوجهها بعيدًا، وضحكت بغنج ودلال، ثم وقفت ومدت لي يدها، أطفأتُ السيجارة وأمسكتُ بيدها، ووقفت، فجذبتني خلفها وسارت حتى دخلنا غرفة النوم وأغلقنا الباب خلفنا.

****

بعدما تقابلنا وحدثتها في كل ما يجول بخاطري، بجانب محادثاتنا الهاتفية، قررت الذهاب لبيتها وطلب يدها من والدها الذي كان متحفظًا في البداية كما عرفت منها، لكني قررتُ مواجهته ومعرفة أسباب رفضه المسبق لي، وذلك بتشجيع من " حسن " الذي قال لي:

- ثق في قدرتك أنك تستطيع إقناع والدها بك، وذكرني بمقولة " أعد فرسك ليوم الحرب، أما النصر فمن الله ".

رتبتْ لي موعدًا مع والدها، فاصطحبت معي صديقي " حسن "، بعدما رفض "خالد" الذهاب معنا لشعوره ببعض التعب، بينما "هشام" كالعادة لا يحب التقيد بمثل هذة الجلسات الرسمية.

استقبلنا والدها بترحاب وحفاوة، وجلسنا نتحدث لمدة ساعة أو أكثر سألني عن أشياء كثيرة منها ما يتعلق بفترة عملي عند " أبو المحاسن " وقص علينا حكاية الرشوة التي رفضها وكانت السبب في المشاكل التي تعرض لها في عمله.

كانت الجلسة عائلية بدرجة كبيرة، ارتحت لهذا الرجل المعتز بنفسه، الذي رفض الحرام رغم الفقر والحاجة، وشعرت بأنه ارتاح لي، ولم تسلم

الجلسة من قفشات " حسن " الذي كان يتعامل بتلقائية كأنه أحد أفراد البيت.

انتهت زيارتنا بوعد والدها بالرد علينا في خلال يومين أو ثلاثة، حسب التقاليد المتعارف عليها، فلا يصح الرفض أو القبول في أول مرة نزوهم فيها.

خرجنا من البيت و" حسن " يبارك لي ويؤكد أن والدها سيوافق على الخطبة، على الرغم من أني شرحت له كل ظروفي، وعملي كسائق تاكسي، لكن " حسن " هون كل تلك الشكليات.

وبالفعل تلقيت الرد بعد عدة أيام بالموافقة على طلبي، وزرناهم مرة أخرى وقرأنا الفاتحة، وأصبحت " سماح " خطيبتي، إلا أني طلبت تأجيل الخطبة رسميًا حتى تحضر أمي من البلد لتشاركني فرحتي.

كنت أنا و" سماح " نقضي ليالي كثيرة نتحدث عبر الهاتف، وأحيانًا أقوم بتوصليها لمنزلها، لكن ما كان يشغل بالي هو كيفية الانتقام من المدعو" محجوب " لكن ما قالته الدادة مجرد كلام ولا يعد دليلا كافيًا على إدانة هذا الحقير.

عدنا لسهراتنا على المقهى، لكن لم تعد لها فرحة السابق بسبب انعزال "خالد" وقلة كلامه، وغياب "هشام" المستمر بحججه الواهية، لم يعد إلا " حسن " ما يهون تلك الفترة الحرجة التي نمر بها في علاقة الصداقة بيننا.

حدثني " حسن " مرة عن تغير "هشام" وتردي صحتة وتصرفاته العدائية لكني بررت ذلك له بأن هذا هو "هشام" ولن يتغير، لكن المحير في الأمر هو "خالد" الذي لم يعد يتحدث معي كثيرًا ولا يأخذُ رأيي فيما يكتبه. اتفقت مع " حسن " أن نتجمع على المقهى، لنتحدث عن الأسباب التي جعلتنا نبتعد عن بعضنا.

****

كنت أستعد لإجراء صفقة جديدة مع " عبد العزيزبيه " لكن هذة المرة حاولت فرضَ السرية التامة على ما نقوم به، فتحججت ببعض المشاكل التي تعطل وصول الشحنة للمينا، واستأذنت من " أبو المحاسن " في السفر إلى الأسكندرية.

وهناك تحدثت مع " عبد العزيز بيه " لأرتب معه كيفية استلام البضاعة، ولم أنسَ أن أساله عن علاقته بـ " عصام " فأخبرني أنه كان على معرفة بوالده، لكنه رفض أن يزوجه ابنته لما عرفه عنه من الاستهتار وعدم تحمل المسئولية، كلامه طمأنني بعض الشيء، لأني أعرف مدي علاقة " عصام " بالسائق " عادل " الذي أخشى أن تكون " هبة " أبلغته عما سمعته أو عن اتفاقي معها.

كان مصدر خوفي من أن يدخل الشك قلب " أبو المحاسن " من ناحيتي، وهو من يثق في ثقة عمياء، ويترك لي الكثيرَ من الأمور التي أتصرف فيها كيفما أشاء.

تذكرتها فجأة، رغم عدم مو افقتي على ما فعلته لكنها الآن أحد أوراقي الر ابحة وحتمًا سأتخلص منها في الوقت المناسب لما تسببه لي من تهديد، اتصلت بها حتى أعطيها أملًا، فقلت لها متصنعًا:

- أهلا يا روح قلبي، أخبارك إيه؟
- كويس أنك لسه فاكرني.
- ليه بس بتقولي كده، مش اتفقنا خلاص.
- ما أنت يا حبيبي ما بتكلمنيش إلا لو عايز حاجة، وكمان محرج عليا أتصل بيك.
- يا حبيبتي، قدري موقفي، أنا مش عايز حد يعرف اللي بينا.

- قول بقى إنك خايف من المحروسة مر اتك بنت الباشا.
- ملوش لزوم الكلام ده و أنا عند كلمتي، هنفذ لك كل طلباتك.
- ماشي يا " محجوب " لما أشوف أخرتها معاك إيه.
- أخرتها إننا هنتجوز رسمي ونعيش سوا.
- يا خوفي يا " محجوب " نفسي أصدقك.
- صدقيني يا حبي، قولي لي بقى آخر الأخبار إيه؟
- كله تمام، وخلاص العصفور بيفرفر وبيطلع في الروح.
- بر افو، جدعة يا بت يا " لومة "، أيوه كده أمال أنا اخترتك للمهمة دي ليه.
- طب قولي بقى هتعمل إيه؟
- لا يا حبيبتي، أنت كده مهمتك انتهت، متسأليش عن حاجة تانية.
- يعني خلاص أبعد عن الموضوع خالص؟
- لا لا خليك زي ما أنت، واستني مني تليفون، هقولك تعملي إيه.
- طب وإحنا يا " محجوب " موضوعنا هيخلص إمتى؟
- قريب، قريب خالص يا حبيبتي متقلقيش.
- مقلقش!، آآآه يا " محجوب " لو غدرت بيا، هيكون آخر يوم في عمرك.
- قلبك أبيض يا " لومة " اصبري بس وهتشوفي هعمل معاكي إيه.
- طب أنا عاوزة أشوفك ضروري.
- مينفعش خالص الأيام دي، أولا أنا في اسكندرية بخلص شوية شغل، ثانيا عندي مشاكل كتير هخلصها و أبقى تحت أمرك.
- إسكندرية! مقولتش يعني، ولا خلاص استغنيت، مش كل مرة كنا بنسافر سوا.

- معلش، دي مأمورية مستعجلة، ملحقتش اتصل عليك.

حاولت إنهاء المكالمة فقلت لها:

- ماشي يا حبي، أنا مضطر أقفل دلوقتي، وكملي عادي زي ما اتفقنا، باي يا حبي.

أنهيت معها المكالمة و أنا أفكر فيما قالته، وفي الخطوة التالية، حتى أنهي هذا الموضوع وأرتاح منه للأبد، إن لم تكن " هبة " سمعتني يوم الحفل و أنا أتفق مع " عبد العزيز " لما فعلت كل هذا، وكان مر الموضوع في سرية تامة، لكن ماذا أفعل الآن لقد أخترت طريقًا ولا بد أن أسير فيه حتى النهاية.

اتصلت به، ولما قام بالرد، قلت له:

- العصفور بقى مستعد، يلا بسرعة جهز له القفص.

****

كنا نجلس على المقهى كالمعتاد، حتى جاء صوت "هشام" يقول:

- شوفتهم فيديو، الدكتور والممرضة بيمارسوا الجنس في المستشفى.

ثم ضحك بسخرية، فنظرنا له بغضب، فعقب "خالد" قائلا:

- أنت نايم يا ابني، هو فيديو واحد، ده معظم الممرضات كده.

قال "هشام" مدعيًا البراءة:

- عشان كده في الأفلام بيصورا أي واحدة مشيها بطال وبترجع بيتها متأخر، لو حد سألها تقول أنا بشتغل ممرضة.

نظر له "خالد" مؤيدًا رأيه، ثم التفت لنا وقال:

- " إذا رفضتك المرأة فليس ذلك دليلًا على أخلاقها و إنما على تجاربها " المثل بيقول كده.

كنا نستمع لسخريتهم بدهشة، خصوصًا أنني لم أعهد على "خالد" هذة الطريقة من قبل، فقد تحول لشخص آخر، وبدا أنه يلمّح على " سماح " خطيبة " عادل " الذي عقد حاجبيه بعصبية وقال بانفعال واضح وهو يشير نحوهما:

- قصدك إيه بالكلام ده أنت وهو؟

صمت "هشام" وتصنع الانشغال بترتيب أوراق الطاولة، بينما قال "خالد" وهو ينظر لـ "عادل":

- و أنت إيه اللي حارق رزك كده، وزعلان أوي، هو مفيش ممرضة غير السنيورة بتاعتك؟

انتفض " عادل " من مكانه وجذب "خالد" من قميصه، وقال:

- تصدق أنك قليل الأدب، ومش محترم.

وقفتُ مسرعًا و أبعدتهم عن بعض وقلتُ و أنا أشير بيدي:

- الناس بتتفرج علينا، ميصحش كده، صلوا على النبي يا جدعان.

هدأ الجميع وعاد كل منهم للجلوس، فأردفتُ قائلا:

- النت مليان بلاوي، بس إحنا أصحاب ولازم نحافظ على بعض.

شعر "خالد" بأنه أخطأ فيما قاله، فقام و اتجه نحو " عادل " وقبل رأسه وقال معتذرًا:

- أنا آسف والله يا " عادل " والله ما قصدي حاجة.

تقبل " عادل " أسفه على مضض، وعدنا إلى ما كنا نفعله، لكن زاد الشك داخلي، فقد يتكرر نفس الموقف في الأيام القادمة خصوصًا وأن "خالد" رومانسي بدرجة كبيرة وواضح أنه أحب "سماح" فعلا.

****

مرت عدة أيام على ما حدث بيننا في المقهى، ورغم أننا عدنا كما كنا لكني لاحظت تغيرًا في تعامل "خالد" معي، لم يعد يتحدث معي كثيرا كالسابق، ودوما يتحجج بانشغاله في الكتابة، ومما جعلني أنشغل بعض الشيء أيضا خبر حفظ التحقيق في الحادث الذي راحت ضحيته "هبة"، مما أصابني بالإحباط وحاولت جمع أي معلومات تساعدني في الوصول للفاعل الحقيقي للجريمة.

وفي ليلة اشتقت لرؤية خطيبتي " سماح "، فاتصلتُ بها و اتفقنا أن نتقابل بعد انتهاء عملها بالمستشفى، وصلتُ قبلها فركنت التاكسي وأشعلتُ سيجارة حتى تأتي، ولا أعرف ما سبب تفكيري في كلام "خالد" و"هشام" عن الممرضات، رغم علمي بأخلاقها وتربيتها.

أتت " سماح " مسرعة، فتحت باب التاكسي وركبت بحواري وهي تقول معتذرة:

- آسفة والله يا " عادل " اتأخرت غصب عني.

أومأت لها برأسي و أنا أبتسم، وأدرت محرك التاكسي وعقلي مشغول في المشاكل التي تحيط بي، حتى أنها لاحظت وجومي فقالت:

- ما لك يا " عادل "، فيه إيه يا حبيبي مش عواديك تسكت كده.

نظرتُ لها وقلتُ رغم توقعي الإجابة:

- " سماح "، هو ممكن يحصل أن دكتور وممرضة يكونوا سوا لوحدهم في أوضة الكشف يعني من غير حد معاهم.

مطت شفتيها بتعجب، وقالت:

- مش فاهمة تقصد إيه، بس إحنا مستشفى كبيرة، ومفيش وقت أصلا نقعد نتكلم، وحتى أوضة الكشف بتكون دايمًا مليانة ناس.

ثم قالت وهي تنظر لي بدهشة:

- في إيه يا " عادل "، أول مرة تسألني السؤال ده؟
- لا أبدًا، بطمن عليك بس، ولا مش من حقي؟
- من حقك طبعا يا قلبي، و أنا مبسوطة إنك بتغير عليا، بس اطمن خطيبتك راجل أوي وعمرها ما تسمح لحد يتعدى حدوده.

قلت و أنا أضحك وأشير لها:

- يعني دلوقت أنا هتجوز راجل، طب ينفع كده، طب مش كنتي تعرفيني من الأول.

ابتسمت بخجل ونظرت لي بشوق يظهر في عينيها:

- أيوه راجل مع الناس كلها، إلا معاك أنت يا حبيبي.

ثم عقدت حاجبها وقالت بجدية:

- " عادل " يا حبيبي، مالك، حاسة أن فيه حاجة مضيقاك.

فقلت و أنا أتنهد بمرارة وحزن:

- والله يا "سماح" الحاجات اللي تضايق كتير، علاقتي مع أصحابي بقت غير زمان، وموضوع التحقيق في حادثة " هب... ".

عندما قطعتُ كلامي، قالت وهي تنظر لي بحنان:

- "دولة" يا حبيب قلبي، أنا مش هغير من واحدة مش موجودة معانا، أنا عقلي أكبر من كده، وقلتُ لك قبل كده أنا حبيتك أكتر علشان إخلاصك لها وعارفة أنها اتظلمت كتير، ربنا يرحمها.

تصنعتُ النظر للطريق أمامي، خوفًا من أن تلمح الدموع في عيني عند ذكر اسم " هبة " وقلت لها:

- متشكر أوي يا "موجة" على وقفتك جنبي، وتفهمك للظروف.

حاولت تغيير الموضوع، فمالت برأسها على كتفي وقالت:

- أنت هتوصلني لحد البيت وتطلع تتعشى معانا، ماشي؟

- بلاش الليلة يا حبيبتي، أنا متفق معاهم هنسهر على القهوة الليلة.
- يوووه يا " عادل " هي القهوة أحسن مني، طب ما تسهر معانا.
- لا طبعا القهوة مش أحسن منك، بس أنا وعدتهم وإن شاء الله هسهر معاكم مرة تانية.
- ماشي براحتك، بس اعمل حسابك بعد الجواز مفيش سهر برة البيت.
- حاضر يا ستي، بس مكنتش أعرف أنك بتغيري عليا من أصحابي.
- بصراحة أنا برتاح لـ"خالد" بس "هشام" ده مش عارفه ماله كده، كمان "حسن" طيب قوي وحاسه كده إن عقله كبير وبيفهم، وصعب عليا لما عرفت منك اللي حصل له.

ضحكتُ بصوت مرتفع كأنني أرى صورة " حسن " في زي المهرج وقلت لها: ضاحكًا:

- عقله كبير إيه!، ده مجنون رسمي، حد يسيب التدريس ويروح يشتغل مهرج للأطفال.

قالت وهي تبتسم:

- والنبي يا " عادل " باين عليه طيب وغلبان، كمان متنساش اللي حصل له مش سهل، الله يكون في عونه.

أخذت أتمتم بهمس ثم قلت لها:

- ما علينا، المهم أخبار بابا وماما وإخواتك إيه؟
- الحمد لله كلهم بخير، وبابا بيسأل عليك دايما، وبيسأل عملت إيه في موضوع الحادثة.

أسندتُ ظهري إلى المقعد وقلتُ:

- الحادثة اتقيدت ضد مجهول، و أنا معنديش أي معلومات مفيدة، وكل اللي ضد "محجوب" مجرد كلام.
- إن شاء الله يا حبيبي توصل للحقيقة.

نظرتُ لها بحب وتقدير لموقفها، وكنا اقتربنا من منزلها، فطلبتُ منها توصل سلامي لكل العائلة، نزلت وهي تشيرلي بحب، ودعتها وعدت بالتاكسي للجراج الخاص به، وفجأة و أنا أقوم بغلق نو افذ التاكسي، وجدته بجواري على المقعد، فابتسمتُ عندما لاحت أمامي نظرتها الباسمة، فأخذته في يدي وصعدت لشقتي.

****

وصلتُ إلى المقهى فلمحتُ من بعيد " عصام " يجلس بمفرده يحتسي قهوته، فاقتربتُ منه، وسلمتُ عليه وجلستُ بجواره وقلتُ:

- إيه يا عم اللي مقعدك لوحدك كده، أمال فين صاحبك؟!
- قصدك "هشام"؟ والله يا "عادل" أحواله الأيام دي تحير وكمان مصاحب بنت كده مش مظبوطة وتقريبا بينهم حاجة.
- من يوم ما عرفت "هشام" وهو كده، عامل زي الطفل الصغير لما يشبط في حاجة جديدة، بس شوية وبيزهق منها ويسيبها.

طلبتُ فنجان قهوة، وأخذت أتحدث أنا و" عصام "وبعد فترة قصيرة ظهروا من بعيد، فقلت و أنا أشير نحوهما:

- أهم شرفوا، مش قلتُ لك زمانهم جايين.
- إيه يا بني أنت وهو كنتوا فين؟!
- لا أبدا، قلنا نتمشى شوية علشان عارفين أنكم بتتأخروا.

ثم أشار "خالد" له وقال كأنه يتحاشى الجلوس معي:

- ما تقوم يا "هشام" نلعب عشرتين طاولة.

اتخذوا مكان بالقرب منا، و انشغلوا باللعب، وبعد فترة، وقف تاكسي بالقرب من مدخل المقهى، ونزل منه " حسن " وهو يرتدي ملابسه الغربية ذات الألوان الكثيرة، ووجهه الملون الذي يشبه لون بيض شم النسيم كما أطلق عليها "هشام"، ضحكنا جميعا على منظره، وهو يتخبط بشنطته التي يحملها: وبدأ كل واحد منا يلقي بسخرية عليه:

- إيه ده يا ابني... أنت رايح حفلة ولا إيه؟!

- ما تعمل فقرة هنا وتبسط الناس.

جذب " حسن " كرسي، وجلس يلتقط أنفاسه، ووضع شنطته على الأرض بجواره، وتناول شربة ماء، ثم قال وهو ينظر لنا:

- خلاص... خلصتوا تريقة، طب والله لأنفذ كلامكو!

كنا نظن أنه يضحك، لكنه وقف في منتصف المقهي، وسط ضحكاتنا وأخذ يقوم ببعض الحركات المضحكة فتعالت صحيات وضحكات رواد المقهى الشعبي، فهو بالفعل ماهر جدا فيما يقوم به، فقد جمع بين الثقافة والهو اية التي يحبها، فبدا مختلفًا عن أي مهرج قد تراه.

وبعدما قام بعدة فقرات مسلية، وهو يدور بخفة بين أرجاء المكان، نال استحسان كل الحضور، لمحت عليه الإرهاق فجذبته من ذراعه وقلت و أنا لا أتمالك نفسي من الضحك:

- تعالى هنا يا مجنون، كفايه، إيه اللي بتعمله ده؟

ألقى بجسده على الكرسي وهو ينهج ويتنفس بصعوبة من فعل الحركات التي قام بها، ثم قال:

- مش ده طلبكم، و أنا نفذته.

- أنت مجنون يا بني، إحنا كنا بنتريق على منظرك ده.

قال لي وهو يبتسم:

- أعمل إيه يا " عادل " ملحقتش أغير هدومي، قلت أبقى أغير هنا.
- ماشي يا سيدي شكرا على الفقرة الجميلة، قوم بقى غيّر.

وقف متوجها لحمام المقهى ليستبدل فيه ملابسه، لكنه قال:

- وبعدين الأخ " فيكتور هوجو " بيقول: "من السهل مقاومة غزو الجيوش، لكن من الصعب مقاومة فكرة آن وقتها".

قال "عصام" مازحًا:

- الله... الله.. يا عم الفيلسوف.

فقال وهو يشير بصبي المقهى بمساعدته:

- أنا بقى طقت في رأسي فكرة أني أعمل فقرة هنا ونفذتها.

ضحك "هشام" بصوت مرتقع وقال:

- مكدبش اللي سماك، " الفيلسوف المجنون "، يعني الواحد لما تيجي في رأسه أي فكرة، يقوم منفذها كده من غير ما يفكر.
- طبعا..طبعا، لا تؤجل فكرة اليوم إلى الغد.

وقفتُ و أنا أدفعه من ظهره وقلت له:

- خلص يا عم، روح غير هدومك وتعالي نقعد شوية.

عاد " حسن " بعد دقائق، وجلس بجواري، فقلتُ و أنا أرفع صوتي حتى يسمعني "خالد" و"هشام":

- أنا نويت أعمل حاجة مهمة أوي الأسبوع الجاي.

نظر الجميع لي بدهشة، و لم يعقب منهم أحد.

****

كعادتي في بداية كل يوم عمل لي في المكتبة، أقوم بترتيب بعض الكتب التي تركها المترددون، ثم أقوم بتسجيل اليوميات، فإذا بي أجد "هشام" اتجه نحوي و جلس أمامي فوق المكتب، ونظر لي وعلى وجهه ابتسامة لم أعرف معناها، فقلتُ له:

- ما لك يا "هشام" بتبص لي كده ليه؟!

ضحك "هشام" بسخرية وقال وهو يشير بيده:

- شوفت الشريفة اللي كنت بتحبها بتعمل إيه مع صاحبك؟
- تاني يا "هشام" إحنا مش هنخلص من الموضوع ده بقى!
- أنا بس بعرفك أنك كنت غبي لما فكرت تحب واحدة زي دي، وكمان كنت بتفكر ترتبط بيها.
- وضح كلامك يا "هشام" تقصد إيه؟
- يا بني اتعلم من صاحبك " عادل "، أنت فاكر أنه هيتجوزها بجد، ده هيأخد غرضه منها و يرميها، لكن حضرتك عامل فيها عاطفي و حب و كلام فارغ.
- يعني إيه هيأخد غرضه ويرميها، عيب يا "هشام" الكلام ده.

تلفت حواليه، ثم اقترب مني وهمس:

- سمعتهم الصبح بيتفقوا إنها هتروح له الشقة قبل ما نرجع من الشغل.
- معقولة "عادل" يعمل كده! استحالة طبعا، لا لا أنا مصدقش الكلام ده.
- خليك عبيط و أهبل كده و لو مش مصدق أبقى إستأذن من الشغل بدري شوية وروح شوفهم بنفسك.

- "هشام" أنت بتتكلم جد؟! ولا عاوز توقع بيننا زي ما " حسن " بيقول!
- " حسن "!، أهو "حسن" ده كمان مش مظبوط وتلاقيها بتروح له شقته ولا نسيت لما كنا في المستشفى وهما كانوا بيضحكوا وبيهزروا سوا.
- حرام عليك يا "هشام"، أظن "سماح" مش من النوعية دي، ومش عشان رفضت حبي يبقى أصدق أنها مش كويسة.
- يا ابني دي بت ملعب، وكمان أبوها كان متهم بالرشوة يعني العيلة كلها مشمومة.
- يعني إيه الكلام ده؟!
- يا ابني افهم، الموزة طلعت شمال، وعادل وقف التاكسي والعداد شغال.
- طب نروح سوا، ونشوف الكلام ده صح ولا لاء.
- أنا مصدق، الدور والباقي عليك أنت يا عم العاطفي، وبعدين أنا عندي مشوار ضروري، شوية كده واستاذن أنا وروح.

خرج "هشام" وتركني في دوامة الشك، أيكون صادقا في كلامه، وتكون تلك الفتاة التي رسمتُ لها في خيالي صورة جميلة، وحلمت بها ليالي قبل أن ترفض حبي، أتكون بمثل هذة الوضاعة، هل تتخفى وراء ستار من الرقة، قررتُ قطع الشك باليقين وعزمتُ أن أذهب لأرى بنفسي، حتى أعطي المبرر لقلبي ليكرهها ويطردها منه ويندم أنه فكر في حبها يوما ما. غبتُ في بئر التفكير لبعضة دقائق، وبالفعل استأذنت وتوجهت إلى الشقة، ولما وصلتُ فتحتُ الباب بهدوء وحذر، وسرتُ على أطراف أصابعي في اتجاه غرفة " عادل " واسترقتُ السمع فسمعتُ

أصواتا خافتة، نظرتُ من ثقب الباب فرأيت شالا ملونًا شاهدتها ذات مرة تلفه حول رقبتها، صدمتُ وأسندتُ ظهري للباب وأنا أكتم أنفاسي حتى لا ينتبهوا لي.

لحظات من الصمت وأنا غير مصدق ما يجرى من حولي، كيف لفتاة مثلها تسمح لنفسها بمثل ما تفعله الآن، وكيف لـ " عادل " أن يأتي بها إلى هنا في غيابنا، هل حقًا كما يقول عنه"هشام" سيأخذ منها غرضه ويرميها، تسارعت ضربات قلبي عندما سمعت الذي دار بينهما، حين قالت له:

- لا لا "يا دولة"، أرجوك إحنا متفقناش على كده!
- أمال إتفقنا على أيه يا "موحة"؟
- يا حبيبي، اصبر شوية، أكيد فيه حلول كتير.
- لا لا، مش هصبر تاني، أنا خلاص قربت أتجنن.
- ما أنت فعلا مجنون، إيه يا " دولة " أول مرة أشوفك كده.
- بطمن عليك بس، ولّا مش من حقي.
- من حقك طبعا يا قلبي، وأنا مبسوطة إنك...

عاد الحوار بينهما إلى همهمات غير مفهومة، لكني تأكدت أنهما الآن سويا، وأصابتني حالة من الذهول، وصرتُ ألعن اليوم الذي فكرت فيه أن أحب فتاة بتلك الحقارة، كل كلام "هشام" عنها صادق.

كدت أكسر الباب وأدخل، وأصرخ فيهما، لكني تمالكت نفسي وتراجعت للخلف فلم أنتبه عندما ارتضمت قدمي بأحد الكراسي الموجودة في الصالة، وكدتُ أسقط على الأرض لولا أن تشبثت بالمنضدة الموجودة بمنتصف الصالة، واستعدتُ توازني، لكن دموعي لم تستطع المقاومة فسقطت رغما عني، فاستدرتُ بوجهي وسرتُ بعض خطوات ناحية باب الشقة، وأنا...

عدتُ إلى الشقة بعد الظهر، لأنال بعض الراحة قبل أن أعود للعمل بعد العصر، اتصلتُ بـ "سماح" وأخبرتها بما نسيَتهُ بالتاكسي ليلة أمس، فابتسمت خجلا عندما قلتُ لها أنني نمت وهو بين أحضاني، فاتفقنا على أن نتقابل عندما تنتهي من عملها في الخامسة.

فتحت باب الشقة، وهممتُ بإخراج المفتاح، و أنا أتفقد الشقة، فإذا بي أجد "خالد" راقدًا وسط الصالة، فأسرعتُ نحوه، فوجدته منكبًا على وجهه حاولتُ أن أقلبه على ظهره فرأيتُ عينيه جاحظة ولسانه قد خرج من فمه وشفتيه زرقاء كأن الأكسجين خاصمها من مدة، فراعني منظره وحاولت إفاقته لكنه لم يستجب ووجدت الشال الذي نسيته " سماح " بالتاكسي ملفوفًا حول رقبته فأخذت أهزه بقوة وأصرخ بأعلي صوتي و أنا أحتضنه بين ذراعي:

- "خالد"... "خالد" رد عليا يا "خالد".. مين عمل فيك كده؟

وضعتُ رأسي على صدره فتيقنت أنه فارق الحياة، ففارقت الدموع عيني وسقطت على وجهه، و أنا في حالة هستيرية، أصرخ وأنادي عليه، سمعتُ صوت الباب، فانتبهت فإذا هو "هشام" يقف ويده على فمه وهو ينظر لي بذهول فقلت بصوت مخنوق بالبكاء:

- "هشام"، إلحقني يا "هشام"، "خالد"...

قاطعني " هشام" وقال وهو يبكي ويصرخ:

- ليه كده يا "عادل".. ليه قتلته يا "عادل" هو عمل لك إيه؟

أذهلني ما قاله، ونظرت له بعين باكية، مسحت عنها الدموع وقلتُ و أنا أصرخ فيه:

- أنت بتقول إيه!، أنت مجنون، أنا هقتله ليه؟!

اقترب وجثى على ركبتيه وقال وهو يبكي:

- أيوه يا "عادل" عشان البت الممرضة تقوم تقتل صاحبك.

تحاملتُ على نفسي ووقفتُ بصعوبة، وجذبته من قميصه فوقف فصرخت فيه:

- اخرس، أنا دخلت لقيته كده، صدقني يا " هشام ".

خلص قميصه من قبضة يدي، وقال وهو يشير لمكان رقود "خالد":

- أنت عايز تقتلني، زي ما قتلته، حرام عليك ليه كده.

فقلتُ باكيًا و أنا أضع يدي فوق رأسي ووجهي:

- حرام عليك، حرام عليك أنت، اسكت، والله ما قتلته.

تجمع الجيران على الصوت، ووقفوا مذهولين من منظر جثة "خالد" المسجى عليه، فصرخ فيهم "هشام":

- اشهدوا يا ناس، " عادل " قتل صاحبه، دخلت لقيته قتله.

وقفتُ كالمجنون و أنا أنظر في عيون الناس من حولي و أقول:

- صدقوني والله ما قتلته، والله "هشام" كداب.

قال "هشام" وهو يصرخ ويشير نحوي:

- والخناقة اللي كانت في القهوة والشال اللي على رقبة "خالد" مش بتاع حبيبة القلب اللي قتلت صاحبك علشانها.

بعد لحظات تجمع الناس، وصلت الشرطة، فاصطحبوني معهم أنا و"هشام" وهو يصرخ: أنا ما ليش دعوة أنا دخلت لقيته مقتول.

تم إخلاء سبيل "هشام" لأني أول من وصل لمكان الجريمة، فأنا المتهم الوحيد، وحرر المحضر داخل القسم على أن أعرض على النيابة.

في المساء وقرب مكتب وكيل النيابة كان يقف " حسن " في انتظاري وعلى مقربة منه تقف " سماح " التي بكت عندما رأتني فاحتضنها والدها

فدفنت رأسها في صدره والدموع تنهمر من عينيها، وأسرع " حسن " نحوي واحتضنني وأخذ يشد على يدي ويطمئنني بأنه وكل لي محاميًا، وجذبني العسكري من ذراعي و أنا أنظر لـ " سماح " التي لم تستطع التفوه بكلمة بسبب دموعها.

شرحتُ لوكيل النيابة كل ما حدث، منذ دخول الشقة ورؤية "خالد " في تلك الحالة، حتى دخول "هشام" وتجمع الجيران حولنا، فأمر وكيل النيابة استمرار حبسي على ذمة التحقيق، وخرجتُ من عنده، ووقفت لحظات مع " حسن " و" سماح " و أنا أقسم لهم أنني لم أقدم على تلك الجريمة البشعة، فقد كان "خالد" الأقرب إلى قلبي.

وسط دموعها أكدت لي " سماح " أنها تثق في براءتي، وكذلك " حسن " الذي وعدني بعمل المستحيل لإثبات براءتي.

ودعتهم وسرت لقضاء ليلتي الأولى داخل الحبس، وهنالك لم يغمض لي جفن، وأخذتُ أفكر في تلك الأحداث المتلاحقة السريعة فها هو القدر يخطف مني أقرب الناس إلي، في البداية كانت "هبة" والآن فقدتُ صديقي المخلص "خالد"، واتهمتُ بقتله، وقبيل الفجر طرحني الإرهاق أرضًا، فرحتُ في سبات عميق...

تناثرت الحبات كاللؤلؤ الأبيض وسقطت متباعدة و انتشرت فوق الأرض وهالني المنظر فأنى لي أن أجمعها وأنا بهذا التعب والإرهاق؟ ليس الوقت المناسب للقيام بمجهود آخر إلا أني استجمعت قواي وصممت أن أصيب الهدف وأن أعرف الحقيقة، مهما كلفني الأمر. بخطوات تائهة وبجسم أنهكه التعب مشيتُ رويدًا رويدًا خلفها وكل حين ألتقط واحدة منها فقد كانت المرشد لي والسبيل الوحيد لمعرفة الطريق

الصحيح بعدما عرفتُ بدايته الحقيقية وعلى غير المتوقع سمعت أنين طفل أفزعه شيئًا ما فأصبحت في حيرة من أمري، توقفت أنظر إلى اللؤلؤ المنثور وأسمع الصوت، هل أتركها وأستجيب لهذا الهاتف الصغير وأرى ما يفزعه؟ اخترت أن أتركها بعدما حددت المكان وتركت فيه إشارة يضيء نورها لي الطريق نحو الصوت الآتي من مكان مجهول اقتربت رويدًا رويدًا من صوت أنين الطفل وكلما اقترب أشعر بأن هناك حدث عظيم ينتظرني...

انتفضتُ من نومي على صوت يهتف باسمي، فكان الحارس يخبرني بموعد التحقيق الصباحي أمام النيابة. وفي الطريق المؤدي إلى حجرة رئيس النيابة، لمحتها تقف، تلاقت العيون فأسرعت نحوي، لتأخذني بين أحضانها ورحنا في نوبة شديدة من البكاء.

****

جلستُ داخل مكتبي أتصفح مو اقع الإنترنت التي نشرت تفاصيل الحادث وبجوارها صورة للجاني تحت عنوان: "صديق يخنق صديقه بسبب فتاة".

ابتسمت و أنا أطالع التفاصيل، وأخذت أتنفس الصعداء، ها أنا ارتحت من الذي أرّق نومي لعدة أيام، كيف لهذا المجرم أن يحوم حول زوجة أبو المحاسن ويحصل منها على مبلغ كبير ليعالج صديقه، ثم يقتل صديقه الآخر من أجل فتاة.

استدعاني الباشا لمكتبه، فدخلت و أنا أطير من الفرحة والسعادة تتر اقص في عيني، فأقبلت نحوه مبتسمًا، وقلت:

- مبروك يا باشا.
- مبروك على إيه يا " محجوب "!، خير؟

جلست على الكرسي المقابل له، وقلت و أنا أشير للكمبيوتر المفتوح أمامه على المكتب:

- الواد السواق اتقبض عليه إمبارح بعد ما قتل صاحبه.

لمعت عينه وهو ينظر لي غير مصدق ما قلتُ، فأردفتُ قائلا:

- ده طلع واد مجرم، مجند معاه عصابة.
- على كده المجرم ده هو اللي ضحك على " هبة " وعمل نفسه بيحبها، وهو كان عاوز يبتزها وياخد فلوسها.

ثم أسند ظهره لظهر الكرسي، وتنهد بعمق وقال:

- الله يرحمها بقى، إن كانت ظالمة أو مظلومة، أهي أخدت جزاءها.

عقبت على كلامه و أنا أنظر في الجهة الأخرى:

- فعلا أخدت جزاءها.

- بس إزاي يا " محجوب " تشغل مجرمين عندنا في الشركة؟
- مكنتش أعرف يا باشا، أنا فوجئت بطلب صاحبه يوم الحفله وبعدين مؤهلاته كويسة، وشكله ابن ناس.
- معاك حق يا " محجوب " اللي تحسبه موسى يطلع فرعون.
- لو تعرف يا باشا الواد ده قتل صاحبه ليه هتستغرب.
- إزاي، قتله إزاي، وليه؟
- خنقه، خنقه يا باشا بشال خطيبته.
- هو السواق ده خاطب؟!
- أيوه يا باشا، أمال حضرتك فاكر إنه كان بيحب " هبة "، ده خطب بعد الحادثة، بت ممرضة و اتخانق هو وصاحبه عشانها.
- يعني يقتل صاحبه علشان بنت!
- أمال لو عرفت بقى يا باشا، البنت دي تبقى مين، مش هتصدق.
- تطلع مين بقى بسلامتها؟
- بنت الرجل بتاع الشهر العقاري اللي كان هيبوظ لنا موضوع الأراضي.
- دي عصابة بقى يا " محجوب " وبيخططوا وعارفين بيعملوا إيه.
- مش كده وبس يا باشا ده كمان فيه واد مصاحبهم ابن المرحوم " أبو الوفا " وكان متقدم لبنت " عبد العزيز بيه " بس رفضه، أصله واد كده لا شغلة ولا مشغلة.
- معقولة يا " محجوب " كل ده، وتقوم تشغله في الشركة طب ليه مسألتش عنه كويس الأول، مكناش وصلنا لكده.
- أهو هياخد جزاؤه يا باشا، القضية لبساه وكل الأدلة ضده، أقل حاجة فيها إعدام.

- يا ريت يا " محجوب " زي ما غوى مر اتي، وكان السبب في موتها.

أومأت برأسي على كلامه، واستأذنت منه، وذهبتُ لمكتبي مسرعًا، ولما جلستُ، أمسكت بهاتفي و اتصلتُ بها لأزف لها خبرًا يفرحها، وعندما قامت بالرد على اتصالي، قلت لها و أنا أضحك:

- إيه رأيك نقضي سوا كام يوم في إسكندرية، جهزي نفسك واسبقيني هناك و أنا هحصلك.

****

مرت الأيام ثقيلة و أنا داخل الحبس، ورغم حضور أمي الذي غمرتني بحنانها وهونت تلك الأيام علي، لكني أشفق عليها من رؤية ابنها الكبير متهما في قضية قتل صديقه.

أحالت النيابة القضية لمحكمة الجنايات، وتحددت الجلسة الأولي للمر افعة والاستماع للشهود، دخلتُ قاعة المحكمة مكبلًا بالحديد، نظرتُ للموجودين فر أيت والدتي تجلس وقلبها يرنو نحوي، والدموع تصاحب عيونها، تفصل بيننا القضبان الحديدية فلا أستطيع أن ألقيَ بنفسي بين أحضانها، " حسن " هذا الصديق المخلص الذي يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، لفقده صديقًا والآخر بين القضبان، ومن خلفهما "سماح" التي تحبني بجنون وتحاول إسعادي، كانت في حالة ذهول وترقب وراحت في غياهب السراب والحسرة ووالدها يشد من أزرها. نظرتُ لهم والدموع تنهمر من عيني لم يخطر يومًا ببالي أن أتهم بقتل صديقي.

اقتربوا جميعًا مني، و أنا أنظر لهم بحيرة وعجز، فقال "حسن " وهو يحاول إخفاء دموعه:

- اجمد يا "عادل" إن شاء الله خير.

فقلت و أنا في قمة اليأس وهروب الأمل كغريق ينتظر حتفه:

- "حسن"، صدقني، والله ما قتلت " خالد، صدقوني كلكم، والله ما قتلته يا أمي.

- مصدقاك يا حبيبي، يا ابني أنت تربيتي وعارفه إن عمرك ما تخون صاحبك.

كانت " سماح " تبكي وتربت على كتف أمي، ولم أستطع النظر لهم فخفضتُ رأسي كطائر ضعيف لا حول له ولا قوة ينتظر شحذ سكينة ذبحه.

فقال " حسن " و هو يشير لي و يصرخ:

- ارفع رأسك لفوق يا "عادل"، " الأسود لا تنكسر ولا تنحنِ بسهولة كالبشر، فالأسد ستسمع زئيره حتى وإن كان خلف القضبان ".

وقف الجميع على صوت الحاجب يعلن دخول القضاة إلى المنصة وبدأت المحاكمة، بكلمة رئيس النيابة الذي أفاض فيها بمدى بشاعة الجريمة وفحش الجرم الذي ارتكبه المتهم بقتله صديقه غدرًا مع سبق الإصرار والترصد، وطالبت النيابة بتوقيع أقصي العقوبة على المتهم.

جاء دور الشهود فنادى الحاجب على "هشام"، الذي أصر على أني من قتل "خالد" وقصّ ما حدث عندما شاهدني وفي يدي الشال، وذكر خناقة المقهى.

ذهلتُ مما قاله "هشام" فأول مرة أعرف أن "خالد" كان معجب بـ " سماح "، ثم نادى الحاجب على "حسن" الذي نفي تمامًا التهمة عني كما نفى معرفتي بموضوع إعجاب "خالد" بـ " سماح "!

ثم جاء الدور على " سماح " لتدلي بأقوالها فقالت وهي تبكي أني استحالة أقتل صديقي الذي أحبه، وأنها لم تشعر بإعجاب "خالد" لها وأنها نسيت الشال في التاكسي ليلة الحادث.

طلب الدفاع التأجيل لإعطائه فرصة أكبر للاطلاع على كافة مستندات القضية، فوافقت هيئة المحكمة ورفعت الجلسة لتنعقد في موعدها الجديد.

لم تتمالك أمي نفسها، وكادت تسقط إلا أن " حسن " لحق بها، وأنا أصرخ وأقول:

- خلي بالك من أمي يا " حسن " أنت و" سماح ".

****

دفعني الملل لفتح الكمبيوتر وتصفح بعض مواقع الأخبار على الإنترنت، فلفت نظري خبر عن محاكمة السائق المتهم بقتل صديقه، فبدأت أقرأ التفاصيل وأشاهد الصور المرافقة لها، فلفت نظري صورتان، صورة لسيدة تحتضن المتهم وصورة أخرى لنفس السيدة تحتضن فتاة وهما يبكيان بشدة.

أذهلني ما شاهدته، فانتفضتُ من مكاني وأخذت أتجول بداخل المكتب وأنا أفكر، وفجأة استدعيتُ السكرتيرة فجاءت مسرعة فقلت لها بعصبية:

- شوفي " محجوب " فين، خليه يجي بسرعة؟
- "محجوب بيه" خرج من شوية يا باشا؟

قلتُ وأنا أصرخ فيها:

- خرج إمتى، وراح فين؟

ارتبكت السكرتيرة وقالت بخوف:

- راح المصنع يا باشا من شوية، فيه حاجة يا باشا؟

جلستُ على مكتبي، نظرتُ بضيق و أنا أشير لها بالانصراف، فأومأتْ برأسها مستأذنة وخرجت مسرعة، فأمسكت بهاتفي وطلبته وقبل أنا يجيب قلتُ بعصبية:

- " محجوب " تعالى لي حالا، متتأخرش يا " محجوب ".
- أوامرك يا "باشا".. ساعة وهكون عند سعادتك.

وقفتُ في مكاني وقلتُ:

- لا لا ساعة كتير يا "محجوب"، طب اسمع أنا هبعت لك صور وعايزك تعرف كل حاجة عن الناس اللي في الصور دي.
- صور إيه يا "باشا "؟! وناس مين؟

قلتُ و أنا أصرخ فيه:

- فيه إيه يا " محجوب " ما ده اللي عاوز أعرفه.
- أنا بحاول افهم بس يا باشا.
- هتفهم كل حاجة بعدين، بس اعمل اللي بطلبه منك، عاوز أعرف كل حاجة عن الناس اللي في الصور دي بسرعة.
- أوامر سعادتك يا باشا.

أنهيتُ المكالمة مع " محجوب " وأسندتُ ظهري لكرسي المكتب و أنا أعيد قراءة تفاصيل تلك الحادثة، وأدقّق النظر للصور أمامي مرات و مرات، وأخذتُ أفكر وأستحضر في ذهني كل ما مر بي في حياتي، وقفتُ كأنني تذكرتُ شيئًا ما، فأخذتُ أتجول داخل مكتبي وكلي حيرة وذهول مما رأيته، هل هي حقًا؟، هل الدنيا صغيرة إلى هذا الحد إن كانت هي، ماذا أفعل معها؟

هل أذهب لمقابلتها؟

كثرة التفكير ستسلمني للجنون، عدت إلى الكرسي وقمت بفك رابطة العنق، وأسلمتُ رأسي إلى يدي، ورحت في غياهب الماضي بأحلامه ومآسيه وحقائقه.

****

- اسمع يا " كمال"، الكل شهد ضدك والحقيقة ظهرت و أنا عشان سمعتي وسمعة الشركة، هكتفي بفصلك من الشغل، أنا مش عايز وجع دماغ.
- يا سعادة البيه، أنا بشتغل معاكو من زمان بكل إخلاص.
- عشان كده أنا كنت سايب لك الشركة أمانة، بس أنت طلعت خاين وما حفظتش على لقمة عيشك.
- ده مقلب لأنهم بيحقدوا عليا، وعاوزين يأخذوا مكاني.
- يا "كمال"، الناس اللي أنت بعت لهم الحديد والأسمنت اعترفوا عليك.
- والله يا باشا...
- خلاص يا " كمال" الموضوع انتهى، وتحمد ربنا أني مبلغتش عنك، ولا كان زمانك مرمي في السجن.

خرجتُ من مكتب صاحب الشركة مكنس الرأس، لا أدري ماذا أفعل، فقد أصبحتُ بدون عمل ومتهم بالتلاعب في مواد البناء وسرقتها وبيعها لبعض التجار، ضاقت الدنيا واسودت في عيني، فقررتُ أن أترك بلدي و أسافر، لم يعد لي مكان فيها بعد ما حدث، لعلني أجد في السفر مصدر رزق جديد، في مكان لا يعرفني فيه أحد، وأهرب من ماضٍ شوه سمعتي.

اتفقتُ مع رجل لمساعدتي على السفر، وهناك تعرفتُ على ثلاثة شباب، أحدهم يدعى "سيد كراز" والثاني يسمي "سعد بنزيمه" والثالث يسمي "

شكري"، حدد موعد السفر بعد ثلاثة أيام عندما يكون القمر محاقًا حتى لا يرانا أحد.

أردتُ توديع الفتاة التي أحبها، وكنت أنوي الارتباط بها لولا ما حدث فذهبتُ لمقابلتها في المكان الذي اعتدناه، وعندما جاءت قلتُ لها و أنا أخشى من رد فعلها:

- حبيبتي، أنا هسيب البلد كلها وأسافر.

فقالت وهي تبكي:

- يبقى اللي أنا سمعته صح.
- و إنت سمعتي إيه؟!
- البلد كلها بتتكلم عنك، بيقولوا أنك كنت بتسرق صاحب الشركة وطردك ومرضاش يبلغ عشان خايف على سمعته.
- كلهم كدابين، عملوا عليا لعبة عشان يوقعوني ويخلى لهم الجو.
- عاوز تسافر وتسبني يا "كمال"، طب و اتفاقنا إننا نتجوز.
- سنة واحدة بس يا حبيبتي، أظبط فيها حالي وارجع نتجوز.
- عشان خاطري يا " كمال " بلاش تسافر وتسبني، مش عارفه هعمل إيه من غيرك، شوف أي شغل هنا، حتى لو بلد تانية.
- أنا خلاص زهقت من البلد دي، كل البيبان مقفلة في وشي، هسافر يمكن هناك أعرف ألم قرشين نتجوز بيهم.
- أنا بحبك أوي يا " كمال" مقدرش أعيش من غيرك.
- و أنا كمان بحبك، بس ما باليد حيلة، لازم نستحمل الفراق.

شعرتُ بدموعها قد بللت ظهري، وقالت وهي تصدر أنينًا كالأطفال:

- طب اكتب عليا قبل ما تسافر، و أنا هستناك العمر كله.

- مينفعش يا حبيبتي، مينفعش، أنا مسافر أرض غريبة عني، الله أعلم هيحصل لي إيه هناك.
- مش بتقول سنة وهترجع، ولا أنت بتضحك عليا!
- ادعي لي أنت بس وأول ما أمسك في إيدي قرشين هاجي ونتجوز.

ودعتها على أن نتقابل مرة أخرى قبل السفر، لكني لم أستطع على تحمل لحظات الفراق، فسافرتُ دون وداع وتركت لها رسالة أبث فيها حبي وأحلامي وآمالي وآلامي.

سافرتُ مع هؤلاء الشباب الذين تعرفتُ عليهم، وكل منا يهرب من وطنه بحثًا عن فرصة في بلد آخر.

استقر بنا الترحال في لبنان، حبسنا الكفيل في غرفة صغيرة لمدة ثلاثة أيام وكنا حوالي عشرون شابًّا، جاء الأمر بأننا سنعبر الحدود إلى سوريا وبالقرب من حدود تركيا تفرقنا، لم يتبقَ معي إلا الشبان الثلاثة، سرنا أيامًا في الغابات تلاحقنا الشمس المحرقة أحيانًا والمطر الغزير أحيانًا أخرى.

أصيب "شكري" بالحمى الشديدة، فجلسنا بجواره بعض الوقت ونحن لا نعرف كيف نعالجه، وقد نفد ما كان معنا من طعام فأكلنا من أوراق الشجر، وشربنا ماء الندى والمطر، اشتدت الحمى على " شكري " ونحن لا حيلة لنا، نرى حياته تخبو أمامنا رويدًا رويدًا ولا نملك من أمرنا شيئا، حتى فاضت روحه إلى السماء، تسبب موته في حزن شديد لنا جميعا، لكن لا وقت للبكاء على ما فات، فكان لا بد من إيجاد حل حتى لا نموت واحدًا تلو الآخر. توارى جسده في حفرة كبيرة بالقرب من إحدى الأشجار.

خلفنا الدموع وراءنا، ومضينا لتكملة الرحلة، دخلنا الحدود التركية على حين غرة من أهلها، فأجمعنا الرأي أن ندخل من أبواب متفرقة و نتقابل بعدما يستقر بنا المقام، لكنهم فطنوا لنا فتم القبض على " سيد كراز "،

فقرّر " سعد بنزيمة " البقاء في " تركيا " بسبب وجود قريبٍ له، قد يساعده في الحصول على عمل.

أما أنا فقد استطعتُ الهروب حتى وصلت إلى " اليونان " بعد عناء، وبعد أيام لا أعرف كيف مرت، وقد نفد كل ما معي من أموال، تعرفت على بعض المصريين، الذي ساعدوني في الحصول على عمل في مصنع لقطع الحجارة وصنع الرخام والجرانيت، فكنتُ أنام في غرفة صغيرة ملحقة بالمصنع، مع مرور الأيام أتقنت عملي وأظهرتُ فيه مهارة فائقة، بجانب أفكاري لتطوير العمل مما جعل صاحب المصنع يعجب بشخصيتي، بالإضافة لتميزي بالقوةِ الجسمانية ووسامة الشكل.

بعد مرور عدة سنوات اكتسبتُ فيهم ثقة صاحب العمل وزوجته حتى أصبحت الرجل الثاني، ولي كلمة مسموعة، مات صاحب العمل بعد صراع مع المرض، فأوكلت لي زوجته إدارة المصنع، فزاد التقارب بيننا، فتزوجتها وحصلتُ على الجنسية اليونانية، وأصبحتُ أتحكم في كل ما تملك، وكبرتُ المصنع وطورته، لكن حنيني إلى الوطن ظل يراودني كثيرًا، فبدأتُ أخطط للعودة إلى وطني لكن ما عجل بقرار العودة هو وفاة زوجتي اليونانية.

فنقلت كل نشاطي إلى مصر، وبدأت بمصنع صغير للسراميك، وبدأ عملي ينمو ويكبر، فأنشات مصنعا كبيرًا ووسعتُ نشاطي في مجالات كثيرة سواء في الصناعة أو السياحة أو القنوات الفضائية.

****

داخل غرفة الحبس التي تزخر جدرانها بالذكريات لكل من مر بها سواء كان ظالمًا أم مظلومًا، جلست في أحد أركانها، وأشعلتُ سيجارة أطرد مع دخانها أشباح الماضي بأحداثه التي لم أكن أتوقعها، أخذت أقلب في مذكرات "خالد" التي طلبتُ من " حسن " إحضارها لي.

ثم أسندت رأسي إلى الحائط، أفكر في أعز الناس التي فارقتني.

كنت آخر من رآهم، كنت مع " هبة " يوم الحادث، وكنت أول من رأي "خالد" بعدما قتل، لكني لم أقتله.

آآه يا "خالد" يا صديقي الغالي، كيف أتهم بقتلك، ألم يعرفوا قدرك في قلبي؟!

أتذكرُ يا "خالد" ماذا كنتُ أفعل عندما تشتكي لي من سخرية واستهزاء "هشام" مما تكتبه، ويصفك بأنك تضيع وقتك في أشياء تافهة، كنت دوما أشجعك على الاستمرار في الكتابة لأنّك فعلا موهوب، أتذكر يا صديقي عندما قلتُ لك يومًا:

قد تكون صاحب موهبة في الكتابة الأدبية أو الصحفية، فلا يبتسم لك القدر، وتظلّ موهبتك تطوف بخاطرك وحنايا قلبك، فتظل طي النسيان، في حين أن الأقل منك صار أديبًا مشهورًا أو حتى إعلاميًا صاحب سطوة.

قل: الحمد لله أنك نكرة بالنسبة لهم، لأنهم غرقوا في بحر النفاق والكذب وإضلال الناس، قل الحمد لله أنه حرمك شهرة زائفة ونجاحًا كاذبا لم يجن صاحبه إلا سخط الناس وكراهيتهم، قل الحمد لله أنك لم تكن وسيلة في مساعدة ظالم أو فاسد أو فاجر فالنسيان مع احترام وتقدير الناس، خير من شهرةٍ مع سخط وكراهية.

خرجتُ من أفكاري على الدموع التي تتساقط على أحزان الماضي وآلامه، فاستسلمتُ للنوم وكلي أمل في غد أفضل.

كنتُ أتردّد على شقة الأستاذ " إبراهيم " لكي أطمئن على والدة " عادل " وخطيبته تنفيذًا لوصيته، فكنا نجلس نتبادل الحوار حول القضية، وكيف نساعد " عادل " في الخروج من تلك التهمة الباطلة، و كنت مصممًا أن حل اللغز عند "هشام" لأنه حاول أثناء شهادته في المحكمة إلصاق التهمة بـ " عادل ".

ونحن على تلك الحالة من المناقشة دق جرس الباب، فإذا بشخص غريب يسأل عن والدة "عادل" فعَلَتْ الدهشةُ الوجوه.

لم يخبرنا الرجل الغامض بشيءٍ، كل ما قاله أن شخصًا يريد مقابلة والدة " عادل " في أمر مهم يخصُّ القضية المتهم فيها.

أصررت على الذهاب معها وعدم تركها بمفردها، فنزل الرجل على رغبتي، ركبنا السيارة الفخمة معه، ونحنُ لا نعرف إلى أين تتجه بنا، وكانت دهشتي أكبر عندما توقفت أمام مقر شركة " أبو المحاسن ".

سار الرجل أمامنا وهو يشير لنا أن نتبعه، فصعدنا خلفَه حتى وصلنا لمكتب فخم يجلس فيه "محجوب" وأول ما لمحنا تغير وجهه وتقدم نحونا ونهر الرجل على اصطحابي معه.

ثم قال موجهًا كلامه لي:

- استنى أنت هنا، لما الست تخرج من عند الباشا.

نظرت لي والدة " عادل " وهي خائفة، فهي لا تعلم سببَ حضورها هنا، ولا هذا الباشا الذي ينتظرها بالداخل، فأومأتُ لها برأسي مطمئنًا، و أنا أكاد أسمع صوت قلبها يدق بشدة خوفًا على ابنها، وكلها أملٌ في أن تكون تلك المقابلة سببًا في نجاة ابنِها من التهمة التي لحقت به.

أكثر من ساعة قضتها والدة " عادل " داخل مكتب " أبو المحاسن " ثم خرجت، فبدا على ملامحها كأنها قد سحرت أو لعبت الخمرُ برأسها، فلم تتحدث بل سارت في اتجاه باب الخروج، فلحقتُ بها و أنا في غاية الدهشة، محاولًا تفسير ما حدث في مقابلتها لـ"أبو المحاسن" سألتها فلم أحظَ منها بجواب شافٍ.

لم تنبس بكلمة واحدة طوال طريق العودة لمنزل الأستاذ "إبراهيم" فقد بدا على وجهها علامات الراحة والدهشة في نفس الوقت، وكلما سألتها تنظر لي وهي مبتسمة وتهز رأسها وتقول: خير إن شاء الله يا ابني، متقلقش.

وصلنا البيت، فاستقبلتنا " سماح " عند الباب، وقالت بلهفة:

- خير يا ماما، حصل إيه؟

أجابتها بكل هدوء وثقة وهي تربّت على كتفها:

- كل خير يا بنتي إن شاء الله.

اتجهت الوالدة نحو الكنبة وجلستْ وهي تتنفس الصعداء، ونحن جميعًا ننظر لها بدهشة من حالة الهدوء والسكينة التي تزين ملامحها ولا نعرف لها سببًا، فهي ترفض الإفصاح عما دار في تلك المقابلة، حتى فاض بي الكيل فقلتُ لها:

- حصل إيه في المقابلة؟ " أبو المحاسن " قالك إيه؟ قلقتينا.
- لا قلق ولا حاجة يا ابني قلت لكم: خير... اطمنوا.
- أيوه يعني نطمن إزاي؟!
- يا " حسن " يا ابني، أنا قلت للرجل كل اللي حصل، وإن ابني استحالة يقتل صاحبه، فوعدني أنه هيعمل المستحيل عشان يخرجه، و أنا متأكدة أن ابني " عادل " هيخرج قريب أوي.

أخذنا ننظر لبعضنا البعض وقد أصابنا الذهول من كلامها، وثقتها في وعد " أبو المحاسن " فلم يقتنعْ أحد منا بما قالته، خصوصًا أنا فهل ما قالته يستحق المكوث لأكثر من ساعة داخل مكتب " أبو المحاسن " المعروف عنه انشغاله الدائم، و أنه عادة لا يستقبل أحدًا داخل مكتبه إلا لعقد الصفقات الهامة.

كيف يسمح لسيدة لا يعرفها بأن تتحدث معه لساعة كاملة، بل ويتعهد لها بأنه سيساعد ابنها في الحصول على براءته، لا بد أن هناك شيئًا غامضًا لا نعرفه. ولا بد أيضا أن يكون له دخل في تلك الجريمة.

كثيرٌ من الأسئلة التي تحتاج للبحث عن إجابات لها، أخرجني من تفكيري والد " سماح " عندما قال وهو ينظر لوالدة " عادل ":

- أنت طيبة قوي وعلى نيتك، هو فيه حد يصدق الناس دي!

قالت بثقة وهي تتناول كوب الشاي من يد والدة " سماح ":

- أنا عارفة بقول إيه، و بكرة تعرفوا إن أنا كنت على حق، ابني هيخرج، بس محدش يجيب له سيرة عن اللي حصل.

****

عجيب أمر الباشا، كيف يطلب مني هذا الطلب، ما الذي غير رأيه، هل نسي ما حدث، وما علاقته بوالدة هذا السائق المجرم التي أصر على مقابلتها بمفرده، ولم يخبر أحدًا بالحوار الذي دار بينهما داخل المكتب.

رأسي تكاد تنفجر من التفكير، قد يضيع كل ما خططت له في لحظة، ماذا أصنع الآن فيما طلب مني، هل أضحي بمستقبلي من أجل شخص لا يستحق، كل المشاكل تحيط بي ولا أدري كيف أتصرف، رنّ هاتفي و أنا على تلك الحالة من التفكير، فنظرتُ لرقم المتصل فإذا هو " عبد العزيز بيه "،

الذي طلب مني السفر للأسكندرية في خلال يومين على الأكثر، وعندما سألته عن سبب العجلة أخبرني بوصول شحنة للمينا، ولن يستطع أحد غيري تخليص أرو اقها خوفًا من أن يلاحظ أحد ما نقوم به، وكنتُ أخطط للسفر بعد أسبوع تقريبا عندما تنتهي قضية هذا السائق.

استدعيتُ " وجيه " لمكتبي، فجاء مسرعًا، فوقفت لأستفسر منه فيما قام به، فقلتُ:

- عملت إيه يا " وجيه " في اللي قلت لك عليه؟
- كله تمام، متقلقش.
- اوعى يكون حد أخد باله أو شك في حاجة.
- اطمن حضرتك، كل حاجة تمت في سرية، والرجل أخذ إجازة طويلة الأجل.
- طب روح أنت شوف شغلك، لو فيه جديد أبقى بلغني.
- أوامرك يا " محجوب " بيه، بس فيه حاجة كده عرفتها وكنت عايز أبلغ حضرتك بها.
- حاجة إيه يا " وجيه " اتكلم.
- " إلهام "، " إلهام " يا " محجوب " بيه.
- ما لها " إلهام "، حصل إيه؟، مش خلاص هي سابت الشقة ودلوقتي هي في إسكندرية.
- أيوه يا باشا، بس أنا وصلتني معلومة أن فيه واحد بيتردد على شقتها، وكمان عرفت إنها مش حامل ولا حاجة، وكانت متفقة مع الشخص ده أنها تقول لحضرتك كده.

وقفتُ من مكاني مذهولًا مما سمعته، فتوجهتُ نحوه وقلتُ:

- بنت الكلب! بقى الساقطة دي تعمل معايا أنا كده.

ثم استدرتُ نحوه و اقتربت منه وقلتُ له بحزم:

- اسمع يا " وجيه "، خليك جاهز، وأول ما أقول لك نفذ تنفذ من غير ما حد يعرف حاجة، طبعًا فاهم قصدي كويس.
- فاهم يا باشا، التنفيذ اتأخر كتير، كان المفروض من زمان.
- مش مشكلة أهو برضو استفدنا منها.

خرج " وجيه " من عندي، وجلستُ أنا أفكر فيما عرفته، و أنا أشفق على نفسي من تلك المشاكل المتلاحقة، قررت أن أتصل بهذة الحقيرة، وعندما جاءني صوتها قلت لها:

- أهلا يا " لومة " أخبارك إيه؟
- مخصماك متكلمنيش، أنت مجتش ليه.

قلتُ و أنا أتصنع الضحك:

- خلاص يا روحي كلها أسبوع وهكون عندك، بس طمنيني عليكي، بتقضي يومك إزاي؟
- عادي يا " محجوب "، بصحى من النوم بعد العصر وبنزل شوية بالليل وبرجع تاني، لما زهقت من الوحدة.
- يعني مش بتزوري حد ولا حد بيزورك؟!

شعرتُ بالاضطراب في صوتها وهي تقول:

- حد زي مين؟ لا طبعا هو أنا أعرف حد هنا، مكنش إلا "هشام" و أنت طلبت مني أبعد عنه ونفّذت كلامك، حتى من غير ما أعرف ليه طلبت أصاحبه، وليه طلبت مني أبعد عنه.
- هتعرفي كل حاجة في وقتها يا " إلهام "، متستعجليش.
- طب وموضوعنا عملت فيه إيه؟ أنت وعدتني أننا نتجوز في أقرب فرصة.

- طبعًا يا روحي طبعا، وأنا عند كلامي، جهزي نفسك لمفاجأة، أنا هقفل دلوقتي بقى عشان عندي شغل.

أنهيت المكالمة وقد عقدت العزم على استئصالها من حياتي.

****

لم يعد بجانبي أحد، قتل صديقي وسجن الآخر حتى " إلهام " تركتني في طريق الإدمان ولم أعثر لها على طريق، اعتدتُ السهر في الملاهي الليلة وآخر الليل أعود للنوم، دون أي جديد يذكر، وفي ليلة كنتُ أشعر بالملل جلستُ داخل الملهى أحتسي الخمر ومعي صديقي "عصام" الذي تغيرت معاملته معي، فلم يعد يأتي للسهر إلا لو اتصلتُ عليه.

فجأة ونحن نتحدث ونضحك، اقتحمت قوة من رجال الشرطة المكان، فانقبض قلبي وحاولت الاختباء، لكنهم كانوا يقصدونني توجهوا نحوي و اقتادوني معهم إلى قسم الشرطة و أنا لا أعرف السبب!

قضيتُ أول ليلة لي داخل الحبس، و أنا في قمة التعب والإرهاق، لكني عقدتُ العزم على الثبات على موقفي، ولن أغير أقوالي مهما حدث، فلم أفعل كل ما فعلت حتى يضيع في النهاية.

في الصباح مثلت بين يدي وكيل النيابة، الذي رق لحالتي الرثة وسمح لي بالجلوس، ثم طلب من الكاتب تدوين بياناتي، ونظر لي ثم قال:

- أنت متهم بقتل المجني عليه "خالد"!

وقفتُ مفزوعًا كثورٍ قاصٍ في الصحراء، ثم قلتُ:

- أنا!... أنا بريء محصلش محصلش، أنا دخلت الشقة بعد "عادل" ولقيته ماسك الشال في إيده و"خالد" مرمي على الأرض.

- تحريات الشرطة أثبتت أنك خرجت من المكتبة قبل "خالد".
- كان عندي مشوار، وقلت لـ "خالد" كده لما طلب مني نرجع البيت سوا.
- طب إيه اللي يخلي "خالد" يسيب شغله ويرجع البيت؟
- معرفش، تقريبا كان تعبان شوية واستأذن علشان يرتاح.
- "هشام" الإنكار مش هيفيدك، فيه مكالمة مسجلة و انت بتعترف فيها أنك قتلت "خالد"
- كذب، محصلش، محصلش، " عادل " هو اللي قتله.
- طب تقول إيه عن المليون جنيه اللي وجدتْ باسمك في البنك.

صدمني ما قاله، فلم تستطع قدمي أن تحملني، فجلستُ ووضعتُ يدي على رأسي ورُحتُ في نوبة من البكاء، و أنا أكرر: أنا معملتش حاجة، أنا بريء، " عادل " هو اللي خنقه.

- "هشام" لازم تساعد نفسك، الأدلة كلها ضدك، احكي اللي حصل بالتفصيل.
- مكنش قصدي أقتله، والله ما كان قصدي أنا كنت بمر بظروف صعبة، كنت تعبان أوي، ومحتاج لفلوس.
- محتاج فلوس علشان تشتري البودرة.
- في الوقت ده جالي واحد وعرض عليا مليون جنيه، مقابل خدمة.

أرجع وكيل النيابة ظهره على الكرسي، وقال لي:

- خدمة إيه يا "هشام"؟ كمّل.

قلتُ و أنا منَكّس الرأس و أنظر للأرض:

- المقابل أني... أني أوقع "عادل" في مشكلة أو تهمة تدخله السجن.

اعتدل وكيل النيابة مكانه وقال:

- وبعدين.
- في الأول رفضتُ، لكن احتياجي للفلوس دفعني أو افق، ولما فكرت لقيت أن أحسن طريقه أني أوقعه في "خالد" خصوصًا أنه خطب البنت اللي " خالد" كان بيحبها.
- كمل " يا هشام ".
- ونجحت فعلا و اتخانقوا على القهوة قدام الناس كلها، بس بعدها اتصالحوا، فكان لازم أدوّر على حل تاني.
- إيه هو الحل التاني؟
- سجلت المكالمات اللي بين " عادل " وخطيبته، وركبت بعض الكلام على بعضه، وعملت حوار كامل بينهم، اللي يسمعه يعرف أنهم في وضع مش تمام.
- وحصل إيه بعد كده؟
- كان كل هدفي إن خالد يسمع الحوارده، وفي يوم لمحت شال " سماح " خطيبة "عادل" على السرير، فنزلت الشغل وهناك قلتُ لـ"خالد" إن " عادل " وخطيبته بيستغفلونا و بيتقابلوا في الشقة، وإنها بنت مش تمام، هو مصدقنيش، فقلتُ له أخرج بدري من الشغل وروح شوفهم بنفسك.
- ها... كمل... كمل.
- عملت نفسي عندي مشواروسبقته ودخلت أوضة " عادل "، ولما هو وصل شغلت الحوار اللي سجلته لهم سوا، "خالد" سمع صوتهم وعرف أنهم على السرير سوا، أنا كنت و اثق أنه جبان ومش هيحاول يفتح الأوضة ويدخل.

قال وكيل النيابة وهو ينظر لي نظرة استنكار لما فعلته، وأومأ برأسه، فأكملت كلامي:

- بعدها سمعت صوت خبطة في الصالة، فعرفت إن "خالد" هيخرج، فجريت بسرعة وأخدتُ الشال في إيدي، وقبل ما "خالد" يروح ناحية باب الشقة، رميت الشال على رقبته، وضغطتُ عليه بكل قوتي، وقتها مكنتش في وعيي، لما حسيت إنه خلاص فقد مقاومته، وبدأ يقع في الأرض، اتأكدت إنه مات، فجأة سمعت صوت حد بيفتح الباب، فعرفت أن "عادل" رجع من شغله.
- كمل وبعدين حصل إيه؟
- جريت بسرعة ووقفت ورا ستارة المطبخ، ولما " عادل " شاف جثة "خالد" على الأرض، فضل يقلب فيه وهو بيعيّط جامد وبيصرخ، مشيت براحة لحد الباب، وعملت نفسي جاي من بره، وجريت عليه وفضلت أقول له عملت ليه كده يا " عادل "، ليه قتلته، هو عمل لك إيه؟ بس هو حاول يدافع عن نفسه ويصرخ و يقول: أنا معملتش حاجة، بس أنا مسبتش له فرصة وقعدت أصرخ لما الناس اتلمت، والشرطة وصلت.

نظرلي وكيل النيابة، ثم أشعل سيجارة وقال:

- وبعدين حصل إيه يا "هشام"؟
- ده كل اللي حصل، لكن والله ما كان قصدي أقتله، بس أنا مكنتش واعي لأي حاجة.
- طب مين الرجل اللي حرضك تعمل كل ده؟
- معرفوش، والله ما أعرفه، هو اشترط عليا كده، إني أنفذ وآخد اللي اتفقنا عليه من غير ما أسال.

أمر وكيل النيابة بحبسي أربعة أيام على ذمة التحقيق، وتكليف الشرطة بالبحث عن الشخص الذي ذكرته أثناء التحقيق.

****

رغم تأكدي من براءتي إلا أن اعتراف "هشام" بارتكاب الجريمة البشعة نزل فوق رأسي كالصاعقة، ولم أصدق الخبر عندما زفه العسكري المسئول عن الحراسة. فلم أكن أتخيل أن يصل الطيش إلى درجة أن يقتلَ الصديق صديقه، ويحاول إلصاق التهمة بصديقه الآخر.

علمتُ أنه سيتم الإفراج عني في الجلسة المسائية للنيابة، وفي الموعد تم اصطحابي لمقر النيابة، وفي الطرقة المؤدية لمكتب وكيل النيابة وقفت والدتي وبجوارها "سماح" ووالدها، ومعهم "حسن" ولما لمحتهم ابتسمتُ وألقيت بنفسي في أحضان أمي، التي كانت تبكي من الفرحة.

تركتهم بعضة دقائق مثلت فيها أمام وكيل النيابة الذي أخلى سبيلي لظهور المتهم الحقيقي، وخرجت من عنده لأقابله عند الباب، هذا هو "هشام" يدخل لاستكمال التحقيق معه ومن بعيدٍ ينظر الجميع له مستنكرًا ما فعله.

جمعتنا صدفة الصداقة، ثم جمعتنا نفس اللحظات داخل غرفة العمليات، ها هي الصدفة تجمعنا للمرة الثالثة على باب وكيل النيابة، أحدنا يخرج من تهمة كادت تودي بحياته، والآخر باع نفسه للشيطان.

كم كان من الصعب أن أرى صديقي في هذا الموقف، لكنه جنى ما فعلت يداه، فقد أقدم على قتل إنسانٍ كل ذنبه أنه مخلص لأصدقائه، كنت على وشك أن أصرخ في وجهه وأساله: لمَ فعل بنا كل هذا؟، لماذا ألقى بنا جميعا إلى التهلكة؟، لكن ما أن تقابلت العيون، فصعَّرتُ وجهي بعيدًا عن وجهه، وتذكرت المقولة الشهيرة التي تقول:

- " نعم، تعمدت ألا أنظر في عينيك، لتقل: خوفًا أو عتابًا، لكني لم أرد أن نتبادل نظرةَ وداع، لم أرغب في أن أرى فيهما ما كان يومًا بيننا، لا أريد أن تخونني عيني و أتذكر ما بتنا عليه وما أصبحنا عليه، الأيام دول كما يقولون، لكني لم أتوقع أبدًا أن تكون دولةً علينا نحن. ليست بيننا نظرة أخيرة يا صديقي، سأتركها للأيام تلتقطها متى تشاء، فماضينا أكبر من أن ينتهي بنظرة واحدة، اذهب غير مأسوف عليك إلّا مني، اذهب يا صديقي وخذ معك من الذكريات ما ينفعك في رحلتك، فأنا أخذتُ من الماضي ما يكفيني. لا تقلق علي، فأنا لن أندمَ على ما فعلته من أجلك و أنت أنكرته ولم ترد الجميل إلا بالإساءة، فقط ما يؤلمني أني لن ألتفت لأبحث عنك مرة أخري.. لن ألتفت أبدًا؟"!

****

لم يمضِ على خروجي من الحبس عدة أيام حتى وصلني خبر مصرع " محجوب " وهو عائد من الأسكندرية، فقد تعرض لحادث أودى بحياته، ويشاء القدير أن يكون بنفس الطريقة وعلى نفس الطريق الذي شهد الحادثة التي تعرضنا لها وأودت بحياة " هبة "، وعلمت بعدها أن " محجوب " كان يقود سيارته بسرعة جنونية بعدما قتل عشيقته " إلهام " التي قادت "هشام" لطريق الإدمان الذي جعله يفقد صوابه ويقتل صديقه "خالد".

عرفت كل هذه المعلومات من " عصام " الذي أبغلني أيضا بنبأ القبض على " عبد العزيز" الذي كان شريكًا لـ " محجوب " في تجارة المخدرات من وراء ظهر" أبو المحاسن ".

بعد كل تلك الأحداث كنا نجلس في بيت صهري الأستاذ " إبراهيم " الذي قال بخبرة الرجل الذي ألف الحياة:

- إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

فقالت والدتي وهي تنظر لي بحنان:

- يا ابني فوق لنفسك بقى، وبص لمستقبلك و انسى اللي حصل.
- إزاي بس يا أمي؟، النسيان مش بالسهل كده.
- لازم تنسى يا " عادل " لو الواحد فضل محبوس في ذكريات الماضي، أكيد المستقبل مش هيفرق عنه كتير.
- والله كلامك صح يا " حسن " يا ابني.
- يعني أعمل إيه يا جماعة؟ بسهولة كده أنسى كل اللي حصل.
- يا ابني عايزة أفرح بيك قبل ما أرجع البلد.
- بلد إيه يا أمي، أنت هتخليكي معانا هنا شوية.

- أنت ناسي إخواتك ولا إيه؟، كفاية عليك عروستك.

قالت " سماح " وهي تخفض رأسها خجلًا:

- ربنا يخليكي لنا يا ماما.
- تسلمي يا حبيبتي، خلي بالك من "عادل" ولو عمل حاجة اتصلي على آجي أملّص ودانه.
- خير البر عاجله، وانا معنديش مانع يدخلوا في شقتي وانا هشوف لي أي مكان أسكن فيه.

قلتُ وأنا أضحك على كلام " حسن ":

- حيلك، حيلك، شقة إيه اللي هنسكن فيها، أنا مش موافق طبعا، إحنا هنشوف أي شقة إيجار جديد مؤقتًا.
- حاضر يا عم "عادل"، وهجيب "شيكو بيكو" ونعمل لكم أحلى فرح... زغردي يا أم " سماح ".

تمت كافة الاستعدادات للفرح، بعدما عثرلنا " حسن " على شقة إيجار، فلم أود العودة للشقة القديمة وما تحمله من ذكريات مؤلمة، فكل ركن بها يذكرني بأيام صداقتنا أنا و"خالد" و"هشام".

أقمنا حفلًا صغيرا بمنزل العروسة، حضره بعض المعارف، قام فيه " حسن " بدور الفرقة الكاملة وأحيا الحفل بالكامل وسط جوٍّ من الفرحة والسعادة، رغم القلوب الدامية التي تئن من جراء ما حدث، كانت فرحة أمي واضحة على ملامحها، رقصت بصحبة " حسن " وضحكت كثيرًا، فلن أنسى أن مجيئها من قريتها ساعدني على تخطي الصعاب التي مرت بي.

وفي منتصف الليل تقريبًا ودعنا الجميع، وأخذت عروستي " سماح " وذهبنا إلى شقتنا الجديدة لنبدأ الحياة من أولها، مخلفين الماضي وراء ظهورنا.

في اليوم التاني حضر الجميع ليباركوا لنا، وكلهم سعادة من أجلنا احتضنتني أمي وغمرتني بحنانها، لكني صدمت عندما قررتْ العودة لقريتها، ورغمَ أني حاولت كثيرًا معها لكني فشلت، فنزلتُ على رغبتها، على أن أقوم بتوصيلها إلى حيث مكان العودة لكنها رفضت بحجة أني عريس جديد، فتطوع " حسن " لتوصليها، فاحتضنت زوجتي وقبلتها كثيرًا مثلما فعلت معي وهي تودعنا.

غادر الجميع وتركونا، نستأنف حياتنا الزوجية الجديدة.

****

- إزيك يا "سوسن"، أخبارك إيه؟

قالها لي بمجرد أن دخلتُ عليه مكتبه وأصبحنا بمفردنا، كنتُ في غاية الدهشة عندما ناداني باسمي، فقلتُ و أنا في قمة الحيرة والخوف.

- الله يسلمك يا سعادة البيه.
- مش فكراني يا "سوسن"؟، ولا حتى عرفتي صوتي؟!

اتجهتُ ناحية الصوت فوجدتُ شخصا يجلس على كرسي كبير وظهره نحوي فلم أرَوجهه، فقلتُ:

- مش واخدة بالي والله، أنت تعرفني منين؟!
- أنا أعرفك كويس قوي و انت كمان تعرفيني.

ثم استدار بالكرسي نحوي، لكني لم أستطع تمييز ملامحه جيدا فبادرني قائلا:

- ها كده عرفتيني ولّا لسه؟

رفعتُ الطرحة التي تغطي جزءًا من وجهي ودققت النظر وقلتُ:

- اعذرني يا سعادة البيه.. العتب على النظر.

وقف من مكانه و اتجه نحوي، و اقترب مني أكثر، و أنا أخفض رأسي لأسفل، فقال وهو يشير نحوي:

- أنا "كمال" يا "سوسن"، كمال.

مر شريط الماضي أمام عيني، وتذكرت الماضي بكل ما فيه، كأنه كان بالأمس القريب، فقلتُ بصوت متهدج:

- " ك... م... ا... ل"... " كمال "!

كدتُ أسقط على الأرض من هول المفاجأة، فأسندني من ظهري، وأجلسني على الكنبة، و أتى لي بكوب ماء وجلس بجواري وقال:

- أيوه أنا " كمال "، فكراني يا " سوسن "

تناولتُ بعض الماء، و قلتُ و أنا أنظر إليه بعمق:

- إزاي أنت " كمال " أنا جاية أقابل " شكري " بيه؟

ربّت على كتفي وهو يضحك، ثم وقف و اتجه نحو المكتب وتناول سيجارة من علبة فوقه، ثم استدارلي وقال:

- دي حكاية طويلة يا " سوسن "، لما شوفت صورتك مصدقتش عيني، كأننا كنا لسه سوا قريب، افتكرتُ الأيام اللي عشناها سوا، افتكرتُ أيام الشقى وسنين التعب.

ثم جلس بجواري مرة أخرى، وبدأ يحكي لي حكايته من أولها منذ أن تركني، على وعد أن يعود بعد سنة ويتزوجني، وكيف غير اسمه واختار اسم صديقه الذي توفي في طريق هجرتهم من مصر ولقب بـ " أبو المحاسن "، وارتباطه بزوجة صاحب المصنع ثم عودته إلى مصر بعد وفاتها، فقام بشحن بعض المعدّات إلى مصر وكانت النواة لمصانعه الكثيرة بعد ذلك، التي جعلت منه واحدًا من أهم رجال المال وتزوّج من إحدى بنات رجل سياسي كبير

فأدخله مجال السياسة التي برع فيها أيضًا حتى جمع بين المال والسلطة، وزادت ثروته فصار يمتلك المصانع والأراضي والمنتجعات السياحية بالإضافة لإنشاء قناة فضائية خاصة تخدم مصالحه.

حكى لي كل شيء و أنا أستمع له و أنا في قمة الذهول، وجئتُ أبحث عن براءة ابني فإذا بي أقابل إنسانًا كان الأقرب إلى قلبي منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، كنت أستمع له والذكريات تستيقظ من مرقدها، وسرحتُ بخيالي في الماضي الأليم كأنني أشاهد فيلمًا يحكي قصة حياتي من البداية.

عندما انتهى من سرد حكايته الغريبة، قال وهو ينظر لي:

- احكي لي يا "سوسن" عملتي إيه في كل السنين دي؟

خرجت مني تنهيدة زلزلت أركان مكتبه الفخم، وقلتُ:

- أحكي إيه ولّا إيه، بعد ما انت سبتني وسافرت استنيتك على أمل أنك ترجع لكني خفتُ من الفضيحة، فو افقت على الجواز من رجل طيب، وصارحتُه بالحقيقة فطلع رجل شهم واتستر عليا، ومرضاش يفضحني، و انا حلفتُ له على كتاب الله وعاهدته إني أصون عرضه طول العمر، حتى لما تعب أوي مسبتوش لحظة وكنت بخدمة بإخلاص لحد ما ربنا افتكره، وعمري ما أنسى إنه و افق يكتب الولد باسمه علشان متفضحش.

- ولد إيه اللي كتبه باسمه يا " سوسن "؟

وقفتُ وقلتُ و أنا أبكي والدموع تنهمر من عيني:

- ابنك يا " كمال " ولّا نسيت اللي حصل بينا قبل ما تسافر.

وقف مذهولا وأعطى ظهري كأن شبحًا الخجل يطارده:

- ابني أنا!، عمري ما فكرت أنك ممكن تكوني حملتي مني.

- بعد ما اتجوزت المرحوم " أحمد " اكتشفت إني حامل في الشهر التالت، وهو الله يرحمه اتستر عليا.

صدمته المفاجأة، فهرب بوجهه مني مرة أخرى، فتقدمت ووقفتُ في مواجهته وقلتُ و أنا أتعلق بذراعه وهو ينظر لأسفل:

- تعرف الولد ده يبقى مين؟ تعرف ابنك يبقى مين يا " كمال"؟

رفع رأسه ونظرلي ولم ينطق بكلمة فقلتُ:

- ابنك يبقي " عادل" يا " كمال"، "عادل" اللي دخل السجن ظلم في تهمة هو معملهاش.

نظر لي بدهشة، وعيناه تبرق من هول المفاجأة كأسد طعنه مدربه لينفذ تعليماته، وشعرتُ به قد صدمه ما قلتُ، وبأن الدنيا تلف به فلم تستطع قداماه أن تحمله فارتمى على الكنبه، وهو يدفن رأسه بين يديه هروبًا من الو اقع من هول ما سمع، وبعد أن التقط أنفاسه وقف وأمسكني من ذراعي وهو يهزني بقوة ويصرخ:

- أرجوكي يا "سوسن".. أرجوكي، قولي لي إنك بتكدبي، والكلام ده مش حقيقي.

أفلتُ ذراعي من يده وقلتُ له و أنا أصرخ:

- لا، يا " كمال " بيه، كل اللي قلته لك حقيقي.

اتجهتُ إلى الكنبة، كنت تركت عليها شنطتي الصغيرة، وأخرجت منها صورة قديمة لـ"عادل" منذ عدة سنوات ومددت يدي له بالصورة وقلتُ:

- بص كده للصورة دي، مش شبهك و انت في شبابك!

أمسك بالصورة وأخذ يدقق النظر فيها، ويتعجب من الشبه بينه وبين الشاب صاحب الصورة وسط ذهوله اقتربت منه وقلتُ له بصوت باكٍ:

- ده نسخة منك يا "كمال"، نفس لون العينين، والطول والحلاوة، أنا بستغرب إزاي مأخدتش بالك لما شوفته.
- يا "سوسن"، أنا... أنا مشفتوش ولا مرة.
- والله والله ابنك... أنا مش هكدب بعد العمر ده كله، أنا كنت معاهدة ربنا بحفظ السر لآخر العمر، عشان يفضل ابني مرفوع الرأس دايما.

صمتَ قليلا، ثم جلس على الكنبة، كأنما يفكر في شيء ما، فنزلت على الأرض و اقتربت من قدمه، و أنا أبكي و أقول:

- أنا بترجاك يا "كمال"، تخرج ابني من السجن، لو لسه لي في قلبك أي معزة، خرجه، خرجه يا "كمال" أرجوك، انقذ ابنك من حبل المشنقة يا "كمال"... أبوس رجلك ارحمني.

انحنى وأمسكني من يدي وأوقفني من على الأرض، ووقف في مواجهتي، وأخذ ينظرُلي بعمق كأنه يتأمل ملامحي، ومدّ يده وأخذ يمسح الدموع المتساقطة على وجهي، ثم قال بصوت هامس:

- حاضر يا "سوسن" حاضر، أوعدك أني هخرجه وأرجعه ليكي.

أسرعت نحو يده لأقبلها، فجذبها مني، فقلتُ له:

- أوعدك إن محدش هيعرف إنه ابنك، وهحفظ سرنا في قلبي لآخر العمر.

وهو ما يزال في ذهوله، ينظر لي، فأكملت قائلة:

- حتى اسم " كمال" محدش هيعرفه، وهتفضل زي ما أنت الباشا كبير المقام، أنا استحالة أضر أبو ابني.

ثم رحتُ في نوبة بكاء ولم أستطع تمالك نفسي، وكدت أسقط على الأرض لولا أنه لحق بي وأخذني بين أحضانِه، فشعرتُ بدموعه تسقط فوق رأسي، عندما

تلامسَ قلبه مع قلبي بعد كل هذة السنوات، وقد كنا في يومٍ أقرب ما نكون لبعضنا.

انتهت المقابلة بوعده لي بأن ابني سيخرج من السجن مهما كلفه الأمر، ووعدته أنا بحفظ السرفي قلبي طول العمر.

حمد الله على سلامة الوصول... الأجرة يا جماعة لو سمحتم.

مسحتُ الدموع بطرف طرحتي، ودفعت الأجرة للسائق، ونزلت من السيارة عائدة إلى بيتي وأولادي، بعدما اطمأننت على ابني.

****

- "عادل"... عااااااااااااااااااااااااااااادل إلحقني يا "عادل".

استيقظتُ على صراخها، فأمسكتُ بالمنبة الموجود بجواري وأنا أفرك عيني لأطرد منها النوم، فوجدتُ أن الفجر يستعد لإجلاء دورية الليل، ويحتلُّ مكانه لينشر نوره على الكون.

نظرت نحوها وهي تتعلق بي وتصرخ، فقلتُ لها:

- أيه يا "موحة"... خيريا قلبي مالك، هو ده الوقت ولا إيه؟!

أومأت برأسها وهي تتألم ثم صرخت صرخة قوية جعلتني أقفز من فوق السرير مسرعًا، ساعدتها حتى وصلنا لمكان التاكسي، واتصلتُ بوالدها ونحن في طريقنا للمستشفى.

بدأ النهار يبتسم وينشر نوره، ونحن نجلس في الطرقة أمام غرفة العمليات التي تتواجد بها "سماح" لتضع حملها.

لمحته في أول الطرقة يأتي مسرعًا ولما وصل، ألقى بجسده على كرسي بجواري، فنظرت له مبتسمًا، فشعرت به يلتقط أنفاسه ثم ربّت على كتفي وقال:

- إن شاء الله خيريا جماعة متقلقوش.
- ما لك يا ابني بتنهج كده ليه، وإيه اللي جابك دلوقتي؟!
- تصدق أنا غلطان إني جيت أطمن عليك، مش أنت يا ابني اللي صحتني من النوم وقلت لي.
- أيوه أنا، بس كنت فرحان إني هبقي أب، وحبيت إنك تشاركني فرحتي، لكن مقولتش لك تيجي.

- أعمل لك إيه يا سيدي أنت ومراتك، أنا جيت على ملا وشي عشان أطّمن، مش كنت تقول لمراتك تأجل الولادة لبعد العصر، ولا حضرتك ناسي إني بسهر في شغلي للفجر.

ضحكتُ على كلامه وضربته على كتفه وبداخلي أشكره على كل ما قدمه لي، فهو نعم الصديق بحق، بعد لحظات خرجت الممرضة من غرفة العلميات فأسرعنا نحوها فابتسمت وقالت:

- الحمد لله... بنوتة زي القمر.
- طب و"سماح"... "سماح" أخبارها إيه؟
- الحمد لله زي الفل، شوية كده هننقلها أوضة تانية وتقدروا تدخلوا تتطمنوا بنفسكم.

غمرتنا الفرحة وبدأ الجميع يبارك لي على المولودة الجديدة، وأخذني " حسن " بين أحضانه وهو يقول:

- ألف ألف مبروك يا حبيبي، ألف مبروك يا أبو...
- صحيح يا "عادل" يا ابني هتسميها إيه؟

قلت و أنا أضع يدي على كتف " حسن ":

- أنت رأيك إيه يا عمي؟
- براحتك يا ابني دي بنتك و انت حر.
- مش أنا اللي هختار الاسم، في حد تاني هو اللي هيختار الاسم اللي يعجبه.

تعجب الجميع من كلامي، وأظنهم أفتكروا إني أقصد " سماح " لكنهم قالوا:

- حد تاني مين؟

نظرتُ لـ"حسن" بحبٍ وتقديروامتنان وقلتُ و أنا أشيرنحوه:

- "حسن"... أيوه "حسن" هو اللي هيختار اسم المولودة.

رغم التأثر الواضح عليه، الحزن الدفين الذي يملأ عيونه رغم محاولته التماسك، قال " حسن " وهو يشيرلنفسه غيرمصدق:

- أنا.... أنا يا "عادل"؟!

- أيوه أنت يا "حسن"، أنا مهما عملت مش هقدر أرد لو حاجة بسطية من اللي عملته معايا، من يوم ما عرفتك و انت مثال للأخ الطيب المخلص.

قال وهو يحاول مسح عينيه حتى لا تتساقط الدموع منها:

- طب أنا بقى هسميها.. أمل... إيه رأيكم؟

- الله، الله، اسم جميل، طول عمرك زوقك حلو يا "حسن".

قررت أن أتصل لأبشر والدتي، التي فرحت جدا ودعت لي ووعدتني أنها ستأتي قريبا لزيارتنا.

أخبرتنا الممرضة أن " سماح " نقلت لغرفة أخرى، فأسرعنا بالدخول عليها، وكانت ترقد على السرير، وبجوارها يشع النور الجديد الذي زارالدنيا مؤخرًا.

اقتربت منها و أنا أبتسم وطبعت قبلة حانية على جنبينها وقلتُ و أنا أنظر للصغيرة:

- ألف مبروك يا "موجة" يا حبيبتي، وحمد الله على سلامتك أنت و"أمل"

- " أمل "؟ أنت خلاص إخترت لها الاسم ده؟!

قلتُ و أنا أضحك وأرفع يدي لأعلى:

- أنا بريء يا بيه، ده " الفيلسوف " يا ستي هو اللي اختارالاسم.

قالت وهي تنظر لـ" حسن " ممتنّة على كل ما فعله:

- اسم جميل يا "حسن"، عقبالك لما تتجوز وتجيب بنوته قلبها طيب زيك.

مددتُ يدي وحملتُ الطفلة منها، و أنا أسمي عليها باسم الله، وقلت و أنا أنظر لعينيها الصغيرة:

- تعالي بقى يا ست "أمل"، أنت بقي اللي خلتيني أسيب اللؤلؤ واجري وراكي.

- لؤلؤ إيه يا "عادل"؟! هي البنت لحقت تعمل حاجة!

قلتُ و أنا أطبع قبلة على خدها الصغيروأضمها لصدري:

- طلعي نفسك أنت من الموضوع ده، ده سر بيني وبين "أمل".

اقترب " حسن " وهو يبتسم، ومدَّ يده فأخذ الطفلة مني، وقال وهو يقبلها:

- خلاص يا عم أنت وهي... " أمل" دي بتاعتي أنا.

كنت أنظر له وهو يحملها بين يديه ويغمرها بحنانه، كأنه يرى فيها ابنته التي فقدها، وقبل أن تضغط الدموع عليه وتنهمر من عينيه تمالك نفسه، وقال وهو يقبل "أمل":

- " أمل" دي حبيبتي، وهجوزها لـ"شيكوبيكو".

ضحكنا على كلامه، وكانت عيني تر اقبه، وتنطق بما تحتويه نفسي من شكر وعرفان بالجميل لهذا الإنسان النادر الوجود في هذا الزمان.

وبطريقته الساخرة التي يعشقها الأطفال، أخذ "حسن " يتمايل وهو يحمل " أمل " بين يديه ويقول وهو ينظر لعيونها الصغيرة:

أمل... له ليالي
يطلع لم يبالي
على البستان ينور
في أحلى الليالي

ضحك الجميع من قلوبهم، فاحتضنته بين ذراعي، وقلتُ و أنا لا أتمالك نفسي من الضحك:

(يخرب عقلك يا "حسن"، أنت فعلًا "فيلسوف مجنون").

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017